أفغانستان

إحتلال الذاكرة

(الجزء الأول)

مصطفى بادي أبو إبراهيم اللوجري

قائد معسكر ليجة

أثناء عملي في الأستديو في الرياض

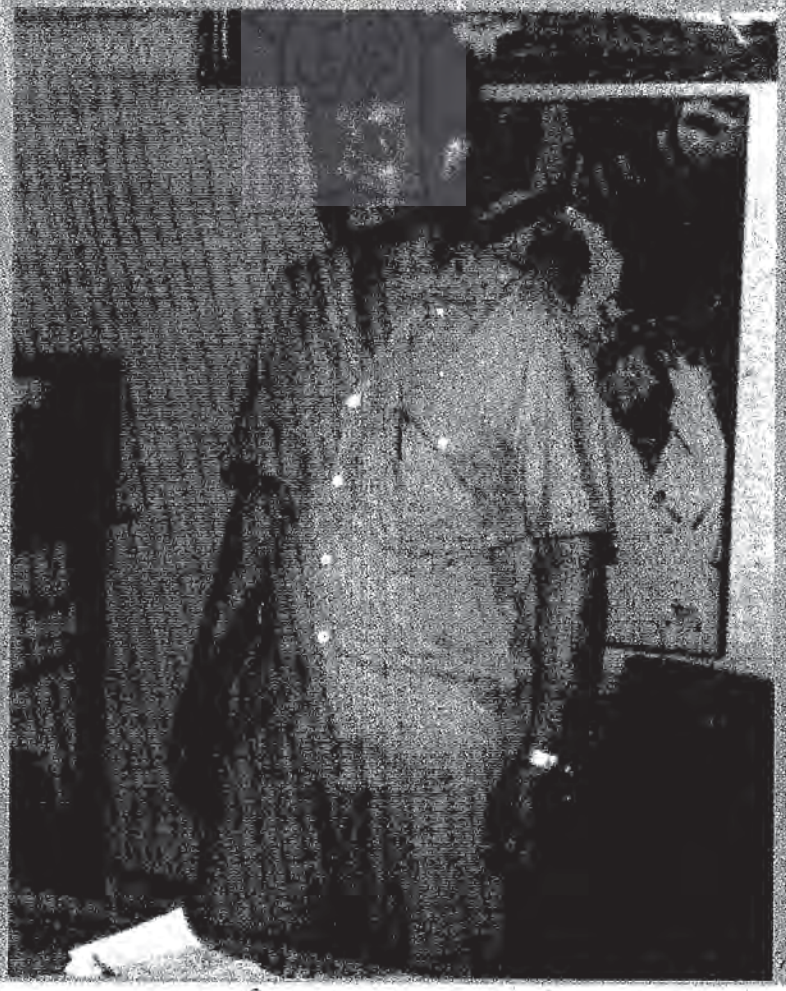

في الحديث عن الرياض والأمير السعودي

مركز الرصد - ليجة

مركز الرصد والإشارة

مقـــدمة

من الصعب على الكلمات أن تنقل ثقل المعاناة وهول المأساة الحقيقية عن الانطباعات ومرارة المسيرة ، أحداث ضخمة شرفنا الله بشهودها ، وتجارب عظيمة اكتسبناها ، وصفحات من التاريخ الإسلامي أعزنا الله أن نكون بين سطورها، وأنشودة عذبة حداها العاملون لهذا الدين كنا بقدر من الله لحناً من ألحانها ، وملحمة قدر الله لنا أن نشهد دورات رحاها وهي تطحن الأعصاب واللحوم والعظام.

أحداثاً سجلناها مشرفة توجت هامة التاريخ الإسلامي الحديث وأضحت معالم عزة وقمم مجد ، وأدركنا صداها فوق أرض بيت المقدس ، والمجاهدون يرددون هناك : أخي يا سياف العدو منك يخاف أخي ، يا حكمتيار العدو منك يغار ، تجارب عظيمة اكتسبناها على هذا الطريق الشاق الدامي ، ونضوجاً نفسياً وصفاء روحي ، وتوكل حقيقي جنيناه ثمرة دانية ناضجة لهذه المسيرة المريرة ، عشنا مع الشعب الأفغاني بإبائه وصفائه وغيرته وحيائه وزهده ونقائه وشممه ووفائه فوجدنا أنفسنا حقاً ، وأنشدنا بلسان حالهم :

أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه ... وأترك الغيث في غمدي وأنتجع

والمشرفية ما زالت مشرفة ... دواء كل كريم أو هي الوجع

والحق مع أننا مع كل المحن والمصائب المتساوقة ومع مواجهة الأعداء والمؤامرة – خصوصاً الداخلية منها – لم يهزنا شيء وأصبحت الحياة والمنية سيان أمام نواظرنا "إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي " وكل ما نطمع به الشهادة في سبيل الله فوق أرض النزال ومكر الأبطال ، لقد

أدركتُ أن من اللطف الرباني والرحمة الإلهية أن اختارني الله من بين الملايين من أبناء قومي لأكون مجاهداً في سبيله سبحانه وشرفني بأن أخوض غمار هذه التجربة وسبر أغوارها ست سنوات من عمري أمضيتها مجاهداً وخادماً للمجاهدين الأفغان ، عشنا معهم ومشينا فوق أرض الواقع بإنسانية الإنسان بكبواته وهفواته وأخطائه ، إن المرء ليقف مذهولاً أمام هذه الظاهرة الفريدة، وينظر باعتزاز وإجلال – مع الإغضاء والحياء – لهذا الشعب الصامد البطل – إن الكثيرين من أبناء أمتنا لا يعلمون بأن الشعب الأفغاني قد خاض خلال القرنين الماضيين سبع حروب للدفاع عن دينه وعرضه منذ بداية مسيرة أفغانستان الحديثة التي بدأها مع ظهور أحمد شاه بابا دوراني كما سيأتي لاحقاً .

لقد أدركت معنى قول الله عز وجل:﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

وكما قال عبد الله بن المبارك : (اسألوا أهل الثغور ولا تسألوا أهل الدثور!) . وليس من رأى كمن سمع ، وليس من عانى وذاق مرارة التجربة ، كمن نظر من بعيد ، وليس من خاض غمار المعركة واصطلى بلهيبها ، كمن يقرأ صحيفة وهو متكئ على أريكة (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

إن الجهاد في سبيل الله علمني معنى وحقيقة التوكل على الله ، لقد حلت في نفسي عقد كثيرة منها عقدة الخوف والرزق والأجل التي تشكل العقبة الكئود على طريق المسلم المجاهد .

من هنا وأنا أرى التخلي عن حمل المسؤولية وعظيم الأمانة في بيان التجربة العظيمة التي خاضها الشعب الأفغاني وخضناها معه تلفت حولي وتحدثت مع العديد من الإخوة الذين شاركونا التجربة ، وعدد من الدعاة أن

يتكلموا ويكتبوا وأن يدلوا بدلوهم ، لأن الله تعالى قال في محكم التنزيل:﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال: (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ .

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

ولأن اللص الأمريكي لن يبقي ولن يذر وقد أعلن عن حربه المفتوحة ضد الإسلام والمسلمين تحت شعار وعنوان سخيف (مكافحة الإرهاب) تحدثت مع من كانوا يعتلون المنابر ويملأون الدنيا ضجيجاً وهم يتكلمون عن الجهاد والمجاهدين !! .

لماذا الجهاد فيما مضى كان فرض عين على المسلمين، وفي الوقت الذي اختطفت فيه دولتان مسلمتان العراق وأفغانستان – والله أعلم على من الدور القادم – لم نعد نسمع تلك الأصوات والفتاوى على التحريض والقتال في سبيل الله ؟!.

سؤال أسوقه إلى أبناء الحركة الإسلامية العالمية في كل مكان .. ألا يستحق المسلمون في العراق وأفغانستان النصرة والنفير في سبيل الله ؟ .

الإهـــــداء

إلى روح الشهيد الدكتور عبد الله يوسف عبد الله عزام أمير وإمام المجاهدين العرب – رضي الله عنه وأرضاه – أتضرع إلى الله القبول ، وأن يجمعني بك يا أبا محمد ، في الفردوس الأعلى ، إنه على كل شيء قدير ، وصدق الله القائل : (إن إبراهيم كان أمة) .

ولقد كنت كذلك يا أبا محمد ، أمة بمواقفك وثباتك على الحق ، وبفراقك لنا وتركك الساحة للمنافقين ، والطابور الخامس ! لقد تذكرت قول أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه وأرضاه وهو يقول لأصحابه : (تمنّوا . . فتمنى بعضهم المال حتى ينفقه، وتمنى بعضهم التوفيق في العبادة والاعتمار ... الخ، وقالوا: تمنَّ يا أمير المؤمنين ، فقال رضي الله عنه : أتمنى أن يكون لي ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة ؟؟؟!!!).

لقد أدركت أجهزة الاستخبارات مدى حضورك وقوتك وسيطرتك على الجبهة ، وعلموا بأنك صمام أمان لهذه التجربة ولذلك التجمع العربي ، من أجل ذلك كله قتلوك . اللهم العن من أمر وخطط ونفذ بقتل أبا محمد .

ولكن عزام لا بـــواكي لـــه سلام عليك في الصالحينا

والحمد لله رب العالمين

مصطفى بادي (أبو إبراهيم اللوجري)

أمير معسكر ليجه – مديرية خوست ولاية بكتيا

٢٠٠٣/١١/٢٣م

الهجرة إلى الخليج

حرب الداخل والهجرة الأولى

لقد كان قدري أن أعيش حالة الحرب منذ وقت مبكر في حياتي، ففي سنة ١٩٨٢م اشتدت الحرب بين الحكومة المركزية في صنعاء وما كان يسمى بـ"الجبهة الوطنية" والتي كان أغلب أفرادها من الشماليين والمدعومين من حكومة الجنوب آنذاك، وكانت الجبهة متواجدة بشكل كبير في المناطق الوسطى، وعندما وجدت الحكومة الشمالية "آنذاك" نفسها أنها غير قادرة على إحراز أي تقدم في أرض المعركة كان لا بد من إشراك أبناء المنطقة لأنهم أعلم بمنطقتهم وأكثر معرفة وخبرة بأصحابها.

وكانت الحكومة ممثلة بقائد اللواء الثامن صاعقة الشهيد محمد أحمد إسماعيل – رحمه الله – قد تبنت خطة أشرف هو على تنفيذها ، وكانت الخطة أن يأخذ من كل عشرة أفراد شخصين فقط من كل أسرة لتجنيدهم لمقاومة "المخربين" وكنت أحد الشخصين اللذين تم اختيارهما من العشرة للتجنيد ، وكنت في ذلك الوقت أدرس في المرحلة الإعدادية (المتوسطة) في مدرسة الثورة بالسدة.

وهكذا قدر لي وأنا لم أتجاوز الثامنة عشرة من العمر أن أعيش بين أزيز المدفعية والصواريخ والدبابات ، وأن أحرس فوق جبال دمت ومنقير وقعطبة لمدة سنة تقريباً، ثم انتقلنا إلى العاصمة صنعاء بعد أن تم النصر على الجبهة أو المخربين حيث لم يكن يطلق عليهم صفة الشيوعيين.

وبعد أن أخذت دورة صاعقة انتقلت إلى معسكر "عمران" لأخذ دورة أخرى جديدة لسلاح أمريكي مدفعي عيار (١٠٥ملم) وكان المدربون من الجيش الأردني، ثم كان مقرراً لنا أن نكون ضمن الكتائب التي ستذهب إلى العراق للمشاركة في حربه ضد إيران.

وعندما علم والدي بذلك رفض بشدة أن أذهب للقتال في العراق، وقام بتقطيع جواز سفري وأمرني بالسفر إلى دولة السعودية للبحث عن عمل.. ولم يسعني إلا السمع والطاعة لكلام والدي، وسافرت بالفعل إلى هذه الدولة ، ووجدت هناك عملاً لدى صاحب استديو تصوير – عملت لديه أكثر من عام ونصف ، ثم تعرفت على رجل يمني كان يعمل في أحد قصور العائلة الحاكمة عند أحد الأمراء ، وكان هذا الرجل يأتي إلى الاستديو ليصور عندي الخادمات والعاملين الأجانب لدى القصر، وكان يحترمني ومعجباً بعملي ، وظل دائماً يعرض علي العمل معه في القصر ، ولأنني لم أكن أبحث عن المال حيث كان سفري أصلا هرباً من الذهاب إلى العراق للقتال ، ولأنني أيضاً كنت في سن تسمح لي بالبحث عن المتعة والمغامرة، فقد قبلت عرض صديقي، وهكذا وجدت نفسي وكأني على موعد لأعيش مع أغنى أسرة، ولدى أمير تخرج للتو من الولايات المتحدة الأمريكية وعاد إلى بلاده ليقود طائرة (إف ١٦).

وكان أكثر ما أعجبني بهذا الأمير تحرره من النظرة التي ينظر بها الأمراء إلى من هم دونهم وتعاملهم مع الآخرين على أنهم مجرد عبيد!! فقد وجدت هذا الأمير – من خلال عملي في القصر – رجلاً مختلفاً تماماً عن بقية أفراد الأسرة وربما كان ذلك بسبب دراسته في أمريكا في سن مبكرة.

وقد كانت تجربتي في قصر الأمير الطيار جيدة، عرفت من خلالها واقع المجتمع المتدين من خارجه المنحل من الداخل!! وكان أكثر ما يضايقني أنهم

غيروا مواقيت الليل والنهار!!، فلا أتذكر أنني استيقظت مبكراً إلا أياماً قليلة جداً، حتى أنني كنت أتمني أن يخبرني أحدهم ما هو عمل هذا الأمير بالضبط؟!!.

رغم أني شاهدت له صورة داخل مجلسه الخاص وهو يطير فوق طائرة عسكرية، وكنت أحدث نفسي: متى يذهب هذا الأمير إلى عمله طالما انه على هذا النظام اليومي:السهر مع بعض الأمراء حتى آذان الفجر ، ثم يعود كل أمير إلى قصره مع حاشيته ، ومن ثم النوم منذ دخول الأمير إلى القصر حتى إلى ما بعد العصر، ثم نستيقظ لتناول طعام الغداء في تلك الساعة، ثم نبحث عن مكان السهرة لتلك الليلة... وهكذا!!

وكانت هناك عجائب وغرائب كثيرة في حياة الأمراء، وسأذكر حدثاً أو مناسبةً واحدةً شهدتها بنفسي ويمكن القياس عليها لنرى إلى أي مدى وصل الوضع عند بعض أفراد الأسرة المالكة في السعودية وكبار شخصيات المجتمع ؟

فقد كنا ذات مرة ضيوفاً لدى أحد الأمراء حيث كان يرأس نادياً رياضياً مشهوراً وكبيراً ، وكان يوجد في تلك الليلة – كما هو متعارف عليه – فتيات من أغلب الدول العربية... ربما من أجل تجسيد وتفعيل الوحدة العربية!!

وكان في مجلس هذا الأمير ما تلذ له الأعين، وما لا يخطر على بال!! وبينما نحن على تلك الحال حتى منتصف الليل إذ بشاب يدخل وكأنه "فيفي عبده" بكل ما في الكلمة من معنى!! ثم وُضع له شريط للرقص الشرقي، وقد أمتع جميع أصحاب السمو والقادة العسكريين !! وقد تملكتني الدهشة عندما قال لي سائق يمني من الذين يعملون مع أحدهم: إن هذا الذي تشاهده رجل وليس امرأة!! إنه شاب من...؟! واستمر هذا الشاب في الرقص حتى انتهى من إمتاع الحاضرين ! كانوا ينثرون فوق رأسه الكثير من المال كما يفعل المصريون في

الأفلام!! .. لقد استمتعت بتلك الفترة التي قضيتها مع الأمير الطيار، والكلام عن تجربتي مع هذا الأمير ربما لاحقاً عندما يحين كشف الحساب .

السفر إلى دبي

لقد كنت على موعدٍ آخر مع مدينة دبي العربية، التي لم أجد بها إلا الكثير من البلوش والتيمور الآسيويين من بلاد عديدة ومعروفة، وقد سافرت إلى دبي أثناء الإجازة السنوية للوفد الملكي بكامله،حيث كانت الأسرة الملكية تذهب سنوياً لقضاء الإجازة في المغرب ومراكش مع عائلاتهم، وقد منحونا -نحن السائقين إجازة لمدة شهر كامل نقضيه في دولنا أو أي مكان آخر نريده، وأعطونا عشرين ألف ريال إكرامية، إضافة لتذكرة سفر ذهاباً وإياباً!

وقد اخترت مدينة دبي لقضاء هذه الإجازة لأنني كنت أسمع عنها أنها مدينة جميلة وفيها كل ما يتمناه الشاب، فسافرت إلى دبي ونزلت بفندق - محترم وسط مدينة دبي كان اسمه "فندق الخليج"، ولا زلت أتذكر تلك اللحظات عندما وصلت مطار دبي، حيث كنت أتوقع أن أجد موظفاً إماراتياً ففوجئت أنه حتى سائق التاكسي كان "بلوشياً" وبصعوبة استطعت التفاهم معهم في المطار!!

شعرت بعد مضي اثني عشر يوماً أنني لا زلت أعيش نفس النظام الذي تركته في الدولة التي غادرتها اللهم إلا أن الفارق أن كل شيء هناك يتم داخل القصور، أما هنا في دبي فالأمر معروف لدى الجميع..!

وذات يوم أردت الخروج للعب بدل الذهاب إلى المراقص والنوادي الليلية، فلبست ثياب الرياضة، وخرجت إلى منطقة قرب فندق "حياة رجنسي" ووجدت مجموعة من الشباب يلعبون، وعندما وصلت رآني الشباب فدعوني لألعب معهم، ولعبت معهم حتى المغرب، وفي تلك اللحظة غادر الشباب جميعهم مكان اللعب

وعادوا إلى أماكن عملهم – كان أغلبهم يعملون في تلك الفنادق وكانوا جميعاً أجانب وليسوا بعرب أو إماراتيين.!!

قلت في نفسي : لماذا لا تصلي وأنت تسمع الأذان؟! يجب عليك أن تذهب للصلاة بصرف النظر عما تفعله بالليل!! لا أدري ما سبب ذلك الشعور في تلك الساعة، إنني لا زلت أشعر به حتى هذه اللحظة بعد مرور قرابة الستة عشر عاماً!! المهم ، انتقلت مباشرة باتجاه ذلك الجامع لأداء صلاة المغرب، فلم أجد داخل ذلك الجامع الكبير سوى المؤذن.. وهو باكستاني الجنسية والإمام وهو باكستاني أيضاً وثلاثة أو خمسة من المصلين...!! لم أصدق ما شاهدت عيني، هل أنا فعلاً في بلاد عربية؟! وكيف ذلك؟!.. أسئلة عديدة طرحت نفسها عليَّ في تلك الساعة، وكنت أتمنى لو أجد حتى إماراتياً واحداً يجيبني حتى على سؤال واحد من تلك الأسئلة، كما تمنيت لو أن أحداً يسمع ذلك الإمام وهو يقرأ القرآن بلكنته الأعجمية التي لم أكد أفهم منها شيئاً!!

وبعد الصلاة تمنيت لو أنني لم أدخل الجامع، فقد خرجت منه وكأنني فقدت عزيزاً أو أصبت بفاجعة عظيمة!!. أتمنى لو أني أستطيع أن أعبر عن تلك المشاعر التي انتابتني في تلك اللحظة الحزينة.

والغريب أني لم أجدها في أي لحظة من عمري حتى هذه الساعة!! والأكثر غرابة من ذلك كله أنه بعد خروجي من الجامع ذهبت إلى المكتبة في شارع نايف واشتريت مصحفاً، وأخذته معي إلى الفندق، وقد بدأت – وربي – محاولة حفظ القرآن بأي طريقة ، وبعد دخول المصحف إلى غرفتي أقسمت على نفسي أن لا أدخل فيها ما يغضب الله بعد تلك اللحظة، وفعلت ذلك بالفعل ، بل إنني لم أعد أذهب إلى النوادي في دبي، فقررت العودة إلى بلادي "اليمن" وقلت لنفسي: أعمل شيئاً لإكمال فترة إجازتي.

وفي صنعاء كنت على موعد مع حياة جديدة، وتاريخ جديد، وإنني أشكر الله – عز وجل – أن أكرمني واختارني من بين الكثير من عباده لأشارك مع الإخوة المجاهدين الأفغان في جهادهم ، وأن أعيش مع تلك النماذج الفريدة التي أعادت بناء الكرامة والعزة وإعلان الحقيقة التي تليق بأمة الإسلام كما كان سلفنا من قبل.

وهكذا كان قدري أن أشارك في ثلاثة حروب اثنين منها في بلادي اليمن ؛ حيث خضت أول معركة وأنا في سن مبكرة ، والثانية هي الأساس التي أعتز بها والتي كانت مع الشعب الأفغاني ضد الروس ، أسجل هنا ما شاهدته وعايشته فيها بكل صدق وأمانة كما أمرنا بها ربنا (سنكتب شهادتهم ويسألون).

كما أود التأكيد قبل الخوض في تفاصيل هذه التجربة المثيرة على أنني ذهبت إلى أرض الجهاد عام ١٩٨٦م بمحض إرادتي وبقناعتي الشخصية ، وأنني حتى هذه الساعة لا أمثل أية جهة سياسية أو تنظيماً أو حزباً سياسياً، وأنني أنقل تجربتي المتواضعة بصدق وأمانة – كما يأمرني ديني -بعيداً عن أي تصور آخر ، وأن الذي جعلني أعاني كثيراً مع من كانوا يتاجرون بالمجاهدين المخلصين من شباب العرب هو موقفي واستقلالي عن أي تنظيم في ساحة بيشاور ، التي كانت – بحق – بؤرة التآمر على الجهاد والمجاهدين وبصفة خاصة على (المجاهدين العرب) ينبغي أن يعلم هذا.. وأن الذي جعلني أخرج للناس تجربتي هذه هو ما يجري اليوم على أرض أفغانستان والعراق من قبل الأمريكان ، وأريد نقل صورة حقيقية عن الجهاد الأفغاني من خلال تجربتي في أفغانستان ، والتي أكتبها الآن بكل موضوعية وشفافية.

والحرب الثالثة هي في سنة ١٩٩٤م ضد الانفصاليين ..

فإلى الحديث عن تجربتي مع الجهاد الأفغاني.

خطبة الجمعة التي غيرت مجرى حياتي

ربما يتساءل القارئ عن سر تحولي المفاجئ نحو الجهاد، واختياري للعيش في جبال أفغانستان أترقب الموت في أية لحظة ، بدلاً عن حياة اللهو والترف التي كنت أحياها في الرياض ، خاصة وأنني لم ألتحق بأي معهد ديني ، ولم يكن لدي اهتمام بقضايا المسلمين وقضايا الجهاد ، كما أني لم أرتبط بأي جماعة إسلامية بل إن ذهابي إلى أفغانستان قد تم بجهودي الذاتية ولم يأت عن طريق الحركات الإسلامية السياسية التي كانت تدعو وتحرض الشباب على الإعداد والجهاد في أفغانستان.

لقد كانت الفكرة بالنسبة لي بسيطة وكأني كنت على موعد سابق معها ، فالذي جرى أنه عند عودتي من مدينة "دبي" لقضاء بقية إجازتي السنوية .. حيث نزلت ضيفاً عند ابن عمي "نصر الله" وهو مدرس وينتمي إلى الحركة الإسلامية أو قريب منها ، وكان المسجد– الذي كان وخطيبه مشهورين جداً – قريباً من بيت ابن عمي ، بعد عودتنا من قرية "وادي ظهر" التي عادة ما يخرج ساكنو صنعاء إليها لشراء الفواكه والخضروات والقات أيضاً – وهو الأهم – وكنا قد استمتعنا بذلك الوادي واشترينا حاجات البيت ، وأجمل ما يزرع في هذا الوادي هو الرمان والعنب، وعدنا مسرعين قبل صلاة الجمعة، واتجهنا نحو ذلك المسجد للصلاة، وكأني كنت على موعد مع هذا المسجد ومع الخطيب بالذات الذي بخطبته وحديثه ذلك اليوم غيرّ مجرى حياتي إلى الأبد!! إذ تحدث في تلك الخطبة عن الفظائع التي يرتكبها الجيش الأحمر السوفييتي في أفغانستان ، ومن شدة ما طرحه هذا الشيخ وصور للمصلين من حرب الإبادة ضد شعب أمي أعزل لا يملك من أسباب القوة شيئاً يذكر إلا إيمانه بالله وتوكله عليه، فقد

تأثر أغلب المصلين في هذا المسجد ، ومن تأثر المصلين وعاطفتهم الجياشة التي استثارها الشيخ في خطبته فقد بكى واستبكى أكثر من كان في هذا المسجد، أما أنا فقد كانت أول مرة في حياتي تنزل الدموع من عيني دون أن أشعر!! وقد استحيت من نفسي لأني شعرت أن الذي على المنبر يريد أن يخاطبني أنا من بين هؤلاء المصلين أن الدين يدعوك أن تذهب لنصرة المجاهدين المستضعفين في أفغانستان!!

كما أنني – أثناء الخطبة – كنت أفكر: كيف السبيل إلى أولئك القوم؟ لم أكن أعرف أين هي أفغانستان؟ هل هي في الشرق أم الغرب؟ لم يكن يهمني ذلك ، أعتقد أن الذي أوجد لدي ردة الفعل هذه لم تكن العاطفة ، وإنما علمت حقيقة وطبيعة هذه الحياة – بعد تجربتي الأخيرة مع مجتمع ثري أو بالأصح مع طبقة من ذلك المجتمع ذات الغناء الفاحش الذي يصل فيه الإنسان إلى درجة عدم الإحساس والتبلد، لأنه عندما تريد أي شيء وتتمنى أي شيء يكون موجوداً بين يديك!! وعندما تستمتع بكل شيء تفقد طعم ولذة ما يتنافس عليه الناس ، حتى نظام اليوم وقد قسمه الله إلى ليل ونهار خالفوه، فكانت سهراتنا معهم إلى وقت أذان الفجر أو إلى الصباح ، ثم يعودون إلى منازلهم إن استطاعوا..!! أو ينامون في أماكنهم من التعب والإعياء والنضال طوال الليل في سبيل الأمة!!

إنني هذا الإنسان اليمني البسيط الذي ذهب للاغتراب رغماً عنه كواحد من أبناء هذا الشعب الذي كتب عليه – عبر التاريخ – أن يظل في حالة غربة دائمة ، منذ أن قالوا: "ربنا باعد بين أسفارنا" كما هو معروف من هذه القصة التاريخية .

لقد وصلت إلى تلك الدولة العربية الثرية وعشت وشاهدت أغنى طبقة في العالم ، وهي تعيش وتستمتع – حسب زعمها – بكل ما لديها من إمكانات!! وسأضرب مثلاً واحداً مما رأيته مع أولئك القوم .

كل ذلك أوصلني إلى قناعة حاسمة لا جدال فيها أنه إذا كانت تلك هي الحياة التي يتقاتل عليها الناس ولا يوجد غيرها، على اعتبار أنها أعلى درجة ومستوى في ذلك المجتمع .. إذا كانت كذلك فلتذهب إلى الجحيم!! وحري أن لا يهتم الناس بها، إنني أعتقد – ولا زلت – أن ذلك كان السبب الرئيسي والوحيد لتغيير قناعتي وتصوري لهذه الحياة ، زد على ذلك أنني وجدت ذلك الخطيب – في ذلك اليوم – كأنه يقول لي: يا فلان ، مكانك هناك مع أولئك الليوث الذين سيعيدون – وقد أعادوا – ثقة المسلمين بربهم وعقيدتهم ، لولا ما ارتكبه العرب من حماقات ونظرات ضيقة – سواء كان ذلك بحسن أو بسوء نية – وخصوصاً الذين كانوا يدعون شباب العرب للمشاركة بالجهاد ثم كانوا هم أول من تخلى عن ساحة الجهاد بعد مقتل إمام الجهاد والمجاهدين وأحد رموزهم الشيخ عبد الله عزام وولديه رحمهم الله.

كنت أتمنى أن تنتهي تلك الخطبة بسرعة، وبعد أن انتهينا من الصلاة ونحن في الطريق إلى منزل ابن عمي قلت له: أريد أن أذهب إلى أفغانستان ، وأنا أعلم أنه سيسخر مني ولن يصدق ما أقول.

قال لي: ما شاء الله تريد الذهاب إلى أفغانستان؟!!

قلت له: نعم . وما العجب في ذلك؟ إن الخطيب في المسجد قد دعا القادرين من شباب هذه الأمة – كما قال – ليذهبوا للقتال مع إخوانهم في أفغانستان. ألم يقل ذلك وسمعته؟!

قال: نعم . ولكنه يخاطب الناس الملتزمين ، ولا يخاطبك أنت الذي قد سقطت في مستنقع الرذيلة والملذات عند "أبي عقال"؟!

كتمتها في نفسي ولم أبدِ له غضبي أو أي ردة فعل ، رغم أني لم أكن معتاداً أن أسكت في مثل هذه المواقف إلا ذلك اليوم ، وكأني خرجت من ذلك المسجد بعقل وروح غير اللذين دخلت بهما ، لقد شعرت بذلك يقيناً.

وعندما وجدني ساكتاً لم أرد عليه – ونحن نشق طريقنا القريب إلى منزله – كأنه شعر أنه قد جرحني ، وكان يريد أن يعتذر ولكن بطريقتنا نحن اليمنيين ، نكتفي بالحديث ومداعبة الشخص وهو ما يعتبر على أنه اعتذار ولكن بطريقة غير واضحة، ثم قال لي: إنني لست الوحيد الذي يقول ذلك فهو أيضاً يريد الجهاد ، وأنه كلما صلى عند هذا الشيخ يخرج وهو ممتلئ حماساً ويريد ساعتها أن يذهب للجهاد ويظن نفسه قادراً على تحرير أفغانستان!!إنها عاطفة ستنتهي وتزول بعد "التخزينة" يعني بعد مضغ القات!!. ولم أعقب على ما قال.

وصلنا إلى منزله وكان ينتظر بعض ضيوفه ، وعندما اكتمل حضور الضيوف قدم لنا طعام الغداء، وكان حديث الجميع – أثناء تناولنا للطعام وبعده وحتى منتصف "التخزينة" في مجلس القات – يدور حول ما يجري في أفغانستان، لقد كان الأفغان والجهاد والمجاهدون – في ذلك التاريخ – حديث السامرين وحديث المجالس، منهم من يؤيد ومنهم من يشكك لأننا نحن العرب مشهورون بالتنظير، وكل واحد منا يملك قدرة على التحليل للمواقف السياسية في العالم كله!! وخصوصاً نحن اليمنيين فإننا في مجالس القات التي كان لها ميزة أو حسنة – إذا صح التعبير – فهي أنها ظاهرة اجتماعية حيث يجتمع الناس من خلال هذه الورقة الخضراء ليناقشوا أمورهم وقضاياهم ، وقد تكون هذه الحسنة سلبية لأنها

تفرغ حماس المتكلم وتعطل قدرته على مواصلة الحديث يوماً آخر، ليشحن بطاقة جديدة من الورقة الخضراء التي يشعر من خلالها بالنشوة والرغبة في الحديث!! وهنا قد يكون المستفيد الوحيد هم الذين شعارهم "فليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً"!! .

المهم كان الحديث ذلك اليوم عن الجهاد والمجاهدين في أفغانستان، ولا أريد أن أخوض فيما كان يدور – في ذلك اليوم ويومنا هذا – عن أولئك الشباب الذين ظلموا من الصديق قبل العدو ، خصوصاً بعد موجة أمريكا وإسماعها العالم بأنها تحارب الإرهاب الذي صنعته من خيالها الواسع والمطلق حسب توجهها وطموحها السياسي.

وعندما كنت أسمع المتحدثين بكل أشكالهم وتوجهاتهم المتباينة لم يزدني ذلك إلا إصراراً لأني ما علمت العرب قد اتفقوا على شيء يذكر سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو حتى قبيلة ناهيك عن دول ؛ لأنهم "تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى"!!

صباح اليوم الثاني – وكان لا يزال معي مبلغ كبير من المال وجوازي موجود وجاهز – ذهبت إلى مكتب الطيران "اليمنية" أسأل عن أقرب رحلة إلى باكستان – بعد أن علمت أن المحطة الأولى هي باكستان وتحديداً إلى "بيشاور" ومن هناك نصل إلى أفغانستان – قال لي الموظف: إن أقرب رحلة يوم الأحد – أي اليوم الثاني – وأنا لم أكن قد حصلت على التأشيرة ، فاضطررت إلى تأجيل قطع التذكرة وذهبت فوراً إلى السفارة الباكستانية – التي لا يزال مقرها حتى اليوم في مكانه – وتقدمت بطلب التأشيرة، وكانوا في ذلك الوقت لا يسألون كثيراً ولا يتحققون ، فأشار الموظف المختص إلى إحدى الغرف لأدفع مبلغاً من المال ثم أعود إليه ، أعطاني موعداً إلى بعد ظهر ذلك اليوم، وعدت بعد العصر إلى مكتب الطيران "اليمنية" من أجل الحجز، عندما رأى الموظف أنني قد حصلت على

تأشيرة سفارة دولة باكستان وافق على الفور ، ودفعت له قيمة التذكرة، ولم أخبر أحداً عند عودتي إلى المنزل فقط اتصلت بصديق عزيز لي كان – ولا يزال– يعمل في جهاز الأمن وأخبرته أنني مسافر. قال لي : لم يمض عليك سوى يومين ، وأنت قد أخبرتنا ونحن في منزل ابن عمك أنك ستمكث معنا أسبوعاً كاملاً. فقلت له : إني قد اتصلت بمدير عملي وطلب مني العودة لأن سمّوه قد عاد .

لم يكن صحيحاً وإنما أردت أن أقدم حجة أقنعهم بها، وقلت لنفسي: إنهم سيعلمون بوجهة الرحلة وأنا في المطار، ولا بأس في ذلك، إذ سأكون قد دخلت صالة المغادرة ولن أدخل في حوار مع أخي أو أولاد عمي، وأما الصديق – الضابط – وهو من نفس قريتي فأنا أريد أن اخبره لكن داخل المطار ، فأنا أعلم أن هذا الصديق والأخ قريب مني، وهو زميل دراستي عندما كنا في القرية وأعرف عنه الكثير من المواقف المشرفة التي تميز بها عن شباب تلك الفترة. وفي المساء – وأنا في منزل أخي الكبير – أعددت نفسي وأخرجت بعض الأشياء التي يمكن أن أحتاجها هناك ، لأني خرجت من دبي ومعي حقيبتان من الثياب ولم أكن بحاجة لها لأنها تصلح للذين يريدون أن يتمتعوا ، ثم وزعت البقية داخل أكياس متوسطة وكتبت أسماء مستلميها ، وأعدت كل شيء إلى الحقيبتين ووضعت ما احتاجه داخل حقيبة تُحمل على الكتف ، ولأنه لم يكن يوجد آنذاك تليفون بحارة صديقي نصر الله فقد ذهبت بنفسي إليه في الليل ، أخبرته أنني سأسافر صباح يوم الغد ، ظل يسألني: إنك فاجأتنا و إننا نريد أن نجلس معك أكثر فقد مضى عليك أكثر من سنتين ونصف السنة في بلاد الغربة ، فكيف تتركنا بهذه السرعة؟

فقلت له نفس ما قلته لصديقي حسان ، وقلت له: عليك بعد صلاة الفجر إذا أردت أن تودعني الذهاب إلى المطار مع بقية الأصدقاء الذين أبلغتهم أنني مسافر .

قال لي: إن شاء الله سأنتظرك ، ما دام أن هذه هي رغبتك بهذا السفر المفاجئ. وفي فجر يوم السفر اجتمع الشباب إلى منزل أخي الذي كان في ذلك الوقت نائماً – فهو أيضاً من المتأخرين في السهر ليلاً – ولم أشأ أن أوقظه ، فكتبت له رسالة صغيرة أحييه وأشكره على حسن الضيافة والكرم ، ثم خرجت من منزله دون أن أوقظ أحداً ، وأغلقت الباب بهدوء ، والزملاء ينتظرونني في سيارة صديقي الضابط ، ثم انطلقنا إلى المطار ، قلت لابن عمي "نصر الله" أن يذهب إلى بيت أخي بعد ما يعودون من وداعي من المطار ، ويطلب من زوجة أخي الحقيبتين اللتين تركتهما لهم ، وسيجدون رسالة كنت قد كتبتها لهم في ساعة متأخرة من ليلة سفري ، ستجيب له عن أسئلة كثيرة كان يسألني إياها هنا ، شعر ابن عمي أن في الأمر شيئاً ، وأنني لست عائداً إلى مكان عملي وكتم ذلك في نفسه، وعندما دخلنا إلى المطار ، وبالمناسبة فإن الذي ينزل في مطار صنعاء خصوصاً في الثمانينيات لم يكن يصدق أن هذا مطار دولي ومطار عاصمة دولة فقد كان مجرد صالة بطول (١٠٠متر) أو يزيد يتوسطها بعض الكراسي وبعضها مكسور ولا توجد فيها سوى بوفية صغيرة يباع فيها الشاي وبعض البسكويت ، وكأنك في مركز حدودي في دولة أفريقية كتلك التي نشاهدها في التلفاز!! ولا تتخيل أنك بمجرد دخولك صالة المطار الدولي ستجد شاشة طويلة عريضة بأسماء الرحلات والشركات ومواعيد الإقلاع الإلكترونية في دول العالم، لم يكن يوجد ذلك ، وحسب علمي انه حتى هذه الساعة لا توجد هذه اللوحة إلا في مطار عدن!! لذلك كان سهلاً عليَّ أن لا يعلم بقية الزملاء بوجهة رحلتي اللهم إلا عندما دخلت صالة "الكونتر"، لموظفي الخطوط اليمنية حيث شاهدت هناك أغلب المسافرين يلبسون الثياب الباكستانية وهو ما لاحظه الشخص الذي كان معي ولم أتركه يتكلم أو يسأل.

قلت له: خذ الجواز وتذكرة السفر وأكمل بقية الإجراءات ريثما أودع بقية الشباب. انتهيت من توديع الشباب وأكدت على "نصر الله" أن لا يتأخر عند عودته من المطار ليأخذ الحقيبتين من منزل أخي، ثم عدت إلى الصالة الداخلية لاستكمال آخر الإجراءات مع موظفي الطيران قبل الدخول إلى صالة المغادرة ، أثناء المعاملة والوزن واستلام كرت صعود الطائرة وقفت إلى جانب صديقي العزيز وقلت له :لا تسألني سأحدثك في الداخل في صالة المغادرة.

انتهيت من الإجراءات وقدمت جواز سفري لموظف الأمن حيث فحص الجواز ودقق فيه ونظر إليه بعمق، ليتأكد من صحته، ثم وضع ختم المغادرة وقال لي: في أمان الله، ودخلنا سوياً إلى بوفية صغيرة – غير تلك البوفية التي في الخارج – شربنا فيها البن اليمني المميز، وبدأت أتحدث إليه قائلاً: لقد كتبت الكثير مما أود قوله لك الآن في رسالة لك ولنصر الله ، سيسلمها لك عندما تعودون من المطار، ولكني سأتحدث الآن لأنك تهمني: إن هذا الطريق الذي أنا قادم إليه أعتقد أنه واجبنا جميعاً بصرف النظر عن أي قناعات وتصورات أخرى ، أنا أشعر أنك ستقدر موقفي إذا قرأت الوضع جيداً عن عاطفة الانتماء المصطنع لما يسمى بالوطن والدولة إذ أننا قبل ذلك كله مسلمون ، فهل تفهم ماذا يعني ذلك وأنت من تربى في بيت فقيه وعالم ومربي " أجيال" ؟ إن والدك – أطال الله في عمره – قد ربى الكثير منا على المبادئ الإسلامية التي أنستنا إياها الأيام وطاحونة الحياة!! لا أريد أن أظهر أمامك فقيهاً أو تقياً ، فأنا إلى الأمس كنت أحدثك وأنت تستمتع بحديثي عن تجربتي مع أولئك القوم في بلاد الغربة ، وكنت تقول لي: أتمنى أن أعيش يوماً واحداً من أيامك، وها أنا الآن وكما ترى سأودع ذلك الماضي إلى غير رجعة، وأتمنى لك من كل قلبي التوفيق، وأن تعي حقيقة دورك في الحياة كإنسان لا يعيش فقط يتلقى أوامر : افعل ولا تفعل، بل

عربياً مسلماً صاحب رسالة ومشروع .. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه ، وأرجو أن أراك في المكان الذي يحبه الله ورسوله والمؤمنون.

ثم قمت وقبلته ، وكأنه أصيب بنوبة قلبية!!

لم يصدق ما رأى وما سمع مني ، وحتى عند خروجي من صالة المغادرة ظل ينظر إليّ وكأنه سُحر ، وكنت أشير له بيدي مودعاً حتى اختفيت عنه ، وخرجت من مطار صنعاء يوم ١٩٨٦/٦/١٧م ولم أعد إليه إلا سنة ١٩٩٢م .

الطريق إلى أفغانستان

صعدت الطائرة وجلست على الكرسي وأنا أتخيل بشوق ولهفة متى سأصل إلى تلك الأرض؟ وتمنيت في تلك الساعة لو أقرأ وأحصل على معلومات عن هذا الشعب الذي مرغ أنف الجيش الأحمر السوفييتي أقوى الجيوش على الإطلاق ، كنت أتمنى من أحد ممن على متن الطائرة أن يخبرني عن شعب أفغانستان وتاريخه ، فإننا كعرب وبسبب مناهجنا الدراسية التي أعدت من قبل القوميين العرب وأغلبهم نصارى معروفون بارتباطهم بالإمبراطورية التي لم تغب عنها الشمس، وشاركت في الإعداد للمناهج العربية الجامعة الأمريكية في بيروت ، من أجل ذلك نجهل تاريخ كثير من الدول الإسلامية!!

وبعد إقلاع الطائرة وأنا أريد التعرف على أحد ، وجدت شخصين عند طريقي إلى الحمام ، خيل إليّ أنهما يمنيان من بشرتهما وملامحهما، فتقدمت وسلمت عليهما، وقلت : الإخوة عرب ؟ قالوا: نعم . فصافحتهما قائلاً: إلى أين تذهبان وأين محطتكما القادمة؟ قال لي أحدهما: إننا ذاهبان للدراسة في الجامعة الإسلامية – ولم يكن صادقاً – أما زميله الآخر فسكت وكأنه استغرب وتفاجأ من الرد ، وقد تأكدت أنه لم يقل الحقيقة ، لكنني لم أشأ أن أسألهما كثيراً حتى لا أستفزهما ، وقلت في نفسي : إذا كانا قد استقبلاني بهذا الجواب فأولى لي أن لا أزعجهما ، وكنت أعلم أننا سنمكث في فندق واحد إذا كانا كما يقولان : إن انطلاقهما الثاني من كراتشي إلى إسلام أباد – كما قال أبو إسماعيل – أما الآخر فكان اسمه ابن الأدهم.

وبعد التعرف عليهما ولأننا على رحلة واحدة وأول محطتنا جميعاً – نحن الثلاثة – كراتشي ، ثم نواصل رحلتنا على الطيران الباكستاني إلى المدن الأخرى فقد سألاني : والأخ .. ما اسمه؟ قلت لهما: في جواز السفر إذا أردتم فهو مصطفى محمد بادي – وأعطيتهما بطاقة شخصيتي كاملة: عن مهنتي وماذا أريد؟ دون أي تحفظ مني، مثلما أشعراني به لدى أسئلتي لهما وتحفظهما عن الإجابة وإعطائي اسميهما – كما علمت من بعد – أسماء حركية في المصطلح السياسي، وعجبت عليهما!! لكن لم يظل تعجبي كثيراً فعند وصولنا كراتشي ونزولنا أحد الفنادق السيئة تعرفت عليهما أكثر، وخصوصاً ابن الأدهم أعطاني فكرة عن سبب ذهابه إلى أفغانستان، فمما ذكر لي – بعد أن أعطاني اسمه الحقيقي وبلده وقريته – أنه قال : أنا أدرس في معهد صنعاء العلمي وقد جهزت عن طريق مكتب المجاهدين ، وهو سري – كما يظن – وهناك إخوة يعملون في هذا المجال.

أما الأخ الآخر فلم يمكث معنا في أرض أفغانستان – حيث عاد إلى اليمن وكان يعمل معلماً في أحد معاهد صنعاء – ثم سافر بعد ذلك إلى هولندا وطلب حق اللجوء ، وهو يعيش هناك منذ فترة، ولا أدري عنه شيئاً، حتى أنني لم أكن حريصاً على التعرف عليه كثيراً ولم يكن يهمني أمره لأنه كان يتحسس كثيراً من الذين يخالفونه الرأي والذين هم بعيدون عن خط حركة الإخوان المسلمين هناك، وذلك بسبب الولاء الحزبي – حتى داخل التيارات الإسلامية – الذين أصيبوا بداء (إن لم تكن معي فأنت ضدي) ، وهو ما يصطدم اصطداماً مباشراً مع نصوص صريحة في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

من كراتشي إلى بيشاور

وصلنا كراتشي عصراً، وكانت تلك أول مرة أنزل في أرض باكستان، خرجنا نتمشى في أحد شوارع مدينة كراتشي ونتعرف على هذه البلاد، ونحن في طريقنا إلى مكتب الطيران الباكستاني للحجز إلى مدينة "بيشاور"، مشينا كثيراً على أقدامنا ثم عدنا إلى الفندق ومكثنا فيه يومين ، تعرفنا على بعضنا أكثر، واستطعت أن أتفق مع ابن الأدهم أما صاحبه فقد كان كثير الانطواء على نفسه بحجة أنه يقرأ القرآن!!

وفي اليوم الثالث توجهنا إلى مطار كراتشي لننتقل بعد ذلك – على الطيران الباكستاني – إلى مدينة بيشاور ، ووصلنا بحمد الله – بعد رحلة طويلة ومتعبة من كثرة المطبات الهوائية – إلى مطار بيشاور، وعندما وصلت مطار بيشاور تذكرت مطار صنعاء دون أن أستطيع حينها أن أعمل مقارنة إلا بعد حين من بقائي في تلك البلاد ، فعلمت لماذا وصل هذا الشعب بإمكانياته المحدودة إلى ذلك المستوى من التطور وخدمة الإنسان الباكستاني بغض النظر عن توجه الحكومة؟! وفي الصالة الخارجية للمطار كان ينتظرنا أخ عربي اسمه "أبو تراب" وهو من فلسطين المحتلة، وأخ أفغاني بجانبه، لنقلنا فوق باص صغير إلى "مكتب الخدمات" أو مضافة أبي عثمان الكويتي ، أطلق اسم هذا الأخ بأمر من الدكتور عبد الله عزام حباً وكرامة لهذا الأخ الكويتي الشهيد فقد كان أول وآخر كويتي يصل أرض الجهاد .

وعند دخولنا إلى الحوش استقبلنا الأخ عبد الله البلخي، وسلم علينا وعانقنا وحيانا كثيراً، واستلم حقائبنا، ثم أدخلنا إلى مكتبه وكان مكتوباً على

باب المكتب "غرفة الأمانات" ثم أخرج ثلاثة "ظروف" متوسطة الحجم، وطلب منا أن نسلمه جوازات السفر وكان يضع في كل ظرف جواز سفر، ثم سألنا الثلاثة – كل شخص على حدة : هل تريد أن تضع شيئاً آخر بجانب أوراقك الرسمية؟

قلت له: نعم . وأخرجت بطاقتين: البطاقة الشخصية، ورخصة القيادة ، وكان لا يزال معي عشرة آلاف ريال سعودي ، ومائتان وكذا دولار، ثم أغلق الظرف بلاصق وختم عليه بختم مكتب الخدمات، وقال لي: يا أخي ، نريد أن نختار لك اسماً أو كنية فإنها سنة من سنن رسولنا – صلى الله عليه وسلم – ولا نريد – أيضاً – أنْ يعرف من لا نحب أسماءكم الحقيقية ؟

قلت له: لا خبرة لي بهذه الأشياء!!

قال لي: ببساطة من تحب من الأنبياء والصحابة؟

قلت له: أحبهم كلهم.

قال لي: أعلم .. ولكن من تحب أن تسمى باسمه؟

قلت له: إبراهيم.

قال لي : إذاً أبو إبراهيم ، سنكتب على هذا الظرف اسمك الحركي أبو إبراهيم اليمني.

قلت له: لا– أبو إبراهيم فقط.

فتعجب مني ، وقال لي: جزاك الله خيراً ، تستطيع أن تنتظر إخوانك هنا .. وأشار إلى صالة متوسطة كان الشباب قد جعلوها مسجداً لهم.

خرجت ومعي حقيبتي التي لم يطلبها الأخ المسئول ، وانتظرت بقية الإخوة، وعندما اجتمعنا خرج علينا أخ – أظنه يمنياً – كان اسمه أُسيد، تقدم إلينا وسلم علينا ثم عانقنا، وكنت أعجب لهذا السلام الحار والصادق من أول لحظة تعرفت بها على هذا الأخ، ثم طلب منا أن يعرفنا على بقية الشباب قائلاً:

أريد أن أعرفكم بإخوانكم المجاهدين الذين هم الآن في غرفهم فتفضلوا معي، فسرنا خلفه نشق طريقنا في ذلك البيت الذي قد أمضى ببنيانه نصف عمره، وأجمل ما فيه تلك الكوكبة من الشباب وهم مثل النجوم في كبد السماء .

وعندما فتح أول غرفة – وكان الأخ أُسيد قد حفظ أسماءنا – قال لمن في الغرفة بعد أن سلم عليهم وتبادل معهم الابتسامات الصادقة: هؤلاء إخوانكم وصلوا الليلة من اليمن: أبو إبراهيم ، وأبو الأدهم ، وأبو إسماعيل ، وعندما ردوا علينا وعرفونا بأسمائهم ، لم أكن أصدق ما أسمع وما أرى!! لقد رأيت السعودي والقطري والكويتي والمصري والجزائري والليبي، ذهلتُ وأنا انظر لهؤلاء الإخوة وأتعرف على أسمائهم والدول التي جاءوا منها، وقلت لنفسي: الآن عرفت الطريق.. هذه هي طريقي مع هؤلاء.

يا إلهي ، ما الذي جمع هؤلاء العرب بجنسياتهم وألوانهم وأعراقهم؟ لا يمكن بأي حال أن يجمعهم إلا أمرٌ عظيم جداً!! أتمنى لو أن لي قدرة للتعبير عن تلك اللحظة الخالدة التي شاهدت فيها أولئك الشباب وهم كالنجوم في كبد السماء يريدون أن يعلنوا للناس أنه بالإمكان أن نجتمع إذا صدقت النية وخلص العمل ووضح الطريق. إنني هنا لا أستطيع إلا أن أستشعر قول ربنا عز وجل: "لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم"..

كان الأخ يأتي ليسلم علي ويعانقني بحرارة وصدق وكأنه يعرفني منذ زمن .. شعور غريب انتابني بعد أن رأيت ذلك العربي المغرور في بلده الذي ملأ الكبر قلبه، بسبب ثقافته ومجتمعه العنصري الإقطاعي..الخ، نقيض هذا العربي الذي أشاهده الآن أمامي وهو يحمل في صدره خلق الأنبياء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ما الذي غير أولئك القوم الأعراب؟ إنه الإسلام و الإسلام وحده.

وأتحدى أن يجتمع اثنان وإن كانوا إخوة أشقاء، وأن تتجسد فيهم الآية الكريمة التي ذكرتها ، إن ذلك مستحيل وأراهن على ذلك لأن التاريخ معي يثبت ذلك من سيرة الرعيل الأول من المسلمين وإن لم يكونوا عرباً ، ولو أن لي قوة و قدرة على عرض هذه التجربة على العالم الذي يتناحر فيما بينه بسبب بعض الأمراض وبعض المصابين بالجنون ممن يقودون هذا العالم ، ما تأخرت ، حتى لا أحرمه من تلك التجربة الرائعة والراقية التي جسدها أولئك الشباب الذين يحملون جنسيات مختلفة ولكنهم اجتمعوا على هدى من الله وبصيرة ، يطلبون رحمته ويرجون أن يتقبل منهم عملهم وجهادهم وعبادتهم وأن لا يشرك بها أحدا، تلك القلوب التي لا هَمَّ لها إلا أن ترضي ربها ولا يعنيها شيء من مشاكل العصر والتطاحن على هذا الحطام. إن الذي ينظر ويرجو أن ينال ما عند الله أحرى للعالم أن ينظر إليه و يقتبس من نوره ويسير على طريقه ويتحسس أثره.

إنني قد عشت ورأيت تلك النماذج التي قد تعتقدون أنها ضرب من الخيال أو أضغاث أحلام!! ولكنها كانت حقيقة واقعية أمام عيني، لقد كفتني تلك الليلة التي عشتها مع هؤلاء لأول مرة في حياتي عن كل سؤال كنت أريد أن أسأله.

لقد أجابتني تلك النماذج التي شاهدتها في تلك الليلة – عن كل التساؤلات التي كانت تجول في خاطري ، وأجدني ألوم أمتنا التي قدمت الغالي والنفيس وقبل أن نصل إلى مشارف كابل تركتنا أمتنا وتمكن الأعداء من سرقة كل تلك التضحيات الجسام وكان من نتائجها ما نراه اليوم!! أنا لا ألوم من كان يراقب هذا الحدث العالمي الذي عملوا من أجله الكثير من أجل أن لا تتكرر التجربة، فأما ما كان يجري على أرض أفغانستان ، وقبل أن أدخلها ومن خلال ما كنت أسمع ثم عايشت وشاهدت من أولئك الشباب الذين تركوا الدنيا بكل ما

فيها من متاع وذهبوا إلى أرض أفغانستان يشاركون إخوانهم الجوع والخوف والقتل، إذ ما الذي يطمع به الطامع في أرض أفغانستان في ذلك الوقت إذا حسبناها بحساب الغير؟!! جدير بأن يكتب ويدون ويعرفه العالم بأسره – كما كان في الواقع.

لن أتحدث عن الذين في قلوبهم مرض ، الذين كان يعجبهم أن يصوروا ذلك الجهاد بغير هذه الصورة التي أتحدث عنها والتي شاهدتها بأم عيني.

لقد بتنا تلك الليلة في غرفة واحدة وكان عدد الموجودين في مكتب الخدمات لا يصل الثلاثين أخاً مع الموظفين في هذه "المضافة" وفي اجتماعنا تلك الليلة كان كل واحد من هؤلاء الإخوة يذكر حادثة له أو مشاركة في عملية أو ما شاهد من كرامة – يعني معجزة خارقة من الله – كان كل واحد منهم يدلي بدلوه مما شاهدوا وعايشوا من الجهاد الأفغاني ولسان حالهم كان يقول:

مسلم يا صعاب لن تقهريني صارمي قاطع وعزمي حديد

وكيف أن هذا الشعب الخالي من الأسباب المادية كان يقابل بإيمان وشجاعة ترسانة حلف وارسو البرية والجوية.

نافذة على أفغانستان

وفي تلك الليلة وعندما كان الشباب يتحدثون عن مشاركتهم مع الشعب الذي خرق وتجاوز كلَّ ما تعارف عليه العسكريون.. وأنا متلهف أن أقرأ عن تاريخ هذا الشعب فسألت أحد الإخوة الحاضرين وقلت له: هل تستطيع أن تدلني على كتاب في هذه المكتبة الكبيرة التابعة لهذا المكتب أستطيع من خلاله أن أطلع على تاريخ هذا الشعب الذي لا أحد يصدق حديثكم عنه؟ واسمحوا لي إن كنت فضولياً – لأني جئت يا أخي ، من بلد الهزيمة والاستسلام.

قال لي : أستطيع أن أدلك على كتاب يتحدث عن " ملك ملوك أفغانستان" خلال القرنين الماضيين.

قلت له: إليَّ به إنني أتلهف بشوق للاطلاع على تاريخ هذا الشعب وتميزه مع هذه النماذج الرائعة التي رفعت راية الجهاد في القرن الذي نسي فيه المسلمون هذه العبادة والفريضة من الله تعالى.

اشتقت إلى المكتبة التي قد تفتح لي بعض رموز هذا الشعب الذي اختير لمنازلة الروس وأخذت معي ذلك الأخ وهو جزائري ويدعى (أبو بنان) إلى المكتبة حتى يطلعني على الكتاب الذي يتحدث عن الشعب الأفغاني وعن هذا الملك الذي تحدث عنه ، وصلنا المكتبة ، وأتذكر أنها كانت ضمن مراجع مجلة الجهاد التي تصدر عن مكتب الخدمات للمجاهدين وتحت إدارة الشيخ (عبد الله عزام) ، ثم أخرج لي الأخ "أبو بنان" الكتاب وقرأت في أول الصفحة حيث كان عنوان الباب (ظهور أحمد شاه بابا) (دوراني) يقول الكتاب: إن هذا الملك برز سنة – ١٧٧٤م – على إثر اغتيال الملك (نادر شاه) سنة ١٧٧٣م حيث برز من إحدى قبائل الأبدالي من ولاية (هيرات) (أحمد شاه) وأعلن نفسه وصياً على حفيد الملك الراحل (نادر

شاه) وكان يسمى (شاه رخ) ، وبدأ (أحمد شاه) يقود الأفغان ويحرر المدن، فحرر (قندهار) وهي أكبر القبائل (الباشتونية) وأشجعها على الإطلاق ، وقد حرر هذه الولاية بأربعة آلاف شخص، ثم التقت القبائل ونصبته أميراً واصفاً نفسه (دوريان) أي (دورة الدرر) وبذلك سمي (الدوراني) ، وانطلق الأمير يوسع حدود مملكته حيث اتجه غرباً إلى (خراسان) وأطاح ببقايا الفرس (الفاجاري) ، ثم توسع نحو الشرق ووصل (دلهي) وأطاح بحكم المغول الهندوس، وأصبحت مملكته تمتد من نهر جيحون شمالاً إلى بحر العرب جنوباً ، ومن كشمير ودلهي شرقاً إلى إيران غرباً، وسماه الشعب الأفغاني – آنذاك – (بابا) وحكم أفغانستان خلال الفترة (١٧٤٧– ١٧٧٣م) وقبره لا يزال موجوداً في أجمل مسجد في (قندهار) إلى اليوم. وتتحدث هذه السيرة أن الشعب الأفغاني عبر قرنين ونصف قرن من الزمان خاض ستة انتفاضات عبر مسيرته الحديثة، وكانت هذه الانتفاضات مرتبة زمنياً حسب التفصيل كما يلي:

الانتفاضة الأولى: الجهاد ضد الهندوس

على إثر ضعف الإمبراطورية المغولية برز رجل هندوسي اسمه (سي وجيه) وهو أحد كهنتهم الروحيين، واتحد الهندوس مع الشيخ تحت قيادة (سي وجيه) ودخلوا (دلهي) وعملوا السفك والنهب في المسلمين وأقاموا لهم المجازر، فقام العالم الرباني الشاه ولي الله الدهلوي وكتب إلى (أحمد شاه دوراني) يستغيث به وقال له: إنك بأذن الله المرشح الوحيد لإنقاذ الهند من المجازر وتخليص المسلمين من الإبادة.

فاستجاب (أحمد شاه دوراني) وهب كالهزبر لحماية المسلمين في الهند، واستنفر الناس وجمع (٧٠,٠٠٠) شخص من قندهار، وافتتح (بيشاور) ثم توجه إلى

(لاهور) فرضخت له ، ثم انطلق إلى (دلهي) والتقى بالهندوس في (باني بات) – تبعد حوالي (١٤ كم عن دلهي) – وكان عدد الكفار ثلاثمائة ألف مقاتل ، ودارت معركة طاحنة وحرب ضروس أسفرت – بعد ثلاثة أيام – عن هزيمة الهندوس بعد أن خلفوا وراءهم جثث (٢٠٠ ألف) مائتي ألف شخص مجندلين بدمائهم بضربات الأيدي المتوضئة ، وسقط في هذه المعركة (١٥ ألف شهيد)، ضمهم الثرى الطيب بدمائهم الزكية.

الانتفاضة الثانية : على يد دوست محمد ضد السيخ

بعد الانتصار الساحق على جيش المهراجا الهندي سنة (١٧٦١م) أصبح حكم (أحمد بابا) يمتد على إمبراطورية متناهية الأطراف حتى توفي سنة (١٧٧٣م) فتولى الحكم بعده ابنه "تيمور شاه" الذي حكم عشرين عاماً (١٧٧٣ – ١٧٩٣م) وقد نقل العاصمة إلى كابل وأصبحت العاصمة الصيفية، بينما أصبحت بيشاور العاصمة الشتوية ، وبعد وفاة تيمور شاه سنة ١٧٩٣م بدأت دولته المترامية الأطراف تتفتت بسبب الخلافات التي دبت بين أبنائه ، ولم تنته هذه الخلافات إلا وقد أودت بمعظم الأمراء من أبناء تيمور شاه.. الذين سقطوا قتلى المعارك الداخلية لينتهي بذلك حكم الأسرة الدورانية. وانتقل الحكم إلى أسرة جديدة هي (البر كزاي محمد) وبدأ الأعداء – كما هو حاصل الآن من اجتماع الشرق والغرب على هذا الشعب الذي درسوا تاريخه وسبروا أغواره – من كل جانب يتناوشون دولة تيمور شاه ، حيث تقدم حاكم بخارى واحتل مدينة (بلخ)، كما احتل السيخ تحت قيادة (راتجي سنج) مقاطعة الحدود وكشمير ، وسقطت (بيشاور) بأيديهم سنة ١٨٣٤م واستقلت السند وبلوشتان عن حكم أفغانستان.

ولم يتبق بيد أبرز أبناء العائلة الجديدة المالكة (البر كزاي دوست محمد) سوى كابل وغزني وجلال أباد ، وعندما سقطت بيشاور بأيدي السيخ بدأ يفكر باسترجاعها وأعلن النفير العام – حالة الطوارئ – واستدعى الجيش ورفع راية الجهاد ضد السيخ وتقدم حتى وصل بيشاور ولكن (راتجي سنج) زعيم السيخ استطاع أن يبث الفتنة داخل صفوف الجيش الأفغاني المتقدم ورجع الجيش دون أن يعمل شيئاً.

الانتفاضة الثالثة: ١٨٣٦م ضد السيخ أيضاً

عاد "دوست محمد" من على أبواب بيشاور خائباً، ولكنه بعد عام واحد استطاع تنظيم جيشه، وتحت ضغط الشعب الأفغاني الذي قام – بسبب المذابح الذي كان يتعرض لها المسلمون في بيشاور على يد السيخ – بنصرة المسلمين في بيشاور، وسار الجيش الأفغاني تحت قيادة (وزير محمد أكبر خان) الابن الأكبر لـ"دوست محمد" والتقى الجيشان في منطقة (جمرود) في بيشاور ، وكان قائد السيخ ابن (راتجي سنج) ، واستطاع (وزير محمد أكبر خان) أن يقتل قائد السيخ مما جعلهم يلوذون بالفرار وانتصر المسلمون في هذه المعركة.

الانتفاضة الرابعة: الحرب ضد بريطانيا (١٨٣٩ - ١٨٤٢م)

كانت بريطانيا تخشى من اتصالات نابليون مع الاسكندر الأول (قيصر روسيا) ومحاولة كلٍّ منهما دخول الهند التي تحكمها بريطانيا عن طريق أفغانستان وإيران، وقد وصلت أول بعثة بريطانية إلى بيشاور سنة ١٨٢٩م بقيادة (ايلفنستون) والذي عقد معاهدة دفاع مع (شاه شجاع)، أحد أبناء تيمور شاه، ثم فقد شاه شجاع ملكه، فلجأ إلى البريطانيين في الهند سنة ١٨٣٩م، فاحتل الجيش

البريطاني (كابل، وقندهار، وغزني) وأمر المعتمد البريطاني في الهند (أوكلاند) بإعادة شاه شجاع ملكاً على أفغانستان (وما أشبه الليلة بالبارحة)! ، وجاءوا به من الهند عن طريق "كويتا" وتوجوه ملكاً في مسجد "أحمد شاه دوراني" في قندهار، واحتلت بريطانيا غزني ونقلوا عاصمة (شاه شجاع) إلى كابل ، وفر "دوست محمد" من كابل ، وأبى الشعب الأفغاني المسلم الاحتلال ورفض أن يفرض عليه ملك من قبل الإنجليز (وسيرفض الآن أي دمية يصنعها أعداء الأمس واليوم!!).

وانتفض الشعب وثاروا على ملكهم العميل وقتلوه في عملية جريئة في شوارع (كابل) والجنود يحملونه على أكتافهم، وقد قتله أحد المجاهدين واسمه (شجاع دولة) وأعلن (اختر خان) الجهاد ضد بريطانيا، وعاد "دوست محمد" مع ابنه (وزير محمد أكبر خان) يقاتلان مع الشعب المسلم ضد الإنجليز، ووقعت معركة (يافان داراش) في (٢ تشرين الثاني ١٨٤٠م) وانتصر "دوست محمد" في اليوم الأول ، ثم هزم في اليوم الثاني وأسرته بريطانيا وأخذته إلى "كالكتا" وبقي ابنه أكبر خان يقاتل البريطانيين.

وجرت مفاوضات بين أكبر خان وبين (ماكنتن) ممثل بريطانيا، وأثناء المفاوضات قام أكبر خان بقطع رأس (ماكنتن) بالسيف، وعلى إثر ذلك قررت بريطانيا الانسحاب في ١٨٤٢/١/٦م، وكان عددهم أربعة آلاف بريطاني وأحد عشر ألفاً من الهنود ، وسلك البريطانيون طريق وادي (جاكي دلك) بين كابل وجلال أباد، وأعمل المجاهدون فيهم السيف حتى إذا وصلوا (جنداً وملكاً) لم يتبق منهم سوى جندي واحد هو الدكتور "برايدون" الذي كان الناجي الوحيد ليخبر قومه مغبة الاصطدام بالأفغان المسلمين، وكان القائد العسكري للجيش البريطاني هو (الفنجستون) الذي هزم نابليون في معركة (واترلوا) سنة ١٨١٥م

وقد أسره "أكبر خان" وحبسه في غرفة في "جاك دلك" ومات في السجن رهن القيود ، كما قتل أيضاً من الإنجليز (الاسكندر برونر).

الانتفاضة الخامسة : الحرب الثانية ضد الإنجليز

بعد أن أمرت القيادة البريطانية بسحب الجيش البريطاني وإعادة "دوست محمد" ليكون ملكاً لأفغانستان بعد أن أملوا عليه السياسة التي يجب أن ينتهجها.. عاد "دوست محمد" إلى كابل سنة ١٨٤٢م وامتد حكمه حتى سنة ١٨٦٣م ، وخلال هذه الفترة ضم "قندهار وهرات وبلخ" إلى سيطرته ، وبعد عودة دوست محمد قتل ابنه المجاهد "وزير أكبر خان" بطريقة غامضة ، ويشير كثير من المؤرخين بأصابع الاتهام إلى أبيه بأنه قد قتله بالسم، ثم جاء بعد دوست محمد ابنه "شير علي خان" .

وحكم أفغانستان خلال ١٨٦٣ – ١٨٦٦م ، ثم أقصي عن الحكم ، ثم عاد وحكم البلاد خلال ١٨٦٩ – ١٨٧٩م ، وكان سبب هذه الحرب أن بريطانيا هلعت وهي ترى روسيا تحتل طشقند وخوارزم وتصل إلى نهر جيحون ، وقد أرسلت روسيا بعثة عسكرية برئاسة الجنرال ليتوف الذي وصل كابل وعقد معاهدة مع شير علي ، وهنا أرسلت بريطانيا بعثة لتقابل شير علي فمنعت من دخول أفغانستان ، اقتحم اللورد روبرتس أفغانستان ودخلها من الممرات الثلاثة الشهيرة في كانون الأول سنة ١٨٧٩م ، وأعلن العالم الرباني (مسك عالم دين محمد) من غزني الجهاد ضد بريطانيا ، وعندما دخل الإنجليز هرب شير علي خان إلى مزار شريف ، وطلب النجدة من روسيا فرفضت ، وخلف وراءه ابنه يعقوب خان في كابل ، ووقعت بريطانيا في ٢٦مايو ١٨٧٩م معاهدة مع أفغانستان ، وأرسلت بعثة دائمة إلى كابل تشرف على السياسة الخارجية في أفغانستان ، وفي ٣ سبتمبر سنة ١٨٧٩م

أباد الشعب الأفغاني جميع أفراد البعثة في قلعة بالاحصار ، ولكن بريطانيا أرسلت قوة أخرى ، واحتلت كابل وألقت القبض على يعقوب وأرسلته إلى الهند ، ومات فيها سنة ١٩٢٣م ، ومكثت بريطانيا في كابل خلال ١٨٧٩ – ١٨٨٠م ، ثم اضطرت للدخول في مفاوضات مع الأمير عبد الرحمن حفيد (دوست محمد) ، ثم بدأت للاستعداد للانسحاب ، فجاءتها الأخبار أن أيوب خان (أخا يعقوب خان) قد أباد حامية بريطانيا في (ميوند) بالقرب من قندهار فأرسلت عشرة آلاف جندي إلى قندهار وهزموا أيوب خان ، وفي أيام عبدالرحمن خان ١٨٩٣م ، جاء (ديوراند) البريطاني على رأس بعثة ، وخط الحدود الشرقية والجنوبية التي تفصل أفغانستان عن الهند ، وسمي خط الحدود ذلك بخط (ديوراند) وهذا ثابت إلى يوم الناس هذا .

الانتفاضة السادسة : على يد أمان الله خان ضد بريطانيا

بعد اعتلاء أمان الله خان العرش سنة ١٩١٩م بعث برسالة إلى المعتمد البريطاني في الهند يخبره فيها باستقلال أفغانستان داخلياً وخارجياً، فتجاهلت بريطانيا الرسالة وردت بضرورة استمرار الوضع بين بريطانيا وأفغانستان كما هو عليه، عندئذ أعلن أمان الله "النفير العام" ضد بريطانيا وسلم قيادة الجيش لـ"نادر شاه" واستطاعوا بعون الله هزيمة بريطانيا ، ودخل "نادر شاه" الحدود الهندية ، فخشيت بريطانيا حتى لا تتكرر التجارب السابقة مع الأفغان – من أن يعلن الجهاد ضدها مرة أخرى، وأن يقوم الشعب الهندي المسلم بانتفاضة إسلامية ضدها مع إخوانهم الأفغان ، وهنا أعلن "تشرشل" من لندن استقلال أفغانستان في ١٨ أغسطس ١٩١٩م، وتم توقيع اتفاقية (راو البندى) التي اعترف بها الإنجليز بالاستقلال التام لأفغانستان (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله).. لقد نفى كير

أفغانستان كل خبث غريب وطأ أرضها الطيبة وكل نجس يدنس تربتها ، ولم يستطع الاسكندر والتتار "جنكيز خان" والإنجليز أن يستمروا فيها ولم – ولن – يصمد فيها كل الغزاة (حتى أمريكا حالياً!!).

<u>ملاحظة :</u> لا عجب إذ نرى السيد توني بلير وهو أشد حرصاً وحماساً على أن يزج بالكابواي الأمريكي إلى بلاد أحمد شاه دوراني لتمرغ أنف أمريكا كما مرغت بريطانيا من قبل ، وليتقدم توني بلير مرة أخرى طموح قديم؟!. إنها بحق فكرة جهنمية ولكن بالنتيجة (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ).

الانتفاضة السابعة :

أعلنت الحركة الإسلامية جهادها المسلح ضد داود سنة ١٩٧٥م ، وكان على رأس الحركة آنذاك (رباني وسياف وحكمتيار) ، ثم كان الجهاد العام والنفير الكبير بعد الانقلاب الشيوعي السافر الذي جاء (بتراقي) إلى الحكم في ٢٧ نيسان ١٩٧٨م ، وقد انضم العلماء إلى ركب الحركة الإسلامية التي سبقتهم إلى الميدان بثلاث سنوات ، وهنالك الانتفاضات المباركة ضد الملوك الذين حاولوا سلخ أفغانستان عن دينها وقيمها ، وتمييع الولاء والبراء في عقيدتها ، واجتثاث العقيدة الإسلامية تدريجياً من أعماق الشعب المسلم باسم حركات الإصلاح والتحرير والتقدم والتغيير والتنوير ..... الخ .

وقد حاول الملك حبيب الله خان (١٩٠١م – ١٩١٩م) أن يمسخ ويروض الشعب تدريجياً ، ولكن موجة السخط العام لدى الشعب أدت إلى تململه مما حذا بأحد المسلمين أن يردي الملك قتيلاً بالرصاص في ٢٠ أبريل ١٩١٩م ، وبعد قتل

حبيب الله تولى ابنه أمان الله حكم أفغانستان (١٩١٩م – ١٩٢٩م) ، ولم تكن له قصة أبيه عبرة ولم يتعظ لما جرى لأبيه ، وكان رجلاً (علمانياً) يريد أن يجر أفغانستان إلى مهاوي الردى ، وشعاب الهلاك ، تحت العناوين التي ذكرت حركات التطوير والإصلاح .... الخ .

كذلك كان متعجلاً يريد أن يقلبها دولة غربية دون مراعاة لدين ، أو تقاليد ، أو أوضاع اجتماعية وتاريخية ، وأخذ الملك يسخر برجال الدين ويزدريهم ويستخف بتمسكهم ولا يعبأ بهم ويطلق النكات في مجالسه العامة عليهم ، وهذا أثار حفيظة العلماء عليه فأوغروا صدر القبائل ، فثارت قبائل البشتون وتقدمت نحو كابل سنة ١٩٢٤م ولكنه استعمل الطيران ضدهم فأوقفهم ، وفي سنة ١٩٢٨م قام الملك مع حاشيته برحلة طويلة زار فيها الهند ومصر وإيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا وروسيا ، وفي طريق عودته عرج على تركيا وإيران ، ورجع الملك متحمساً جداً لسلخ أفغانستان عن دينها ، فكتب القرارات الملكية التي تقضي بوجوب ارتداء الزي الغربي للنساء والرجال ، وعلقت المنشورات بهذا القرار في الأماكن العامة ، وهنا أعلن العلماء كفر الملك ووجوب الجهاد ضده فثارت قبيلة (شنواري) ، واحتلت جلال أباد واندلعت الثورة ضد الملك في ٢٨نوفمبر سنة ١٩٢٨م ، وما هدأت إلا بعد أن أطاحت بعرش الملك أمان الله خان في ٤ يناير ١٩٢٩م.

بعد قراءتي لتاريخ هذا الشعب الأفغاني الحافل بكل هذه الانتصارات أدركت أن هذا الجهاد المبارك الذي تقوده الحركة الإسلامية الأفغانية المعاصرة منذ سنة ١٩٧٥م سيكون بداية التحول التاريخي للإنسانية وبداية التحول التاريخي الإسلامي صعوداً إن استفدنا من التجربة الأفغانية وحافظنا عليها كما يريد أهلها (ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً) .

الانضمام إلى القافلة

عندما انتهيت من قراءة مختصرة عن هذا الشعب الذي اختير ليقف أمام أقوى وأعتى دولة في العالم ، أدركت أن هذا الاختيار كان من الله عز وجل ، ونتائج هذا الاختيار كانت واضحة وصريحة بالقضاء على أكبر دولة في العالم، إنه إعلان لجميع المسلمين أنه متى ما تمسكنا بعقيدة التوكل على الله وأيقنا أن الأجل والرزق بيد الله ، وأن الضار والنافع هو رب هذا العالم كله، فسننتصر .

إنني على يقين بعد تجربتي مع المجاهدين، أن هذا الشعب قد خرق كل ما تعارف عليه العسكريون ودرسوه في الكليات والأكاديميات المتخصصة وإلا كيف يستطيع أي عسكري تدرب على مدفع الـ(دي . سي) ١٥٥ملم أو (بي. إم) راجمة صواريخ، أن يستعملها بدون (المنظار التام والمليم) وبدون حتى زاوية عسكرية!!

من عجائب هذا الشعب وشجاعته التي شهدتها ذات مرة مع بعض الإخوة ونحن في منطقة (ماني كاندوا) وكنا نريد الترصد والاستطلاع وقد مكثنا يومين متتاليين بدون طعام، ولكن النهر كان قريباً منا على بعد أمتار من(بوستاستاكي مركز العدو). وكان معنا أخ أفغاني اسمه (أكبر شاه) وكان شاباً يافعاً مليئاً بالنشاط والحيوية، وهو الوحيد الذي كان يدخل إلى قلوبنا السعادة وكان يضحكنا ونحن على مقربة من الجنود الروس.

وهو يعلم " بوستا ستاكي" وخطورتها، وكيف استمات الروس عندما استولى عليها المجاهدون ، إن الذي أدهشني ونحن قرب مركز "ستاكي" وقد وضعنا رحالنا لنبيت أول ليلة هنا وكانت تلك الليلة مقمرة ، ومما يساعد أيضاً

على كشف الأشياء فيها كثرة الثلج على الأرض أو بياض الأرض مع نور القمر، حيث تستطيع أن تشاهد أي جسم يتحرك ولو من بعيد.. وفي ذلك الجو والخوف والجوع نظرت إلى "أكبر شاه" ولم أصدق أنه يحمل بندقية (سمنوف) عادية وتعبأ عشر طلقات!! قلت له: أين سلاحك؟ قال : هذا هو سلاحي.. قلت له : هل معك ذخيرة تكفيك فيما إذا اشتبكنا مع العدو؟ فأخرج من جيبه – لن تصدقوا– ست طلقات فقط!! وكأننا ذاهبون إلى صيد وليس إلى مقابلة الجيش الروسي!!

أعتقد أن الذي رأيته وشاهدته لمدة أربع سنوات داخل أرض أفغانستان من بطولات خارقة لا يمكن أن يقوم بها إلا أصحاب عقيدة، وهذه العقيدة تقول : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ....) الخ الآية الكريمة" فعلموا أن الشاري هو الله فباعوا أنفسهم له، وقد ربحوا البيع، لذلك رأيت بأم عيني عندما نزل الجيش الروسي يريد السيطرة على منطقة (جاجي) المنفذ لـ"١٧ولاية أفغانية" بعد أن قصف وأحرق جبال جاجي بقنابل (النابالم) وكل أسلحته الحديثة، وكنت أقول لنفسي : إذا استمر هذا القصف من الجو ربما أطلب العودة وأستريح في المؤخرة، مع ذلك فلم تلن لأولئك المجاهدين الصامدين عزيمة طوال فترة القصف التي استمرت اثنين وثلاثين يوماً ، وكان الروس يظنون أنهم بعد ذلك القصف المتواصل الذي استعملوا فيه جميع عدتهم الإستراتيجية العسكرية، وعلى منطقة لا تزيد مساحتها عن (١٠كم) ، لن يجدوا بعدها في منطقة "جاجي" حتى ديدان الأرض على قيد الحياة.

لكن ما إن تقدمت ثلاث كتائب من قوات "الكوماندوز" الروسية وقدموا الجيش الشيوعي الأفغاني (النظامي) ليكون درعاً لهم ، ظهر لهم المجاهدون الذين

لم يكن عددهم سوى (١١٥) مجاهداً أفغانياً ، و(٣٢) مجاهداً عربياً ، وقد شرفني الله أن أشارك أولئك الأسود في النصر في هذه المعركة التي أظهروا فيها الصمود والشجاعة ، وقتل من الكوماندوز الروس باعترافهم (٢٥٠) جندياً وصف ضابط وأكثر من (٥٠٠) من الشيوعيين الأفغان.

أما قتلى المجاهدين فكان ثمانية عشر شهيداً من المجاهدين الأفغان وسبعة من العرب (اثنان من ليبيا، واثنان من السعودية ، وجزائري ومصري ويمني) عند ذلك وعندما تعرفت أكثر على الشعب الأفغاني وجدته قد جمع الكثير من الصفات التي تميز بها عن بقية المسلمين ، فقد جمع الشجاعة، والرجولة، والوفاء، والصدق في التعامل، والثبات عند اللقاء، وإيثار الآخرين.

واكتشفت فيهم أنهم إذا أرادوا تقييم الآخرين فإن المقياس عندهم يتمثل في شجاعة الشخص وثباته وصدقه ولا يقيمونه من خلال جيبه أو جاهه أو سلطانه!! وعندما تبين لي كل ذلك من خلال معايشتي لمدة خمس سنوات – تنقص قليلاً – أيقنت أن الله اختارهم لأنه يعلم – بعلمه الأزلي – أن هذا الشعب هو الوحيد القادر على حمل هذه الأمانة التي كلفه الله بها وشرفه بحملها. إن هذا الشعب الفقير الأعزل الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، ولا يعنيه أمر هذه الحضارة المادية كثيراً قد اختير ليهزم على يديه الاتحاد السوفييتي، لتكون معجزة هذا القرن.

إن الجهاد والمجاهدين الأفغان أعادوا إلينا صدق عقيدة التوكل على الله وعدم الخوف على الرزق والأجل، لأن كل ذلك بيده سبحانه وتعالى ، ولا يعنيني أطماع روسيا بدخولها إلى أرض أفغانستان وما كانت تخطط له من خلال غزوها لأفغانستان أيام الحرب الباردة بين أمريكا والدب الروسي وأطماعهم ، لم يكونوا يخفونها من أنهم يريدون الوصول إلى المياه الدافئة والسباحة على سواحل

الخليج، ولكنهم (يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) وهذا ينطبق على الأمريكان أيضاً " وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال" .

مع الرعيل الأول من المجاهدين العرب في بيشاور

بعد أن انتهيت من قراءة ذلك الكتاب التاريخي عن شعب أفغانستان ذهبت إلى النوم وأنا غير مصدق أن ما شاهدته قبل ساعات في مكتب خدمات المجاهدين في بيشاور المنزل الأول الذي جمع الرعيل الأول من الشباب العرب الذين كنت أشعر أن الآية الكريمة "والسابقين الأولين" من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ورضوا عنه" "تكاد تعنيهم" آيات وأحاديث كثيرة كانت تصف حال أولئك السابقين.. وجدت أيضاً أنها تنطبق على هؤلاء المجاهدين.

ونمت ولم يوقظني إلا أحد الإخوة قبل أذان الفجر حيث كان من عادة الشباب أن يستيقظوا قبل أذان الفجر بنصف ساعة أحسست بيده توقظني بحنان شديدة ، وعندما فتحت عينيَّ – وكنت مرهقاً من السفر الطويل– نظرت إليه فقال لي بأدب جم: السلام عليكم يا أخي ، قم لنصلِّ القيام وصلاة الوتر. ثم تركني وذهب، فلم أسأله وقمت مباشرة، توضأت وعدت إلى مكاني أسأل أحد الإخوة أين المسجد؟

قال لي: لا يوجد مسجد ولكن معنا صالة يصلي بها الشباب وأراني إياها ، وبينما كنت أمر بين الغرف كنت أشاهد شباباً يصلون فرادى وهم يتلون القرآن ويبكون وكأنما نزلت بهم صاعقة!! اقشعر بدني وأنا أسمع وأشاهد هؤلاء الشباب، وعندما وصلت إلى الصالة التي جعل منها الشباب مسجداً وجدت شباباً حالهم كحال أولئك الذين مررت بهم في غرفهم، ولم تكن هناك إضاءة في

الصالة حيث كانوا يعتمدون على "لمبة" خارج الحوش من أجل أن تضفي على المكان روحانية وطمأنينة.

صليت ركعتين خفيفتين – لأني لم أكن أحفظ إلا قصار السور – وبعد أن انتهيت من الركعتين – بسرعة – لم أدر ماذا أفعل بعدها بينما كان الشباب الواقفون أمامي لا يكاد الواحد منهم أن يركع إلا متأخراً من كثرة قراءته للقرآن وهو يبكي وكأنه يشاهد ما يصفه القرآن ويصوره من عذاب المشركين والكفار في النار، وكنت ألحظ أنهم عندما كانوا يصلون يركزون في قراءتهم على الآيات التي تتحدث عن العذاب والوعد والوعيد، يكررون قراءة الآية أكثر من ثلاث مرات!!

ووسط هذا الجو المظلم من جهة وبكاء الشباب من جهة أخرى شعرت برهبة وخوف شديدين، وقلت لنفسي: إنهم يخاطبون ربي بكتابه (القرآن) وعليَّ أن أقوم لأصلي ركعة الوتر وأعقد مع ربي اتفاقاً وبيعة، ودعوت الله بما فتح علي في تلك الليلة، ورجوته أن يجعلني من المجاهدين في سبيل الله، وأن لا أشرك بعملي هذا معه أحداً، ثم سجدت وشعرت قبل أن أسلم بشعور خاص ليت ربي يعيد علي مثل تلك اللحظة التي لا أجد لها أي ثمن، فقد أحسست أنني أسعد إنسان على وجه الأرض، سلمت وعدت إلى مكان نومي أنتظر الأذان والطمأنينة تملأ قلبي، وأخذت مصحفاً أقرأ كلام ربي حتى نادى المؤذن لصلاة الفجر فاجتمعنا – جميع الحاضرين – للصلاة ما عدا الجرحى والمرضى، ومن ضمن من عرفت تلك الليلة أخاً عراقياً تجمد من الثلج في شمال أفغانستان وترك في الغابة لمدة ثلاثة أيام حتى جاءت قافلة أفغانية فوجدته لا يزال حياً فنقل إلى بيشاور وقد قطعت أصابع قدميه ويديه. اجتمعنا لصلاة الفجر وقد تم إضاءة المكان وكانوا ينتظرون الإمام الذي قيل لي إنه سيأتي من خارج المكتب.

قالوا: نحن ننتظر الشيخ (...) وتلك أول مرة أسمع فيها اسم الشيخ عبد الله عزام ، ولم أنتظر كثيراً .. التفت إلى هذا القادم وإذا به شيخ جميل الخلقة طويل، كان يلف على رقبته عمامته الفلسطينية التي تعتبر رمزاً (لفلسطين) وكان يلبس الثياب الأفغانية والقلنسوة التي تميز الأفغاني عن غيره.

وكان سمت ذلك الرجل مهيباً وعليه الوقار، وعندما دخل الشيخ ابتسم للجميع ابتسامة هادئة ورصينة وسلم علينا ثم تقدم وصلى ركعتين ثم أقام المؤذن الصلاة وتقدم هذا الشيخ ليصلي بنا ، وقد أبكانا جميعاً بقراءته وروحانيته، وبعد الانتهاء من الصلاة قام أحد الإخوة ووزع علينا كتاباً صغيراً من تأليف الشيخ (الدكتور/ عبد الله عزام) وفي هذا الكتيب أدعية مأثورة عن رسول الله ﷺ قرأناه جميعاً ، ثم طلب أن يقرأ كل واحد منا عشر آيات فقرأ الجميع عشر آيات ، وعندما وصل الدور إليَّ للقراءة كنت أشعر أن قلبي سينخلع وكأني أول مرة أمسك مصحفاً وأقرأ منه ، ونظر إليَّ الشيخ فقال لي: اقرأ، ثم عقب قائلاً: ما اسمك يا أخي؟ قلت له: لقد أسماني أبو عبد الله البلخي أبا إبراهيم، ثم قال الشيخ: من أي بلد أنت؟ قلت : من اليمن. وإذا بالشيخ يقول: الله أكبر . . صدق رسول الله ، وذكر أحاديث كثيرة عن أهل اليمن وفضل أهل اليمن وأنهم أرق قلوباً وألين أفئدة ، وذكر نصرة أهل اليمن لهذا الدين، وكان الشيخ قد لاحظ ترددي بعدم القراءة مثل بقية الشباب لذلك كرر عليَّ أن أقرأ ، قلت له عندها: إني لا أستطيع أن أقرأ القرآن كما ينبغي ، قال لي : لا بأس إنك مأجور لأن الذي يَتَّعتع في القراءة يكون مأجوراً بقراءته إذا أخلص النية. وبالكاد قرأت العشر الآيات.

وبعد أن انتهينا – جميعاً – من قراءة القرآن، قام الشيخ وجلس على الكرسي المخصص للمحاضرين وألقى لنا درساً كان موضوعه عن طبيعة الشعب

الأفغاني وعاداته وتقاليده، وتعرض – بعد أن توسع في حديثه – إلى ضرورة فهم طبيعة الأفغان، ثم انتقل يحدثنا عن فضل الجهاد والمجاهدين وما أعده الله للمجاهدين في سبيله، كنت أشعر من خلال كلامه بصدق القول وإخلاصه لهذا العمل، وكان قوي الإرادة شديد البيان، وأجمل ما كان يميزه طريقة أدائه ولغته العربية الفصيحة التي تخرج من فمه كالسلسبيل، وللحق أقول – ويشهد الله على ذلك – إنني قد أحببت ذلك الشيخ الفلسطيني من كل قلبي ، ولم يخذلني ، وقد كان خير نصير لهذا الجهاد والمجاهدين ، ولم يهدأ أو تلين له قناة حتى لقي الله شهيداً مع ولديه محمد وإبراهيم.

ولقد رأيت نماذج من الناس كانوا يشوهونه من الخارج، ولكنهم سقطوا كما تسقط الفراش عبر تلك المسيرة. إنني عبر مسيرة حياتي إلى هذه اللحظة لم أجد شخصية مقنعة سيطرت على قلبي وجوارحي وكان لها مكانة كبيرة في قلبي كهذا الرجل، أسأل الله أن يلحقني به شهيداً.. آمين.

بعد انتهاء الدرس دخل رجل لم يكن يستطيع أن يدخل من الباب بسهولة لضخامة جثته، كان هذا الرجل قصيراً أبيض الوجه – وأبيض القلب أيضاً – وفور دخوله قال طرفة وجهها للجميع: (من منكم في المخابرات حتى أجلس عليه!) انه الشيخ تميم العدناني – رحمه الله ورضي عنه – بعد ما ذكر هذه الدعابة سلم علينا ، ثم تحدث إلينا عن بعض المعارك التي شارك فيها ، ولم أصدق أن هذا الرجل الذي يزن أكثر من مائة وخمسين كيلوجراماً قد دخل أفغانستان ومشى فوق جبالها، ولكن وعندما شاهدته بعد هذا التاريخ الذي عرفته فيه لأول مرة في مكتب الخدمات عرفت شجاعة الرجل وحسن بلائه حيث تقابلنا للمرة الثانية في منطقة (جاجي) في رمضان ، وقد أبلى بلاء حسناً مع الإخوة الأفغان

الذين كانوا معهم وكانوا مسئولين عن موقع"الزكياك" وهذا السلاح ضد الطيران.

كان الشيخ تميم يريد ذلك اليوم أن يستنهض همم القادمين الجدد من أوطانهم ، ولذلك كانت كلمته مزيجاً من الحماس والتحريض على القتال وعن الكرامات التي يجدها المجاهدون، وأن تلك الكرامات هي علامات النصر من الله تعالى. وبعد أن انتهى الشيخ تميم من كلمته المميزة والتي كان يدخل فيها الكثير من المداعبات والطرائف ، كنا قد انتهينا من البرنامج المعد بعد صلاة الفجر ، وما إن انتهينا من هذا البرنامج حتى نادى المنادي إن الفطور جاهز .. فتوجهنا إلى غرفة الطعام وشاهدت أنه قد قدم لنا الكثير(بيضاً مسلوقاً ومشوياً وجبناً مملحاً وعادياً وزيتوناً ومربى وطحينية) وعندما شاهدت كل هذا قلت في نفسي: أهذه سفرة طعام المجاهدين؟! ربما لأننا ضيوف عليهم!! وبعد أن انتهينا من تناول الفطور وشربنا الشاي المميز – يسمى (شين شاي) – استدعانا أحد الإخوة إلى مكتب الخدمات ، وقدم لنا الأخ المسئول بدلة وجاكت وطاقية أفغانية ونعالاً (نوعية نصف جيدة) لكل واحد منا وكنا لا نزال – حتى تلك اللحظة – نلبس ثيابنا التي جئنا بها من بلادنا.. وبعد أن استلمنا المهمات "قال لنا الأخ المسئول: بعد غدٍ ستتوجه مجموعة إلى معسكر التدريب فهل تريدون أن نسجلكم بكشف بعد غد؟

قلت له: بالنسبة لي نعم أريد أن أسجل ، أما بالنسبة للأخوين اللذين كانا معي: الأخ ابن الأدهم طلب التأخير لأنه – كما كان قد ذكر لي من قبل– يريد أن يسجل في المعهد الذي فتح للطلبة (المعاهد العلمية) وكذلك "أبو إسماعيل" الذي كان يعمل مدرساً متنقلاً بين صنعاء وبيشاور. لم أخرج طوال اليومين من المضافة منتظراً متى سأدخل معسكر التدريب؟ ومكثت في المضافة

أتعرف أكثر على من سيرافقني إلى معسكر التدريب ، وكان عدد الذين قد سجلوا للذهاب إلى المعسكر أربعة عشر أخاً، ومن بين هؤلاء حرصت على توثيق المعرفة باثنين منهم هما: أبو الوليد النجدي وأبو القعقاع المدني ، وقد أحببتهما أكثر من غيرهما مع أننا كلنا إخوة في الدين ونحب بعضنا البعض ونفدي بعضنا بالمال والنفس لكن تظل هناك خصوصية للبعض .

استمرينا – نحن الثلاثة – مع بعضنا داخل المضافة نقرأ ونطالع الكتب، ونسمر سوياً في الليل وكل واحد منا يتحدث عن مشاريعه داخل أفغانستان ، من الذي يريد أن يستشهد بسرعة؟ ومن الذي يريد أن يستمر في الجهاد والقتال حتى يرى النصر على الأعداء ويعيشه، كما قال ربنا : (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)"؟

أما أنا فاخترت الثانية!!

وأثناء تلك اللحظات عندما كنا نتحدث – نحن الثلاثة – مع بعضنا البعض لم أستطع أن ألغي من ذاكرتي تلك الصورة البشعة عن أهل الرياض، التى تكونت من خلال تجارب سابقة وكان انطباعي عنهم إلى حد كبير سلبياً ، حيث كنت أرى أن أكثر ما كان يغلب على طبع أهل الرياض هو صفة الأعراب الغلظة في القول ، وسلبية أخرى الكبر والبطر ، والنظر إلى أي عربي آخر نظرة دونية!! ولكن ما إن رأيت هذه النماذج التي هذبها الإسلام وجعل العقيدة هي الرابط الحقيقي، حتى أدركت أن تلك الصفات السابقة قد أذابتها حرارة الإيمان وأخوة الإسلام.

قال ربنا : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) لم أكن أتصور ولا يدور في خلدي أني سأجد عرباً من المشرق ومن المغرب يجتمعون على طاولة واحدة ، ولكني هنا رأيت هذه

النماذج وكأنها الخيال! رأيت السعودي يودع أخاه الجزائري قبل المعركة وهو يقول له: إن أكرمني الله بالشهادة اليوم أعدك أني سأشفع لك عند ربي وسيكون اسمك في أول القائمة!! (من المعلوم أن من كرامة المجاهد عند الله أنه يشفع لسبعين من أهله – أو من يحب – يوم القيامة).

رأيت تلك النماذج التي أعادت لي الثقة بديني وأمتي العربية من خلال هذا المجتمع الإسلامي العالمي، وأنه إذا ما اجتمعنا على مائدة هذا الدين فسيكون لنا شأن عظيم وسنعيد تلك النماذج التاريخية التي فتحت العالم من خلال مبادئ وقيم هذا الدين.

رأيتهم وقد ذابت منهم جاهلية العرقية والقومية والتعصب للجنس أو اللون أو العرق ، رأيت الأسود الأفريقي ورأيت الأبيض المسلم الأمريكي ورأيت الماليزي والأندونيسي ورأيت بقية العرب – على اختلاف أسماء دولهم – ولسان حالهم يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

لقد رأيت كل هؤلاء – وهم من جنسيات مختلفة – في خندق واحد يقاتلون العدو وبقوس واحدة ، وكل واحد منهم يؤثر أخاه على نفسه ويقدم صدره دون أخيه!! إنها بحق نماذج عظيمة تستحق الذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!! إنني بعد أن استوعبت ما يدور على أرض أفغانستان وهي تحاول أن تعيد أمجاد أمة عظيمة وتنشد من فوق جبال أفغانستان العظيمة :

لنا فرس لم تنجب الخيل مثله فتحنا به الدنيا يسمونه الردي

على ظهره العاني أقمنا سروجنا نطير إلى الرحمن في أثر أحمد

علمت إن هذا الدين يتعامل مع معادن فيصقلها ويسمو بها حتى لتكاد تتخيل أنك تتعامل مع ملائكة تمشي على الأرض بصفاتهم ورفعتهم(الناس

معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) لقد صقل الإسلام معدن هؤلاء الشباب فأصبح الوفاء لهم سجية ، والشجاعة لهم صفة ، والعزة لهم طبعاً ، والحياة لهم خلقاً، وأصبح الزهد دينهم والرجولة عنوانهم والغيرة سمتهم ، قارنت نفسي المهزومة في أعماقها المضطربة في حياتها وبين هؤلاء المجاهدين الذين تركوا كل متاع الدنيا تلبية لنداء ربنا سبحانه:(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا).

الذهاب إلى معسكر التدريب في صدى

كان النظام لدى مكتب الخدمات – كما شرحته سابقاً– خلال الأربعة والعشرين ساعة لا يتغير ولا يتبدل، الشباب الذين في داخله كلهم إما في قراءة أو عبادة ، وكان لدينا ملعب صغير وسط العمارة نلعب فيه كرة القدم أو التنس..الخ، وفي صباح اليوم الثالث وقد عزمنا على الرحيل في أول رحلة للدخول في هذه التجربة ، تعمدت القيادة العربية على أن تكون معسكرات التدريب على مقربة من أرض الجهاد والاستشهاد حتى يتسنى للأخ العربي القادم أن يسمع هدير الطائرات وأزيز الصواريخ و القذائف وهي ترج الأرض رجاً ، لذلك وأنت بمعسكر صدى تستطيع مشاهدة الطائرات المقاتلة الروسية وهي تصب قذائفها التي تزن طناً فوق رؤوس المجاهدين الأفغان ، ناهيك عن صواريخ اسكود التي تزن خمسة أطنان وطول الصاروخ (أحد عشر متراً) .

وصل الباص الذي سينقلنا إلى معسكر التدريب بمنطقة قريبة من أفغانستان (معسكر صدى) كنا على أهبة الاستعداد للسفر ، وكان معنا أطيب وأشجع شيخ وهو "تميم العدناني" الذي أصر أن يرافقنا إلى المعسكر الذي يبعد عن بيشاور أكثر من ١٨٠كم ، وعندما رجوناه أن لا يذهب معنا حفاظاً على صحته ، قال لنا: لا يا إخوتي ، لقد بلغنا أن القبائل خارج مدينة (تل) أقامت الحواجز والكمائن للمسافرين على تلك الطريق، وأنا أعلم أن أغلب من يستعمل تلك الطريق هم من المجاهدين الأفغان، كما أن من يسكنها هم أيضاً من المهاجرين الأفغان ، وأن هذا الأخ (سائق الباص) هو أفغاني من المجاهدين وأنا على معرفة جيدة بأهل تلك المناطق ، وقد اشترينا عدداً من الباصات لهؤلاء المجاهدين الأفغان حتى يعينوا أنفسهم وأسرهم مادياً ويعملون معنا لنقل الشباب

من هنا (أي بيشاور) إلى باقي المنافذ الحدودية إلى أفغانستان. وكان الشيخ تميم يخشى أيضاً على الشباب العرب من بعض القبائل المرتزقة المحسوبة على الشيعة وخصوصاً في منطقة اسمها (تيري منكل) حيث كان (شباب العرب) يعانون كثيراً من هؤلاء الذين لم يكونوا يسمحون للإخوة العرب الدخول إلا بمبلغ معين من المال ، هذا هو الأسهل من الأساليب العادية أما إذا تدخلت الحكومة بالضغط على رجال القبائل فالأمر يكون صعباً جداً– وسآتي على ذكره لاحقاً. أما إذا كانت مواداً غذائية أو غيرها فإن الإتاوات تكون أكثر (ابتزاز من قبل المحرضين على المجاهدين منذ ذلك التاريخ المبكر)!!

كان الباص الذي سينقلنا إلى معسكر التدريب داخل حديقة المنزل ، وتوافدنا إلى داخل الباص نحمل معنا حقائبنا الصغيرة التي لم تكن تحتوي الكثير فقط بدلة أو بدلتين من الثياب التقليدية الأفغانية وشالاً يسميه الأفغان (البتوا) وهذا البتوا لا يستطيع المجاهد الاستغناء عنه، فهو يستعمله للصلاة وللتدفئة، ويحمل أغراضه، وأيضاً يحمل به المصابين والشهداء ، وعندما صعد جميع الشباب للباص وصعد "أميرنا" ليركب قرب السائق الأفغاني، فتح الحارس الأفغاني بوابة المنزل وانطلق الباص متوجهاً نحو معسكر صدى، كنا نمر مقابل نهر عظيم يتوسط الطريقين اللذين يخرجان من بيشاور والعكس.

قال لنا الشيخ تميم: إن هذا النهر يأتي من داخل أفغانستان وتحديداً من ولاية (كونر)، لقد كان الشيخ تميم يمثل الدليل السياحي بالنسبة لنا، كنا نشاهد أرضاً خضراء وجميلة وخصبة وقد زرع فيها الأرز البيشاوري المشهور، منذ خرجنا من آخر معلم من معالم بيشاور وحتى وصلنا مدينة جميلة ونظيفة وأحدث في البناء من بيشاور وهي مدينة (كوهات)، كنا نشاهد الزرع والخضرة على جانبي الطريق والمناظر الجميلة التي تبهر العين تتكرر على الطريق وخارج

مدينة (كوهات) ، لم يعترضنا في الطريق سوى نقطتين أو ثلاث للتفتيش ، كانت هذه النقاط تابعة للجيش الباكستاني ، ولأن سمَتَنَا كانت أفغانية من خلال الثياب التي كنا نلبسها والقلنسوة التي نضعها على رؤوسنا ، فقد كان ذلك يعفينا كثيراً من أسئلة من كنا نقابلهم في نقاط التفتيش ، كما أن المجاهدين لم يكونوا يعانون – بشكل عام – من مشاكل تذكر من قبل الجيش الباكستاني فقد كان نعم النصير والصديق للمجاهدين عند ذلك التاريخ من مسيرة الجهاد الأفغاني.

وكانت آخر نقطة للجيش الباكستاني في قمة الجبل الذي يطل على مدينة كوهات الجميلة والذي منه ننزل إلى المدينة التي يتفرع منها طريقان أحدهما إلى الشرق ويصل بنا إلى ثالث مدينة باكستانية وهي (بينو) ونقابل بعد مطارها الصغير مديرية صغيرة اسمها (ميرام شاه) ، والطريق الآخر نحو الغرب إلى مدينة (تل) وتوجد بعد مدينة تل قرى متناثرة للمهاجرين الأفغان الذين كانوا دائماً ينزلون على ضفاف النهر من أجل الماء، على طول تلك المسافة التي قطعناها منذ خروجنا من كوهات إلى مدينة تل والأمن والأمان هو السائد ولم يعترضنا أحد، وبمجرد خروجنا من تل بكذا كيلو متر – اعترضتنا أول نقطة من القبائل، لقد كانوا يضعون حبلاً على عرض الطريق ويربطونه إلى برميل .

وتجد الباكستاني "القبيلي" وهو على جانبي الطريق يمسك بيده الحبل وباليد الأخرى (الكلاشنكوف) ويضع على رأسه عمامة أكبر من البرميل الذي يربط الحبل إليه!! وشاربه لا تكاد ترى منه شفتيه ، ويلف شاربه على شكل قمة وكما يقول الباكستانيون عندما يتباهى أحدهم بشاربه إنه يستطيع أن يقف على شاربه صقر)!! وإلى جانب ذلك الحارس (الطاووس) يقف رجل آخر يقوم بتفتيش الباص، وإذا كان الوضع بين الحكومة والقبائل هادئاً وفي حالة

وئام لا يدققون كثيراً في التفتيش ولا يسألون الركاب ، أما إذا كان الوضع غير ذلك فإنك تتمنى أن تعود من حيث أتيت!!

والحمد لله أن الوضع الأول كان هو السائد أثناء مرورنا ، من كثرة نقاط التفتيش فإننا لم نصل إلا متأخرين بزيادة ساعة ونصف الساعة حسب ما كان مقرراً ، كما قال لنا السائق الأفغاني الذي كان يتحدث اللغة العربية وهو من طلبة العلم ويتبع تنظيم الشيخ سياف (الاتحاد الإسلامي) ، لقد خرجنا من بيشاور الساعة السابعة صباحاً تقريباً ووصلنا قرية (صدى) الساعة الثالثة بعد الظهر. وبعد أن وصلنا قرية صدى مشينا على أقدامنا حتى خرجنا من القرية حيث كانت تنتظرنا سيارة "هيلوكس" تابعة للقادة العسكريين العرب أقلتنا إلى بداية كلية الشيخ سياف ، وقد كانت هذا الكلية الحربية طور الإنشاء حيث لاحظت ذلك من خلال المرافق التي كانت تبنى آنذاك .. لم يكتمل بناؤها بعد .. ونزلنا عند البوابة والشيخ تميم معنا لم يفارقنا أبداً، ثم صعدنا إلى أعلى الجبل الذي فيه معسكر الإخوة العرب وكانت المسافة ما بين كلية الشيخ سياف والمعسكر تصل إلى اثنين ونصف كيلو متر تقريباً.

وصلنا ساحة ليست بالكبيرة، واستقبلنا أخ فلسطيني اسمه أبو الشهيد ، وكان يظهر من شخصيته ومن جديته التي استقبلنا بها أنه المسئول عن المعسكر ، تقدم إلينا وسلم على كل واحد منا، ثم عاد إلى الشيخ تميم وأخذ منه رسالة فيها أسماء الشباب ورسالة خاصة بعملهم.. ثم نادى باسم و كنية كل واحد منا وتعرف علينا جميعاً، ثم أمرنا أن نضع أمتعتنا بالقرب من أحد العنابر ، ثم أشار بيده ومشينا وراءه إلى مكان خارج حدود المعسكر بمسافة قليلة ، حيث يوجد أكثر من عنبر خاص بالمعسكر ودخل أحد هذه العنابر الذي كان مخصصاً (للتموين)، ثم نقل تلك الأسماء من الرسالة التي وصلت من مكتب الخدمات إلى كشف

خاص به، وبعد أن انتهى من كتابة الأسماء نادى باسم كل واحد منا ليدخل لاستلام حاجياته ، وكان كل أخ يستلم بطانيتين وفرشاً صغيراً ووسادة ، وهكذا حتى استلمنا جميعاً ثم عدنا إلى المعسكر الذي كان حجمه في ذلك الوقت عبارة عن (ثلاثة عنابر) طول كل عنبر بين خمسة إلى ثمانية أمتار وعدد من الخيم المتوسطة.

وقد تم تخييرنا بالسكن إما في الخيام أو العنابر فاخترت ومعي الأخوان أبو القعقاع وأبو الوليد النجدي خيمة كان بابها قريباً من بوابة المسجد وضعنا فيها أمتعتنا ومهماتنا لنجتمع نحن الثلاثة في مكان واحد في معسكر صدى مصنع الرجال والأبطال صناعة جديدة بدنية وروحية وإيمانية وعسكرية، وبعد أن وضعنا أغرضنا واستقرينا في تلك الخيمة، كنت قد شاهدت – في ذلك الحين– مجموعة من الشباب – خارج المسجد– متحلقين على مدرب وبجانبه رشاش (عيار ١٢/٧) استأذنت من الإخوة الذين كانوا يقرؤون الأدعية المأثورة التي وزعت لنا في مكتب الخدمات، ثم خرجت أريد أن أصل إلى مكان أولئك الشباب الذين يدرسون هذا السلاح الروسي وسط ساحة المسجد.

وصلت إلى مقربة منهم واستحيت أن أتقدم أكثر من ذلك، ولكني كنت أسمع شرح المعلم أو المدرب للشباب، وكنت أستمع إليه بشوق كبير وآذان مصغية وأتمنى أن أكون واحداً من هؤلاء الشباب المتحلقين ، وكان ذلك المعلم شاباً أفغانياً يجيد اللغة العربية بطلاقة وقد تخرج في كلية الشيخ سياف التي كانت تمول العديد من المعسكرات بالمعلمين وكان ينظر إلي وكنت أيضاً أنظر إليه وأريد أن أقول له أن يسمح لي أن أشارك معهم ، ولم أنتظر كثيراً فبالرغم من أن الحصة كانت قريبة من الانتهاء إلا أن ذلك المعلم أشار إلي بيده ، وقال لي باللكنة الأفغانية: تقدم يا أخي.. تريد أن تسمع؟ تفضل، وتقدمت إليه على

استحياء وجلست قريباً منه وكانوا قد فرشوا حصيراً من أثاث المسجد ليقيهم برودة الأرض الإسمنتية، استمعت إلى شرحه قليلاً ثم بدأ يوجه الأسئلة لتلاميذه ولم أكن أتصور أن من بين هؤلاء الشباب من هو طبيب ومهندس وأستاذ وبعضهم أتى من أمريكا حيث كانوا طلبة هناك.

ولم أجد أحداً منهم تلعثم في الجواب على أسئلة المعلم ، وبعد أن انتهى من أسئلة تلاميذه ختم درسه بالدعاء المأثور : "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك" ودائماً كان هذا الدعاء هو إشارة لانتهاء الحصة.. ليبدأ الجميع بعد ذلك الاستعداد لصلاة المغرب من وضوء وقراءة للقرآن وقراءة الأدعية المأثورة.

وكان عدد الطلبة قليلاً وعندما شاهدوني جديداً عليهم قاموا يسلمون علي ويعانقونني بحرارة وصدق ، ويرحبون بهذا الأنصاري الجديد ، ثم عاد كل واحد منا إلى خيمته وعنبره استعداداً لصلاة المغرب. وكان نظام المعسكر على النحو التالي:

بعد صلاة المغرب والعشاء ننتظر حتى الساعة الثامنة حتى يصل الخبز من كلية الشيخ سياف، حيث كان هناك فرن مركزي للجميع ، أما بقية الطعام فكان يطبخ عندنا داخل المعسكر من قبل طباخين أفغان مهرة ، فقد كانت القيادة تتعمد تأخير طعام العشاء، وكانت صالة الطعام هي نفس ساحة المسجد الذي يتم فيها التدريس نظرياً.. وعندما نجتمع لطعام العشاء يكون الأخ مسئول الحراسة قد أعد كشفاً بأسماء دورية الحراسة ومن هو أمير الدورية وعندما يسمع كل أخ اسمه يجتمعون في مكان بعيد عن بقية المجاهدين ، ويذكر لهم أمير الدورية الأماكن التي سيحرس فيها كل أخ ثم يعطيهم كلمة السر والتي كانت عادة ما تتكون من جملتين ويمنع منعاً باتاً أن تخرج تلك الجملتان عن

إطار تلك المجموعة المكلفة بحراسة تلك الليلة، وكان كل أخ يحرس ساعة ونصف الساعة ثم يتم استبدال آخر به عن طريق أمير الحراسة، وهكذا إلى ما بعد صلاة الفجر وطلوع الصباح ، ثم بعد ذلك تكون الحراسة للإخوة الأفغان وقيادة الكلية الحربية ، وبعد صلاة الفجر يكون البرنامج لمن سيبدؤون دورة التدريب بفروعها البدنية والعسكرية– النظرية والتطبيقية.

عند الانتهاء من صلاة الفجر ثم قراءة القرآن ، ودرس من السيرة النبوية كان يتولى هذه الفترة إما الشيخ تميم أو أبو حمزة العراقي أو شيخنا الدكتور/ عبدالله عزام ، ثم بعد ذلك يخرج الجميع بدون استئذان إلى ساحة المعسكر، ليشكلوا ثلاثة طوابير استعداداً للياقة البدنية ، وكان أمير اللياقة البدنية أخاً قطرياً، وأعتقد أنه تدرب في الأردن – على ما سمعت – في المظلات الأردنية وكان يتمتع بسمعة طيبة وقدرات هائلة.

كنا نتوجه من داخل المعسكر إلى خارج حدوده بحوالي عشرة كيلو مترات ونشق خلال نزولنا من المعسكر الكلية الحربية ثم نخترق مجرى لمياه الأنهار – وهي غابة أيضاً مليئة بالأشجار – صعوداً حتى تقابلنا قمة جبل يسمى (جبل أبو برهان) (وهذا الاسم نسبة لأمير معسكر العرب أبو برهان السوري) ثم نصعد إلى قمة الجبل وفيه دفاع جوي تابع للشيخ سياف (زكياك عيار ١٤,٥)، ثم يسمح لنا بالاستراحة في قمة الجبل لمدة خمس دقائق على أن لا نجلس، ثم ننزل من الجبل مهرولين ونجتمع في أسفل مجرى السيل ، وبعد أن يعاد ترتيب صفوفنا ننطلق مرة أخرى في الجري ، وهذه المرة لا ندخل الكلية الحربية مرة أخرى ، بل نصعد إلى المعسكر، ولكن من طريق آخر وقد كان شاقاً جداً من كثرة الأشجار حيث لا تكاد تجد مكاناً ثابتاً لتضع قدمك فيه، وما إن نصل إلى ساحة المعسكر التي انطلقنا منها حتى نكون قد أصبنا بالإجهاد الشديد.. إلاّ أن أجمل ما كان

يسعدنا ويمتعنا ونحن في تلك الحالة هو وجود الشيخ عبد الله عزام معنا وفي أول الصف ، فما كان أروعه عندما كان يربط على أسفل ظهره العمامة الفلسطينية التي ترمز لفلسطين المحتلة ويتقدم الصف منذ بداية انطلاقنا من ميدان المعسكر ، وطوال تلك الرحلة الشاقة وحتى نعود إلى المعسكر مرة أخرى وهو لا يزال في أول الطابور أو الصف ، وكعادته ما إن نصل إلى الميدان حتى يأخذ نفساً عميقاً يخرجه من صدره ثم يقول الدعاء المأثور :(سبحانك اللهم وبحمدك...الخ) لأنه لا يستطيع أن يواصل معنا التدريبات (السويدية) وصعود الحبال المتدلية من فوق المواسير.

وبعد الانتهاء من حصة الرياضة، يسمح لنا بالاستراحة لمدة خمس عشرة دقيقة نعود خلالها إلى خيامنا وغرفنا ، ونأخذ ما نحتاج لدخول الحمام من فرشاة أسنان ومعجون وصابون...الخ، ثم نستعد لطعام الفطور، وبعد تناول طعام الفطور نعود إلى خيمنا وعنابرنا مرة أخرى، ويأخذ كل منا ملزمته وقلمه وينظر في الجدول المعلق قرب باب الخيمة أو العنبر عن حصة اليوم ، ونحن كمبتدئين في الدورة التدريبية الجديدة كانت الحصة التي تجمعنا مع بقية أفراد المعسكر هي الحصة الأولى (طابور الصباح) بعد ذلك يوزع الشباب إلى عدة حلقات متفرقة في أنحاء المسجد كل عشرة إلى خمسة عشر أخاً أو يزيد قليلاً في حلقة، وتكون حصتهم بحسب ما وصلوا إليه من التدريب ، وكان لنا – مجموعة المبتدئين – حلقة مستقلة في طرف المعسكر حيث نبدأ بالتدريب على سلاح (الكلاشينكوف) حيث يتم دراسة هذه القطعة نظرياً وعملياً ، فيأتون لنا بقطعة السلاح وتوضع أمامنا وتفك من قبل المعلم مرتين أو ثلاث مرات، وبعد أن نعلم بماهية هذا السلاح وقدراته يتقدم كل أخ منا فيفك القطعة ويعيد تركيبها كما كانت، ثم بعد أن نستوعب هذا السلاح نقوم بالتدريب عليه عملياً وننتقل

إلى مكان آخر "مكان الرمي" ويعطى لكل أخ ثلاثون طلقة، ثم يطلق حسب الأوضاع التي يطلبها منه المعلم.. وهكذا يستمر التدريب على كل الأسلحة المتوفرة داخل المعسكر.. ولم يكن يوجد الكثير من أنواع السلاح، وعادة ما تنتهي هذه الدورة التدريبية عند (مدفع ٦٢ملم هاون) .

وكانت فترة الدورة تستغرق خمسة وأربعين يوماً، وكانت الدورة تشمل إلى جانب التدريب على السلاح بعض الدروس الخاصة بمعرفة الجبهة وطبيعة قتال المجاهدين الأفغان.. وكان التركيز في هذه الدروس على معرفة تعاملنا مع المجاهدين الأفغان وكيف نجعلهم يحبوننا، وكانت المحاضرة الأخيرة محل اهتمام الشيخ عبد الله عزام وقيادة المعسكر ، يشددون عليها لأنها أساس بقائنا وتوثق صلتنا بإخواننا المجاهدين الأفغان، لأنه إذا أردت أن تروض ذلك "التيس الجبلي" كما يسميه الروس والبريطانيون من قبلهم لا بد لك أن تقنع هذا المجاهد الأفغاني من خلال شجاعتك ورجولتك وصبرك على الشدائد، حتى تتساوى معهم بهذه الصفات التي تكاد تكون خاصة بالشعب الأفغاني ، فإذا تساوينا معهم في تلك الصفات الشخصية فسنتميز عليهم بصفاتنا العربية .

وكما كان إخواننا الأفغان يقولون عنا إننا (أحفاد الصحابة) وهذه الصفة الروحية والتاريخية نستطيع توظيفها في تثبيتهم داخل الجبهة والصلح فيما بينهم إذا ظهرت أي خلافات وقد كانت كثيرة (بسبب الغنائم)!!!
وعند الانتهاء من الدورة كان غالباً ما يحضر الشيخ عبد الله عزام في حفل التخرج، ثم تعود تلك المجموعة التي تخرجت إلى بيشاور لتستريح قليلاً عندما كانت بيشاور مكان راحة خصوصاً في ذلك التاريخ!!

وبعد ذلك يتم ترحيل الشباب إلى داخل أفغانستان عن طريق مكاتب الأحزاب الأفغانية الثلاثة التي كان العرب يثقون بها ويتعاملون معها (سياف- حكمتيار- رباني). كان ذلك هو طبيعة برنامج معسكر صدى العادي .

المشاركة في دورة الفصائل الخاصة

بعد الانتهاء من حفل تخرج الدفعة التي شاركت بها، عرض علينا من قبل قيادة المعسكر إذا كنا نريد المشاركة في دورة جديدة ومتميزة ، وخاصة التي ستبدأ قريباً، ولم يكن الإعلان عن هذه الدورة بشكل عام ورسمي، وقد تم اختياري من قبل قيادة المعسكر.

ولأني أثق بالشيخ عبد الله عزام فقد ذهبت إليه لأستشيره، وقلت له: يا شيخ ، لقد انتهيت من فترة التدريب على جميع الأسلحة التي تدربنا عليها هنا، وقد عرض علي الإخوة المسئولون في المعسكر إذا كنت أريد المشاركة في الدورة التي أسموها "دورة الفصائل الخاصة" فماذا تنصحني؟

قال الشيخ: لا بأس .. استمر وتعلم فإن ذلك من باب الإعداد للمعركة الطويلة القادمة مع أعداء الله.. نرجو الله أن يفتح علينا أفغانستان، ويقتلنا شهداء على أرض بيت المقدس في فلسطين.

وما إن صكت تلك الجملتان مسامعي حتى شعرت وكأني أصبت بماس كهربائي!! لأني أستقبل هذا الكلام ولأول مرة من هذا الشيخ الذي أحببته كثيراً والذي أرجو الله أن يحشرني معه في الفردوس الأعلى . ولا زلت أتذكر شعراً كان دائماً يستشهد به، عندما كان يقال له إنك فلسطيني تركت قضيتك الأولى وأتيت للقتال في أفغانستان، وقد كان يُسأل كثيراً عن هذه المسألة، فكان يجيب عليهم مستشهداً بهذه الأبيات :

لقـــد لامني بين القبور على البكا ... صديقي لنذراف الدموع السوافك

فقـــال أتبكي كل قبر رأيـــته؟ ... لقبـر ثوى بين اللواء فالدكـادك

فقلت له إن الشـــجا يبعث الشجـا فدعـــــني فهذا كله قـــبر مالك

كان شيخنا وإمامنا يرد على أصحاب القلوب المريضة :

أنـا ما خنت عهد القـــــدس لما خـانه الـدولُ

وفي ساحاتها جاهدت إذا جل الورى خذلُ

فلما اشتد كف البغي وانقطعت بنا الحيل

ولـم تبقـي الطغـاة طـريقاً لها يصـل

عندما سمعت منه تلك المقولة شعرت بعظم المسؤولية، وكلامه الكبير عليَّ عندما كنت أخوض هذه التجربة الأولى في حياتي الجديدة والمتجددة ، وقلت له: سمعاً وطاعة، ثم خرجت إلى الأخ المسئول المباشر عن هذه الدورة والتي تكاد تكون سرية على بقية الإخوة الموجودين داخل المعسكر من خلال سرية التنقل والحركة داخل المعسكر ، وكان أميرها أخاً كريماً ومتميزاً، وصاحب قدرة وكفاءة، احترمته وأحببته من خلال هذه الدورة وهو (من أهل الشام) طلبت منه أن يسجل اسمي من ضمن المشتركين، وكنت أنا الوحيد من بين أعضاء هذه الدورة الذي لم يدخل إلى أرض أفغانستان ، إذ أن بقية الإخوة المشاركين فيها قد شاركوا في العديد من المعارك والعمليات ضد جيش الاحتلال الروسي وعملائه التابعين لنظام نجيب "العميل في كابل" وقد سجل هذا الأخ "الشامي" اسمي في ذلك الوقت ، وقال لي: إن الدورة ستبدأ بعد سبعة أيام من اليوم.. فإذا كنت ترغب في البقاء هنا فلا بأس وإن كنت تريد أن تذهب إلى بيشاور لشؤونك الخاصة فلا بأس من ذلك أيضاً المهم أن تكون حاضراً في أول يوم من بدء الدورة.

ولأنني تعلقت بالأخوين السعوديين (أبي القعقاع وأبي الوليد) ولم أجد أيضاً مبرراً لبقائي داخل المعسكر "صدى" فقد ذهبت إلى الأخوين لأخبرهما أني سأعود معهما إلى بيشاور صباح يوم غد مع بقية الشباب الذين سيرحلون عند عودتهم من بيشاور إلى داخل أفغانستان التي تحتاج إلى وجود عرب حسب رؤية وسياسة مكتب الخدمات (عندما كان لا يزال يمارس دوره الحقيقي والاستراتيجي بقيادة العرب وجهادهم)؟؟ ثم عدنا صباح اليوم التالي إلى بيشاور ولم يعترضنا أحد على طريق العودة إلى مدينة كوهات من جانب القبائل الباكستانية إذ أنهم يشددون فقط على الداخلين إلى أرض أفغانستان.

كنت في طريق العودة إلى بيشاور مختلفاً تماماً عن يوم خرجت منها إلى المعسكر صدى، فقد كسرت لدي الكثير من الحواجز النفسية وأنا داخل أرض باكستان، وقريباً من شعبها أيضاً، لأن الذي لا يتعرف عن قرب على ذلك المجتمع لا يمكنه أن يخرج بانطباع واضح وصورة حقيقية عنه، نظراً للكثير والكثير جداً من التناقضات الاجتماعية والأخلاقية وحتى الدينية!

صحيح أنه مثل أي شعب في العالم ولكن الذي يميزه أن كثيراً من سلوكيات حياته اليومية تطبع بطابع إسلامي أو أنه يريد ذلك، ولكن كحقيقة واقعية فليست كذلك وإن كانت نسبية، صحيح أن هناك حركة إسلامية قوية ومؤثرة على رجل الشارع العادي والمثقف إلا أن الولاءات القبلية والعرقية هي الغالبة عليهم.

وعندما عدنا إلى "مضافة مكتب الخدمات" تلك المضافة المباركة التي نزل فيها أولئك الشباب الأوائل الذين سطروا بدمائهم أروع آيات البطولة والبسالة الذين بفضلهم – بعد الله عز وجل – طبعوا تلك الصورة المشرقة في مخيلة كل أفغاني!! لولا ظهور المرجفين الذين شوهوا تماماً تلك الصور التي

طبعت في أذهان الشعب الأفغاني، ولولا أيضاً (السلفية والريال السعودي) ومن كان ينفخ تحت تلك النار التي اشتعلت تحت أقدام المجاهدين العرب، "وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون.

عندما عدت إلى مضافة مكتب الخدمات شاهدت الكثير من الشباب القادمين من بلدانهم المختلفة، وكنا نفرح كثيراً ونسعد عندما نرى ذلك الأخ القادم من بلاده والذي اصطفاه الله من بين أبناء شعبه وقدم إلى أرض الجهاد الإسلامي المبارك.

قضيت أربعة أيام في بيشاور ولم تتحمل نفسي أكثر من ذلك فعدت مع الشباب الذاهبين إلى معسكر صدى، فقد كان من نظام مكتب الخدمات –لأسباب خاصة– أن يرسل كل ثلاثة أيام دفعة جديدة إلى معسكر صدى.. وقبل أن أودع أحبابي الذين سيدخلون إلى أرض البطولة والفداء (أفغانستان) كنا قد اتفقنا مسبقاً أنه إذا أحيانا الله فسنجتمع في كابل (مديرية شكر درة) فكما علمنا من إخواننا الأفغان أن تلك المنطقة من أسخن المناطق، وأكثر تعرضاً للعدو، وقد كان من طبيعة العرب أنهم يسألون ويبحثون عن المكان الذي تجري فيه العمليات والمعارك الشديدة حيث الموت مضانهم كما ورد في الحديث الشريف ، قال ﷺ : (من خير معاش الناس رجل آخذ بعنان فرسه كلما سمع هيعة أو فزعة طار إليها يبتغي الموت والموت مضانه) وتعاهدنا على أن نلتقي هناك بمجرد الانتهاء من الدورة التي سأشترك فيها، حيث كنت حريصاً على الاستفادة من أصحاب الخبرات الذين يعملون في المجال العسكري وخصوصاً ما كان يتناسب مع طبيعة المعركة والإمكانيات، وافترقنا على هذا الاتفاق، كما تعاهدنا أيضاً على أهم شيء اجتمعنا عليه ومن أجله أنه من أكرمه الله واستشهد فإنه يعد

إخوانه بأنهم سيكونون في أول الكشف من السبعين الذين سيعرضهم هذا الشهيد على الله للشفاعة يوم القيامة، عندما يقول له:"اشفع لسبعين ممن تحب"!!

وتركتهم وأنا أحمل لوعة الفراق وشدة الاشتياق للدورة القادمة التي علمت من أحد المعنيين في مكتب الخدمات أنها الأولى في تاريخ المعسكر، وأنها مهمة للغاية، وستعينني داخل أفغانستان، فغلبت عندها مصلحتي المستقبلية على العاطفة الآنية تجاه إخواني وأحبائي الذين تركتهم لله، وصدق رسول الله عندما قال: "الناس معادن ، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف".

عدت في أول رحلة إلى معسكر صدى ولم أستطع أن أكمل فترة الإجازة، لأني دائماً – حتى بعد هذا التاريخ من فراقي للإخوان في مكتب الخدمات – كنت أشعر بضيق في صدري إذا جلست في بيشاور أكثر من يومين، وفي هذه المرة كنت في الباص.. مثلما كان الشيخ تميم العدناني معنا في الرحلة السابقة أعرف الإخوة العرب – الذين كانوا مثلي قبل شهرين – الطريق والمناطق وأماكن الخضرة وأين يتواجد القبائل..الخ، كما عرفت ذلك من الشيخ تميم، وكان من عادة الشباب العرب أن يقرؤوا القرآن أثناء سفرهم من خلال المصاحف التي كانوا يحملونها حيث أنك لا تجد عربياً إلا ومعه مصحف أو كتيب صغير فيه الأدعية والأذكار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبتلك الصورة التي كانت تظهر عليهم وهم فوق الباص كنا ما إن نصل إلى سوق أو قرية ونحن في طريقنا إلى المعسكر أو إلى أرض أفغانستان إلا ونجد الناس في الخارج يشيرون بأصابعهم ويقولون :(هه اربي مجاهد زند باد) ومعناها يعيش المجاهدون.

وكانت تلك الصور عند الباكستانيين أيام ضياء الحق الرئيس الباكستاني الذي قدم حياته ثمناً لموقفه الثابت والداعم للمجاهدين الأفغان رغم كل التحذيرات والتهديدات التي كان يتلقاها من (الدولة الكبرى) ، ومن أجل ألا يظهر مقتل ضياء الحق مع كبار قادته العسكريين الذين رباهم على يديه وصنعهم على عينه ، والذين يمثلون صمام أمان الدولة الإسلامية في باكستان على أنه مؤامرة وضعوا معهم السفير الأمريكي فوق الطائرة ليقتل معهم وقالوا قضاء وقدر؟!!

وصلنا إلى المعسكر وانتظرت هناك داخل المعسكر ما تبقى من أيام على بدء الدورة الجديدة وكانت الأيام الثلاثة المتبقية التي عشتها في المعسكر رائعة جداً، فقد انفردت بنفسي، وكنت أصعد بمفردي إلى قمة جبل أبو برهان(الذي إن كان حياً أرجو الله أن يحفظه وإن كان قد قتل أرجو الله أن يكتبه من الشهداء) فقد كان قائداً حكيماً وقوياً وصاحب إرادة ، وقد تخرج على يديه الكثيرون من الشباب العرب وكانوا قادة ورعاة ومصلحين ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وقد سمي الجبل – الذي كنت أصعد إلى قمته – باسمه تكريماً له من قبل المجاهدين الأفغان والعرب .

وكنت من قمة هذا الجبل أمد بصري وأنا أنظر إلى الجنوب لأشاهد تلك الجبال البيضاء التي تتميز عن جبال باكستان ، وكان لها خصوصية ، فتلك الجبال يلف ويغطي قممها الجليد طوال السنة ، وكنت أرى تلك الجبال البيضاء وأسمع اهتزازها إلى مكاني في قمة جبل أبو برهان بمعسكر صدى الذي يبعد عن جبال (جاجي – وتري منكل) قرابة ستين كيلو متراً أو تزيد، كنت أشعر بذلك من شدة القصف الذي ينزل فوق رؤوس المجاهدين.. كنت أسمع ذلك الهدير المتواصل للطائرات الروسية وصواريخ الاسكود من خلف تلك

الجبال البيضاء وكأنه رعد متواصل لكثرة ما كانوا يطلقونه من هذه الصواريخ التي يزن الواحد منها (٥.٥ طن، وطوله ١١متراً).

وكان الروس يطلقون هذه الصواريخ بكثرة وكأنها قذيفة مدفع بالنسبة لهم، ومعروف كم يكلف قيمة الصاروخ الواحد، ولكن روسيا التي كانت تمثل قيادة حلف (وارسو) وهي تصب جام غضبها كانت تحاول للمرة الثانية – كما علمت حينها في المعسكر عندما سألت عن سبب هذا القصف العنيف – أن تغلق وتحتل منطقة "جاجي" لأنها منفذ لسبع عشرة ولاية أفغانية تدخل منها القوافل بمئات الخيول والبغال والحمير محملة بالذخائر والسلاح والغذاء إلى بقية الولايات الأفغانية ، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة من المواصلات المتاحة التي لدى الأفغان ليمدوا بها جبهات القتال مقابل ما لدى الاتحاد السوفييتي من قوة وإمكانيات، ولكن رغم ذلك ورغم القصف الشديد والمتواصل الذي كانت روسيا تصبه فوق رؤوس المجاهدين، لدرجة أني وأنا أبعد عنهم أكثر من ستين كيلو متراً كنت أشعر بالخوف مما يجري ومما أسمع من القصف الشديد المتواصل، فكيف بالذي يعيش المعركة؟! إلا أنهم صمدوا صمود الأبطال الشجعان، وتذكرت هنا وأنا فوق قمة جبل أبو برهان، قول الشاعر:

مسلم يا صعاب لن تقهريني　　صارمي قاطع وعزمي حديد

كل بذل إذا العقيدة ريعت　　دون بذل النفوس نذر زهيد

وكنت أتمنى في تلك اللحظة أن أشاركهم بما أستطيع.

حفظت خلال اليومين المتبقيين لبداية الدورة سورة "الأنفال" ونصف سورة "آل عمران" وكانت تلك أول مرة أحفظ ذلك العدد الكبير من الآيات وبفترة وجيزة. وفي اليوم الأول من بدء (دورة الفصائل الخاصة) بدأنا بالدراسة النظرية من خلال معلم عراقي عسكري كان قد هرب من النظام العراقي لأن جريمته أنه

ينتمي إلى (الحركة لإسلامية)!! وأشرف على هذه الدورة الأولى في تاريخ معسكر صدى ودرب فيها أيضاً أبو برهان نفسه (صاحب الشام)، والذي كان له الفضل العظيم – بعد الله – لحصولنا على التدريبات الممتازة والنوعية التي أعانتنا كثيراً داخل أرض أفغانستان.. وامتدت فترة الدورة شهرين كاملين ، ولأن أغلب من كان مشاركاً فيها من الشباب القدامى وقد أكرمهم الله بمشاركة إخوانهم المجاهدين الأفغان وشاركوا في عمليات عديدة.. فقد تعرفت عليهم جيداً ، وكان شوقي وتلهفي للجهاد والمجاهدين يزداد، وكنت أتمنى أن أطير في تلك اللحظة وأنا أسمعهم يتحدثون عن البطولات والمواقف الخارقة للعادة من قبل الشعب العظيم(شعب أفغانستان)، ولأن فترة الدورة طالت فقد شعرت بنوع من الملل ، خصوصاً وأنا أسمع كل يوم وكل ساعة هدير القصف الذي يكاد لا يهدأ على طول منطقة "جاجي" وقبل الانتهاء من الدورة تم اختبارنا اختبارات أولية من خلال الدروس النظرية، ثم اختبار تحريري للمواد العملية والهندسية واستمرت فترة الاختبار أربعة أيام ، أما بقية التدريبات فكان معظمها عملياً وقد كان يهيئ لإعادة تنفيذها على أرض الواقع بنفسه مع مساعديه العسكريين ، واختار أمير المعسكر منطقة تبعد عن كلية الشيخ سياف مسافة تقدر بعشرة كيلو مترات ، وكانت عبارة عن قرى كان يسكنها المهاجرون الأفغان من قبل ، ولأنها كانت بعيدة عن الطريق ولم يكن فيها ماء فقد تركت من قبل المهاجرين الأفغان ، وكان سبب اختيار أبي برهان لذلك المكان أنه يشبه مناطق وقرى أفغانستان كما أن له ميزة أخرى وهو أنه بعيد عن المتطفلين!!

تحرك هو وفريقه والذي يعمل معه ورتب المكان (أرض المناورة) من زرع العبوات المتفجرة وعمل الكمائن، وحفر خنادق للكمائن، وقسم المنطقة إلى نصفين : المنطقة (١) التي تمثل مركز العدو وقد حصن بإمكانيات شبيهة بما يتحصن به

الروس والشيوعيوين الأفغان ، والمنطقة (٢) التي تمثل مركز انطلاق الهجوم للمجاهدين ، وأتم عمله على أكمل وجه.

ثم بعد ذلك رسموا مجسماً على الأرض من خلال الطين بمنطقة العمليات بدقة وتم دراستها من قبل المسئولين المعنيين بهذه المناورة التي سيعلن من خلالها وبها نهاية أول دورة للفصائل الخاصة، وستكون أيضاً عبارة عن حفل تخرج يحضره الشيخ سياف وقيادات عسكرية بارزة من الكلية التابعة له، وعدد من المشايخ العرب وعلى رأسهم الدكتور/ عبد الله عزام.

أما المعلم الأول وصاحب المشروع فأسأل الله أن يجزيه خير الجزاء ولا أستطيع ذكر اسمه .

وبعد أن تدارسوا برنامج عمل التخرج استعدينا نحن بقيادة أبي الشهيد الفلسطيني، وصباح يوم التخرج تحركنا مباشرة إلى مخزن السلاح لاستلام المهمات لكل مجموعة حيث تم تقسيمنا إلى ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : مجموعة الرصد والاستطلاع وهي المتخصصة (بالديمغرافيا) الخرائط والتي تنقل كل ما تشاهده في أرض العدو من خلال الاتصال اللاسلكي والزاوية العسكرية للعاملين على السلاح الثقيل + مجموعة الكمائن .

المجموعة الثانية : وتتكون من عدد قليل من الأفراد ومهمتها نزع آخر ما تبقى من ألغام أو حواجز تكون قد تركتها متعمدة (مجموعة الرصد الأولى) حتى لا يحس بها العدو ، وعمل هذه المجموعة القضاء على من يتمترسون خلف الأسلحة الثقيلة وإسكاتها التي تمنع المجموعات من التقدم ، وسلاح هذه المجموعة السلاح الشخصي والخناجر .

المجموعة الثالثة : هي مجموعة الاقتحام أو (مجموعة التعرض) كما كان يسميها الأفغان ، وسلاح هذه المجموعة هو الـ(آر بي جي سبعة) ورشاش بيكا ومدفع اثنان وثمانون إن وجد لضرب قلعة قوية لم يكن السلاح الثقيل قد أجهز عليها ، ويكون دور هذا السلاح تكملة ما عجز عنه السلاح الآخر الذي يستعمل عن بعد ويوجه من خلال الراصد.. أما السلاح الشخصي للمجموعة الثالثة فهو (الكلاشنكوف) (مصري الصنع؟؟!!) وثلاثة مخازن ذخيرة مع إضافة مخزنين يُربطان على الكلاشنكوف نفسه وأربع قنابل يدوية وخنجر.. كان هذا هو سلاحنا ولا يزيد.

ويتواصل أمراء هذه المجموعات فيما بينهم عبر اللاسلكي، ويتم التحرك والعمل من خلال فهمهم للعملية والتخطيط لها والتعاون الجيد مع ما يستخدم على أرض المعركة ، وبعد أن تصل مجموعة الاقتحام إلى قرب نقطة للعدو بحيث لا يستطيع العدو أن يصيبها بأسلحته الثقيلة ، وفي نفس الوقت تكون هذه المجموعة هي الأولى من أجل مفاجأة العدو عندما يكون مشغولاً ويتبادل مع الطرف الآخر القتال بالسلاح الثقيل ، ويحدد القائد الأعلى الوقت لتقديم المجموعة التي تقتحم الخطوط الأولى للعدو فهو الذي يقدر ذلك من خلال مسرح العمليات عندما يتبين أن أخطر ما بيد العدو قد دمر أو أعطب بحسب تقديراته العامة للوضع بشكل عام ، يصدر أوامره إلى قيادة الفصائل التي تنفذ مهماتها حسب الواقع الذي أمامها وحسب اختصاص كل مجموعة تؤدي واجبها على أكمل وجه، ثم تبلغ القائد العام بأنها قد نفذت ما طلب منها.

وقبل أن تنطلق المعركة نصلي ركعتين تسمى صلاة الخوف ونصلي فرادى و نحن على أهبة الاستعداد للقاء العدو، ذلك أن لهاتين الركعتين دوراً

عجيباً بتثبيت الأقدام والصبر عند لقاء العدو، والثبات أمامه، وتسديد الرمية حتى تكون الرمية بالرأس.

ثم ينادي المنادي بالتقدم إلى المنطقة المحددة لنا وهي آخر نقطة قد تم كشفها وتنظيفها من الألغام الفردية ، والألغام التي تربط من خلال سلك دقيق جداً لا يكاد يرى بسهولة، وفي هذه اللحظة يبدأ السلاح الثقيل بضرب المواقع المهمة والحساسة للعدو بدقة متناهية ، وأتذكر هنا أن الأخ (صاحب الشام) كان يستطيع أن يوزن المدفع "٧٥ملم" بدون زاوية عسكرية، فقط من خلال النظر إلى الموقع ثم يقول للأخ الآخر أن يوجه يميناً أو يساراً أو أسفل ، وعندما يشعر من خلال حدسة يقول له توقف . ثم توضع الزاوية العسكرية فوق المدفع أو أي سلاح آخر ، وتكون النتيجة مذهلة ، وقد شاهدت ذلك بنفسي .

بعد ذلك تتقدم مجموعة التعرض أو الاقتحام، وقد نصبت لها المتفجرات التي كانت تفجر بطريقة معينة من خلال القيادة التي تقود المعركة والتي تراقبها من مكان مخصص لها ، وكانوا يشعلون بعض الحرائق وسط الخنادق التي ينبغي أن نتجاوزها لنصل إلى أول نسق للعدو.. وكانت توجد مجموعة صغيرة تمثل دور العدو كانت تطلق نيران أسلحتها إلى السماء.. وعند القضاء على أول نسق للعدو يتم سحب من أسر إلى خلف المعركة من خلال مجموعة مهمتها سحب الأسرى والشهداء والمصابين ، وتسمى هذه المجموعة "مجموعة الإخلاء" ، وبنفس الطريقة يتم اقتحام باقي معسكر العدو ويتم ربط الأسرى إن وجدوا للتأكد تماماً من أن المعسكر أو الموقع قد صفي تماماً، ثم يصعد أحد الإخوة ليكبر وكأنه يؤذن للصلاة ، ثم يوضع علم ليرفرف فوق هذا المكان المحرر ، ثم ننسحب بأمر من القيادة ونعود إلى المكان الذي انطلقنا منه ونحن نردد نشيد أذكر مقطعاً منه:

لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحمى

لبيك واجعل من جماجمنا لعزك سلماً

بعد ذلك عدنا إلى المعسكر وعاد معنا الضيوف الذين كانوا يشاهدون المناورة وحفل التخرج ، وكانت إدارة المعسكر قد أعدت من قبل لمهرجان صغير تخللته كلمات من قبل قيادة المعسكر وكلمة للمتخرجين وقصيدة شعرية لشاعر يمني كان معروفاً لدى الكثير من الإخوة العرب وهو الذي عاد بعد سنتين من هذه المناسبة من شمال أفغانستان بتقرير غاية بالخطورة عما يدور في (بدخشان – وتخار) وعن (أحمد شاه مسعود بالذات!!) بعد ذلك تقدم الشيخ/ عبد الله عزام وألقى كلمة ذرفت لها الدموع ووجلت منها القلوب وكانت كلمته عبارة عن برنامج عمل متكامل.

ومما قاله الشيخ: "إنكم هنا بوجودكم القليل بنظركم الكثير في نظر أعدائكم الذين بدأوا يخشون تواجدكم ويخشون من هذا التجمع العالمي.. إن الجهاد لم يعد خاصاً بالأفغان ، ونحن من خلال تزايد أعداد أنصار هذا الجهاد من كل أنحاء العالم العربي والإسلامي نتطلع من خلال هذه النواة الأولى وتخرج هذه الدفعة المباركة إلى أرض فلسطين التي نرجو الله بعد أن تقام دولة الإسلام في أفغانستان أن تفتح أرض فلسطين على أيدينا ويرزقنا الله الشهادة في بيت المقدس" ، ومما قاله أيضاً : إن هذا الجهاد المبارك الذي يقوده أبناء الحركة الإسلامية (الإخوان المسلمون) بقيادة : سياف – حكمتيار – رباني – ويونس خالص – (وهذا الأخير كان عالماً تقياً ولا يريد شيئاً من حطام الدنيا ولم يكن يعنيه حسابات الساسة سواء كانوا أفغاناً أو عرباً أو غير ذلك) سوف يستمر.

إن هذه المسيرة التي يقودها هؤلاء الذين نطمئن إليهم وقد اعتمدهم الشعب الأفغاني البطل ، وكان اعتماد الشعب لهم عبر هذه الدماء والأشلاء التي

تتطاير فوق جبال أفغانستان ، إنها طريقة الأفغان في بيعتهم لقيادتهم، إنهم سوف يستمرون وإن هذا الجهاد قد أعاد إلى قلوبنا حقيقة التوكل على الله وأنه وحده بيده الرزق والأجل والحياة والموت، وقد تحرر الشعب الأفغاني من كل حسابات أهل الأرض المادية ، ولذلك فها أنتم ترون استمرار هذه المسيرة المباركة وترون هذا الشعب وهو يكبد يومياً أقوى قوة عسكرية على وجه الأرض وأشرس جيش للاتحاد السوفييتي خسائر فادحة.. إنكم تسمعون من هنا كيف أن جبال أفغانستان تهتز وتحترق كل يوم من قبل دولة عظمى تقود (حلف وارسو)، إنها تريد أن تغلق هذا المنفذ الذي أمامكم في (جاجي) وتقصفه يومياً بأسلحتها البرية والجوية ولكنني مطمئن لأن الله معنا وقد قال في كتابه : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ، ثم تحدث عن التضييق الذي بدأ يمارس على قادة الجهاد ولم يصرح ممن التضييق ولكنه أشار إلى ذلك من بعيد (هذا الإحساس كان مبكراً لدى الشيخ وربما أنه كان يعلم الكثير ولم يشأ أن يطلعنا عليه خشية على معنوياتنا ونفسياتنا) كان حديث الشيخ عبارة عن برنامج حياة كامل .

وبعد أن أنهى الشيخ عبد الله عزام كلمته البليغة والجامعة، تقدم الشيخ سياف وألقى كلمة طيبة أثنى فيها على دور الشباب العربي في الجهاد ، وتحدث عن واقع المجاهدين بشكل عام وعن الفتوحات التي تتم بفضل الله ونصره داخل أفغانستان ، ثم دعا للمجاهدين واختتم الحفل.

وصباح أول يوم من التخرج عدتُ مع الشباب إلى بيشاور وجلست فيها أسبوعاً أراجع نفسي مع الشباب وأصحاب الخبرات الذين لهم معرفة جيدة في أفغانستان إلى أي جبهة يمكن أن تذهب ونفيد المجاهدين من الذي تعلمناه في معسكر صدى.

الاستعداد لدخول أفغانستان
بعد فترة التدريب

لم أشأ أن أنتظر كثيراً في بيشاور وقد كان معي أخ سعودي من ضمن الذين اشتركوا معنا في الدورة الأخيرة واسمه (أبو عوف الزهراني)، وكان لهذا الأخ صفات طيبة أعجبتني ، أعني بالصفات الطيبة أن إخوتنا السعوديين كان يغلب عليهم التشدد مع الآخرين وإن عدم العمل ببعض السنن قد يحدد منك موقفاً ، والحق أن مثل هؤلاء قليل ، فقلت له ونحن في مكتب الخدمات: يا أبا عوف قد ننتظر هنا كثيراً.. فلماذا لا نذهب إلى قرية (بابي) (وهذه القرية كانت أكبر قرية للمهاجرين الأفغان وهي خارج مدينة بيشاور وفيها مضافة الشيخ سياف ويونس خالص وحكمتيار حيث كانوا يتواجدون في تلك المنطقة ليكونوا قريبين من رعاياهم المهاجرين) ومن تلك القرية (بابي) نستطيع أن نتدبر أمورنا عن طريق مضافة الشيخ سياف ، وقد علمت أن الكثير من قافلات المجاهدين تذهب من هناك.

قال لي: أنا موافق.. فلنتوكل على الله.

وكانت أول مرة نخرج بمفردنا من دون أفغان أو أدلة يدلونا على الطريق، وقد سألنا أخاً أفغانياً من الذين كانوا يعملون في مكتب الخدمات : كيف نصل إلى قرية "بابي"؟ وسألناه أيضاً : كيف نصل إلى سوق اسمه "أفغان كالوني"؟ وهذا السوق فيه العشرات من الدكاكين الصغيرة التي تبيع كل المستلزمات العسكرية التي كانت تصرف للتنظيمات الأفغانية وتباع في تلك الأسواق من قبل سماسرة الجهاد!!

انطلقت أنا وأخي أبو عوف ومعنا بعض الشباب الذين أرادوا الخروج معنا للتعرف على السوق وشراء حاجياتهم ، وقبل أن نخرج طلبت من مسئول الأمانات في مكتب الخدمات أن يأتيني بالظرف الذي وضع به جواز سفري وبعض المال الذي كان معي من مالي الخاص وكان عشرة آلاف ريال سعودي ومائتين وكذا دولار.. وعندما استلمت الظرف الخاص بي أردت أن أخرج منه بعض المال، فرفض الأخ "أبو عوف" أن أخرج أي مبلغ وقال: من الآن وصاعداً أنا سأتكفل بك فإنني أريد أن أكسب أجر "من جهز غازياً فكأنما غزى" كما في الحديث، وإني أريد أن أغزو بك فلا تحرمني الأجر، وأنت تعلم أننا هنا إخوة ولا فرق بين مالي ومالك. احترمت إرادته وقلت له: إنكم أيها السعوديون ، تريدون دائماً الكسب ضعفين. بعد ذلك استأذنا من الأخ المسئول عن أمن المضافة، لأننا نريد الذهاب إلى السوق وكان عددنا خمسة، وخرجنا من المضافة واستأجرنا عربة خيل أقلتنا إلى الشارع الرئيسي (أفداراورد) ومن هناك ركبنا (الفلا نكوش) ونزلنا وسط السوق واسمه (خيبر بازار) وسألنا من هناك كيف نصل إلى سوق (أفغان كالوني)؟

ولأننا عرب مميزون فقد كان الباكستانيون ينظرون إلى جيوبنا المليئة بالدولارات والريالات السعودية!!، وكنا دائماً ما نسمع ونحن نسير في الشارع جملة تكاد تكون متكررة(أبا اربي سيب) ومعناها (أخي العربي) وكان سائقو "الركشة" وعربات الخيول يعلمون أماكن تردد العرب وماذا يريدون؟ استأجرنا عربة خيل لأنها رخيصة حيث لم نكن نريد أن نظهر أمام أولئك القوم أننا جئنا إلى هنا لنصرف المال .

ووصلنا إلى السوق – الذي ذكرته سابقاً – واشترينا كل ما كان يلزمنا من المستلزمات العسكرية مثل الجاكتات العسكرية الملونة، وأكياس النوم (بسترة) كما كانت تسمى عند الأفغان.. وكان هذا الكيس أو البسترة.. يقينا

كثيراً شر صقيع برد أفغانستان ، وكانت تلك المصنوعات من الأقمشة والبدلات وغيرها صناعة أمريكية وأوروبية ، وكانت ما إن تصل جمارك مطار بيشاور أو كراتشي حتى يستلمها ويتصرف بها من كانوا ينتمون إلى بعض تشكيلات الجهاد الأفغاني ، وهم الأربعة من السبعة (العدد الكلي لما كان يعرف بالتنظيمات الأفغانية) ولا أريد هنا أن أسمّي فهم معروفون لمن كان يخبر الساحة الأفغانية.

اشترينا حاجاتنا الضرورية التي يستفاد منها داخل أرض الجهاد حتى أن الأخ أبا عوف – لأنه مقتدر مادياً– كان يشتري ثلاثاً من كل قطعة لكل واحد منا.

بعد ذلك عدنا إلى مضافة مكتب الخدمات واستعدينا من هناك للذهاب مباشرة إلى قرية "بابي" ، ثم توجهنا إلى بابي قرية الشيخ سياف ، كما كان يطلق عليها من قبل محبي الشيخ مع أنها كبرى معسكرات المهاجرين للتنظيمات الثلاثة التي كانت تقود الجهاد الأفغاني، ووصلنا إلى وسط قرية "بابي"، وعندما أخبرنا سائق الباص أننا لا نعرف مكان مضافة الشيخ سياف – ولأنهم يحبون العرب – فقد تفضل السائق وأوصلنا إلى قرب منزل الشيخ سياف وأشار بيده إلى المضافة وقال: تفضلوا أيها العرب ، فإنكم مجاهدون صادقون ونحب أن نخدمكم..، وكان أمام منزل الشيخ سياف أكبر مسجد ربما في قرية بابي كلها ، ونزلنا في المضافة فرحبوا بنا أجمل ترحيب.

وقلنا للأخ عبد اللطيف الذي كان مسئولاً على المضافة: إننا نريد أن ندخل مع أقرب قافلة ستذهب إلى مديرية (بغمان) ووعدنا أنه سيجتهد بتلبية طلبنا هذا.. وكان أجمل ما كنت أشاهده في قرية بابي هو في لحظة صلاة الفجر في مسجد القرية حيث كان عدد المصلين بالآلاف من الشباب والشيوخ،

وكانت صلاة الفجر عندهم مثل صلاة الجمعة عندنا هنا في اليمن ، قرية بابي التي أغلب بيوتها من الطين وليس فيها شارع مسفلت والكهرباء معدومة في كثير من بيوت المهاجرين والصرف الصحي لا وجود له ، على الرغم من كل ذلك يعلم الله أني شعرت بالطمأنينة وسعادة وسكينة عجيبة ، هل تعلمون أن هذه القرية (البائسة) قد زارها الرئيس الأمريكي (نيكسون) واسألوا الباكستان الذين رافقوه بالزيارة .

أريد أن أسجل ملاحظة مهمة ومن الإنصاف أن تتذكروا .. هي أن المهاجرين الأفغان وصل عددهم فوق أربعة ملايين أفغاني داخل أرض باكستان ، اسألوا كم سجلت حالات الجريمة بكل أشكالها وخصوصاً الجرائم اللا أخلاقية والسرقة والقتل ، إذا علمتم أنها نسبة لا تكاد تذكر ، عندها سنعلم عن أي شعب نتكلم !!؟

حلقات الذكر والأدعية النبوية

التفت لأرى المصلين بعد صلاتهم وقد تجمعوا في عدة حلقات كل حسب حصته التي يدرسها ويتعلمها من قبل القراء ، كما يسميهم الأفغان (قاري سيب) ، ومن قبل العلماء (المولوي سيب) كنت أرى المسجد ممتلئاً وكأني داخل مصنع للصناعات ، أناس لا تسمع إلا أصواتهم كأزيز النحل وهم يقرؤون القرآن ويتلونه على مسامع مشايخهم، عند معرفتي بالشعب الأفغاني تبين لي أنه شعب متدين بالفطرة ، ويحب دينه ، لذلك لا عجب من أن يقدم مليون ونصف مليون شهيد ، وثمانمائة ألف آخرون بترت أطرافهم من جراء الألغام التي زرعها الجيش الروسي، وقد افتخر أحد قادة الروس قائلاً: إنهم تركوا ما يقتل الشعب الأفغاني لعشرين سنة قادمة من خلال الألغام!! وأصبح الثمانمائة ألف الذين بترت أطرافهم والمشلولون عن الحركة مثل أي خردة أو أجزاء للتشليح ، هذه هي الحضارة الغربية التي يبشرون بها العالم!!

لقد علمت من خلال تلك المناظر التي شاهدتها في مسجد قرية بابي أن هذه التضحيات وهذا الصمود والثبات أمام الآلة الروسية، وهجرة أربعة ملايين ونصف المليون إلى أراضي باكستان – والتي كانت أكبر حالة هجرة في هذا القرن– كل ذلك لم يكن من أجل قطعة أرض، أو لمجرد احتلال روسيا لبلدهم ، وإنما كان من أجل دينهم وعقيدتهم .

إنني هنا أتذكر ما قرأته وسمعته من فم الأستاذ سياف وحكمتيار كيف استقبل الرئيس الأمريكي السابق (ريتشارد نيكسون) عندما أراد أن يطّلع عن قرب عما يجري في أفغانستان ، وقام بزيارة لمعسكر (ناصر باغ)، وكيف أنه عندما أراد

أن يسلم على شيخ أفغاني ، قال له الشيخ : إنني لا أسلم عليك لأنك كافر ونجس!، وأحرج الوفد الباكستاني الذي كان مع هذا الرئيس الأمريكي.

لم يجرؤ المترجمون الذين كانوا مع الرئيس الأمريكي أن يترجموا ما قاله هذا الشيخ الأفغاني الذي لا يملك داخل جيبه قيمة خبز له ولأولاده ومع ذلك امتنع بإباء أن يسلم على الرئيس الأمريكي (نيكسون)!!.

ثم تقدم إليه شيخ آخر ، فأمسك هذا الشيخ بيد (نيكسون) وقال له: لماذا أعطيتم فلسطين لليهود ؟!!

وقد سمعت هذه الرواية من فم أمير الحزب الإسلامي" قلب الدين حكمتيار" عندما كنا معه في (معسكر الفتح)، وكيف أنه أيضاً – أي حكمتيار– رفض مقابلة الرئيس الأمريكي (ريغان) عندما زار حكمتيار نيويورك لحضور جلسة للأمم المتحدة متعلقة بالقضية الأفغانية ، وقد سمعت حكمتيار يتحدث عن زيارته لأمريكا ، فقال : لقد مكث السفير الباكستاني إحدى عشرة ساعة يريد إقناعي بمقابلة ريغان رغم أن ضياء الحق – رحمه الله – كان ينتظرني مع ريغان فرفضت مقابلته ، فرد السفير عليّ قائلاً : إن ستين ملكاً ورئيساً على لائحة الرئيس الأمريكي وقد أجل كل هؤلاء ويريد غداً مقابلتك فترفض؟!! ولم ييأس الرئيس (ريغان) فأرسل ابنته لتقابل بنفسها حكمتيار وتقول له: إن والدي ينتظرك في البيت الأبيض الساعة العاشرة والنصف!! سمعت كل هذا من هذا الرجل الذي كانت أمريكا تعلم يقيناً أنه خطر عليها وأنه أصولي متشدد!، لذلك رأينا كيف أُغلقت مكاتبه داخل السعودية وباكستان وفجروا له أكبر مخزن للسلاح في إسلام أباد وكيف تم تصفية قادته في الشمال.!!

لا عجب إذاً ولا غرابة من أن تدخل أمريكا بنفسها ومعها بريطانيا وتعمل انقلاباً باسم محاربة الإرهاب ، لكنها للأسف لم تقرأ تاريخ هذا الشعب الأفغاني

العظيم إنه غرور القوة الفرعونية في هذا القرن ، وصدق الله القائل: (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

لقد كنت كلما اقتربت من هؤلاء الأفغان ازددت معرفة بهم وثقه بإمكانياتهم وأنهم ربما قد يغيرون الكثير من الموازين في هذا العالم بجهادهم.!!

وفي ليلة متأخرة طلب منا الأفغان أن نستعد لأننا سنتحرك بعد صلاة الفجر مباشرة ، فقد وصلتهم رسالة من (جاجي) تقول: إن الروس قد يصلون إلى معسكر "العرين" وهو آخر نقطة للمجاهدين وهذا المعسكر تابع للشيخ سياف ، وعلمنا أن الشيخ سياف وحكمتيار قد توجها إلى قرب الحدود حيث معسكراتهم وقياداتهم العسكرية هناك في (معسكر الفتح) التابع لحكمتيار ، حمدت الله أنني سمعت هذا الخبر من مسئول كبير في الاتحاد الإسلامي – وهو اسم الحزب الذي يقوده الشيخ سياف – ولم أتمكن من مواصلة النوم فقلت لأخي أبي عوف الزهراني وأخ آخر من السعودية، كان قد وصل من مضافة "مكتب الخدمات" واسمه"أبو تراب": بدلاً من أن نظل هكذا على ظهورنا في الفراش ولم يبق لأذان الفجر سوى ساعة لنقم ونصلي ما استطعنا وندعو الله لإخواننا في "جاجي" أن يثبتهم وينصرهم على الغزاة، وإني أظن أن الأفغان قد أعلنوا حالة الاستنفار ما دام أن حكمتيار وسياف قد تحركا إلى مواقعهما في الليل ، وأنا أعلم خطورة السفر في الليل خصوصاً في تلك المناطق بعد مدينة (تل) حتى "ترى مناكل" أن ذلك يعني أن الأمر خطير.. وأبشر يا أبا عوف ، لعل الله يكرمنا بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة في سبيله مقبلين على العدو غير مدبرين.. ثم نهضنا وتوضأنا وصلينا ما شاء الله أن نصلي ودعوناه بقلب خالص كما ينبغي ، وقد كنت أشعر في تلك الأيام عندما أرفع يدي إلى السماء أن الله يستجيب لي فإن الذي أخرجنا من ديارنا وأموالنا هو تلبية النداء القائل :

(وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ)، وإنني ما أتيت إلى هذه البلاد بحثاً عن مال لأبي أو أمي ورثته منهما ، ولم أخرج بتحريض مباشر من أحد أو طرف أو تنظيم أو جماعة أو .....الخ ، (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) و (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) ..

من أجل ذلك كله كنت أشعر أن الله يسمعني وهو يسمع – للصالح والطالح والمحسن والمسيء– لكن هنا كان يسمع رجاء وتضرع واحد من عباده ، أحسب نفسي أنني خرجت لنصرة أولئك المستضعفين لا لهدف آخر ، لذلك كنت أدعو الله وأنا مطمئن بعكس هذه الأيام ، وعندما أذن لصلاة الفجر صلينا داخل المضافة ولم نصل في المسجد الذي لا يبعد عن المضافة سوى أمتار معدودة لسبب خاص بالأفغان ، ثم انطلقنا مباشرة بعد صلاة الفجر من داخل حوش كبير حيث كان قد تم طوال الليل تجهيز عدد من السيارات والشاحنات وكل ما يحتاجون إليه وما طلبوه من المعسكر .

ولم تطلع الشمس حتى كنا قد قطعنا ثلث مسافة الطريق ووصلنا قرب كوهات، وكان عدد السيارات والشاحنات لا بأس به، ولأهمية المواكب لم نجد أحداً يوقفنا، ربما كان الأفغان قد أخذوا تصاريح أو أن تلك النقاط قد بلغت عن هذه القافلة، لأننا في تلك الأيام كنا نعيش علاقة ممتازة مع الجيش الباكستاني وبالضرورة مع الشعب أيضاً أيام ضياء الحق (رحمه الله)..، وصلنا بعد رحلة ميمونة ولم يكدر صفوها شيء، وكنا ننشد طوال الطريق أناشيد حماسية ونتلو القرآن ، وكنا جميعاً نشعر بسعادة غامرة وأنا بالذات لأنني سأدخل أخيراً إلى أرض الجهاد بعد قرابة ستة أشهر وأنا انتظر المعركة من بعيد ، أخيراً لم يبق بيني وبين المعسكر سوى تلك السائلة الطويلة التي تعتبر الحدود الفاصلة بين باكستان وأفغانستان.. كان يوماً ماطراً جداً، وعندما اجتزنا نصف

تلك السائلة، وتجاوزنا آخر نقطة للجيش الباكستاني سجلت هنا أن هذا أول يوم جديد في حياتي!!

وبعد وصولنا إلى أول سلسلة جبال (جاجي) توقفت القافلة هناك وكانت تلك المنطقة مليئة بأشجار الصنوبر وشعرت بتميز أرض أفغانستان .

خرجنا من فوق الشاحنة التي كانت مليئة بالذخيرة والسلاح وتوجهنا إلى بيت من طين مكون من طابقين وكان من داخله جميلاً لأن الأفغان بطبيعتهم يمتلكون حساً مرهفاً وذوقاً رفيعاً، كان ذلك الوقت بعد الظهر.. ولم يكن أحد منا يحرص أو يسأل على الوقت، إذ كنا نريد أن نصل إلى "جاجي" بأي وسيلة كانت، ثم صعد أخ أفغاني كريم إلى الطابق الثاني وهو عبارة عن مجلس للضيوف القادمين من أفغانستان وباكستان ، يتوسط المجلس اثنان من البراميل يسمونها "بخاري"، وظيفة هذا " البخاري" وهذا البرميل تدفئة الماء لعمل الشاي وللوضوء وتدفئة المكان أيضاً ووقوده من الخشب .

استرحنا لحظة ثم قدموا لنا طعام الغداء وكان عبارة عن أرز وإناء آخر بداخله حبتان من البطاطا مملوءة مرقاً وزيتاً ، كنا حذرين من أكل هذا المرق كي لا نصاب بالإسهال الشديد ولكن الجوع ولذة الخبز الأفغاني المميز جعلنا نأكل معهم .

استمر جلوسنا بهذا المكان حتى المساء ، الذي شَدَّ انتباهي هنا أني لم أسمع دوي الانفجارات التي كانت تهتز لها الأرض عندما كنت في معسكر صدى، وسألنا الإخوة الأفغان: هل انتهت المعركة؟

قالوا لنا: لقد أكرمنا الله اليوم منذ الصباح بأمطار شديدة وضباب وغيم لا تستطيع أن ترى على بعد أمتار قليلة ، وهذا الذي منع الطيران والقصف

الأرضي المدفعي والصاروخي، وبعد ساعة أو تزيد عن هذا الحديث خرجت أنا وأبو عوف وأبو تراب إلى سطح المجلس نريد أن نستمتع بهواء ذلك المكان الجميل وقد مللنا من شدة حرارة المجلس ، وكانت تلك الليلة قمرية وجميلة والجو صافياً بعد يوم ممطر، وكان مثل هذا الجو الصافي يخيف الأفغان لأنهم يعلمون أن الطيران الروسي لا يأتي إليهم إلا في مثل هذا الجو ، وقبل أن نشعر بشدة البرد حيث لم يكن قد مضى على خروجنا من المجلس سوى وقت قليل أردت أن أقول لهم: نريد أن ندخل ونبحث عن مسئول الحركة ليخبرنا متى سنتوجه إلى المكان الذي طلبنا منهم أن يوصلونا إليه ، ولم أكد انتهى من هذا الخبر، حتى سمعنا الطيران والأفغان ينادون بعضهم أن يطفئوا الأنوار والفوانيس وكل شيء، ولم يكد ينتهي نداء الأفغان لبعضهم حتى شعرت – ولأول مرة – أن الأرض تهتز من تحت قدمي فقد نزلت قذيفتان وسط الطريق المؤدي إلى معسكر (العرين) الذي يبعد عنا مسافة ثلث ساعة صعوداً بالسيارات، (وكانت الطريق صعبة جداً ووعرة قبل أن يضع أبو عبد الله (أسامة بن لادن) مشروعه بمنطقة (جاجي) ذلك أنه وبعد معركة جاجي الأخيرة وللأمانة فإن الرجل اشتغل بسخاء شديد حتى أنني عندما عدت بعد فترة إلى منطقة جاجي لم أصدق أن هذه المنطقة هي التي رأيتها أول ما نزلت فيها) .

جاجي والانتقال إلى معسكر العرين

لم يكف الطيران من إنزال قنابله فوق المجاهدين حتى ساعة متأخرة من الليل، كنت قد تحدثت مع مسئول معسكر الاتحاد الإسلامى راجياً أن يبحث لنا عن وسيلة لإيصالنا إلى أعلى المنطقة "نقطة العرين" والتي كان فيها معسكرات المجاهدين، لأن المكان الذي كنا فيه كان بعيداً عن المعركة حيث كان أغلبه عبارة عن مخازن متأخرة عن أرض المعركة ، وكانت الشاحنات التي تصل من بيشاور وغيرها تحط حمولتها في تلك المخازن في بطون الجبال والغابات الشاسعة ، وكانت نقطة العرين النسق الثاني للمجاهدين ، أما مقدمة المجاهدين أو جبهتهم الأولى التي لا تبعد كثيراً عن القوات الروسية (حوالي ثلاثة كيلو مترات أو تزيد قليلاً) فكانت منطقة (المأسدة) والتي سميت بعد معركة جاجي وانتصار المجاهدين فيها (مأسدة الأنصار) لأن المجاهدين العرب كان لهم الدور العظيم والبارز – بعد تثبيت الله لهم وتسديد رميتهم – في صد وإلحاق الهزيمة بالروس.

ألححت على هذا الأخ المسئول الأفغاني ليبحث لنا بأي طريقة عن وسيلة توصلنا إلى منطقة العرين ، فقال لي بعد شدة الإلحاح إنه تلقى مكالمة بأن سيارة قد تحركت من مستوصف العرين لنقل عدد من المصابين الذين إصابتهم خطيرة وهي ستنزل قريباً من هنا ، وعندما تصل هذه السيارة سننقل المصابين إلى سيارة أخرى من سيارات الإسعاف داخل الكهوف المجهزة تجهيزاً جيداً بأغراض طبية ، ونستطيع أن ننقلكم إلى داخل الجبهة عبر تلك السيارة التي ستعود إلى مكانها في العرين، وشكرته بعد ذلك وقلت له: يا أخي ، أرجو أن تسامحني لأنك تعلم

أننا نحن العرب لا نستطيع الصبر مثلكم!! وقد مضى علي أكثر من ستة أشهر، وأريد أن أدخل الجبهة بأية طريقة لأشارك إخواني الأفغان القتال في سبيل الله.

لم يمضِ وقت طويل .. وصلت السيارة ووقفت في طرف المعسكر حيث سينقل الجرحى منها إلى سيارة الإسعاف المخصصة، ليتم نقلهم بعد ذلك إلى بيشاور (١٧٠كم إلى هناك) وبعد الانتهاء من عملهم أخذنا أمتعتنا وحقائبنا وصعدنا فوق السيارة ، وكانت من نوع (تويوتا لاندكروزر) مكشوفة ، ثم عادت بنا السيارة إلى الطريق ، ومن شدة البرد والخوف ووعورة الطريق حيث كنت أرتفع من مكاني بقوة السيارة، وكان القمر قد بدأ أيضاً يختفي ، شعرت بشيء من الضيق وكثير من الخوف، وكان الطيران لا يزال يقذف بحممه فوق الجبال ، ولم يكن قد مضى على انطلاقنا سوى دقائق معدودة ، والسائق يشق طريقه بسرعة ويخترق الغابات ، والطريق ضيقة جداً ، وكلما تعمقنا في الغابة كلما اشتد الظلام واختفى ضوء القمر ، ومن شدة السرعة وبرودة الجو والثلج أيضاً على طرفي الطريق، فقد انزلقت من فوق حقيبتي التي أجلس عليها فوق السيارة وإذا بي أحس ببلل تحتي فمددت يدي إلى تلك الحفرة التي امتلأت بهذا السائل ، وتمعنت به وإذا هو دم من دماء الجرحى الذين نقلوا للتو، ودققت بصري بحوض السيارة وإذا بالحوض كله مليء بالدماء وكأنه نقل مجموعة من أغنام مذبوحة!!

ذلك المنظر زاد من خوفي ، وكنت أشعر بقشعريرة في جسدي كلما أعدت التفكير والنظر إلى المكان الذي أجلس فيه!! وبالكاد وصلنا إلى معسكر العرين ، بعد رحلة دامت قرابة نصف ساعة كانت مليئة بالقلق والخوف، وكنت أتمنى لو تركنا نمشي على أقدامنا بدلاً من الركوب في السيارة ، على الأقل سأكون مطمئناً وأنا أمشي على قدمي وأسبح الله وأذكره كثيراً ؛ لأن السيارة

جعلتني أفكر بالطيران وكأن الطيران قد اكتشفنا ويريد قصف السيارة ، ومن خلال تجربتي الجهادية كان أكبر علاج لتلك الحالات التي ربما قد تحدد مصير المقاتل إما أن يثبت أو ينسحب هو الوصفة العلاجية الربانية التي قال الله فيها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) وقد كانت هذه الوصفة علاجاً شافياً وطارداً للشيطان ووساوسه .

وقد جاءت تلك التجربة بعد فترة من قراءة القرآن ومن الوصفات التي ذكرنا بها الشيخ عبد الله عزام والشيخ تميم العدناني على طول تلك المعركة (عندما اجتمعنا سوياً ونحن في (العرين) وداخل كهف واحد).

وعندما وصلنا إلى معسكر (العرين) استقبلنا الإخوة الأفغان بحفاوة، وهم سعداء أن هؤلاء العرب يشاركونهم الجهاد والقتال، وقد تركوا أرضهم ووطنهم وأهلهم ؛ لذلك أنزلونا أحد الكهوف بكل احترام وتقدير ، وكنت أشعر بحرج كبير من معاملتهم لنا و كأننا ضيوف، لدرجة أنهم إذا شاهدوني مثلاً أريد الخلاء لقضاء حاجتي أرى واحداً منهم ينهض مسرعاً إلى مكان (البخاري) – البرميل الذي يسخن الماء – فيملأ الإبريق الخاص بالوضوء وينتظرني عند الباب، وكأني مسئول أو ضيف كبير عندهم، وقد تضايقت من تعاملهم معنا بتلك الطريقة اللينة ، وكنت أشعر أنهم يبالغون بها ولكن بعد معرفتي بالأفغاني المجاهد علمت أنه لا يمكن أن يتعامل مع الآخر بمنطقين وطريقتين، فهذا الأفغاني يحبني في الله لأنه يعلم أنني جئت أقاتل معهم في سبيل الله لا أريد منهم جزاءً ولا شكوراً .

بعد فترة وجيزة من وصولنا علمت أنه يوجد شباب عرب في كهف آخر مخصص لهم ، فذهبت لزيارتهم ولأننا ؛ لم نصل إلى (جاجي) عبر مكتب الخدمات، فإن الأخ المسئول عن هذا الكهف المخصص لاستضافة الإخوة الشباب

العرب لم يعلم بذلك ، ولهذا عندما وصلنا إليه استغرب أننا هنا وهو لا يعلم، فأخبرته أننا انطلقنا من مضافة الشيخ سياف ولم يكن الإخوة في مكتب الخدمات على علم بذلك، وكان مسئول هذا الكهف هو (أبو أسامة الصنعاني) وقد قتل بعد فترة في جلال أباد.

وبحسب طلب الأخ أبي أسامة انتقلنا من الكهف الذي نزلنا به أول مرة إلى عنده، وقدموا لنا طعام العشاء للمرة الثانية، وقد سألناه متى نستطيع أن نصل إلى مركز (المأسدة)؟ فرد علينا بالقول: إننا لا نستطيع أن نرسل أحداً حتى تطلب القيادة ذلك ، لكنه أضاف وقال: ربما تصعد سيارة الطعام بعد قليل وسنسألهم إن كنا نستطيع أن نجد لكم مكاناً هناك ؛ لأن أغلب المراكز حديثة العهد، ولم يتمكنوا من توسيعها بسبب هذه الظروف ؛ قصف من الأرض ومن السماء وثلج يصل ارتفاعه في بعض المناطق في جاجي إلى متر، لذلك لا نستطيع أن نستقبل شباباً جدداً إلا بحسب الظروف و الإمكانات المتاحة ، وكذلك كان حال الإخوة الأفغان ، ولم تصعد في تلك الليلة السيارة التي كنا ننتظرها وبأحر من الجمر على الأقل لنسمع آخر أخبار الإخوة في مقدمة الجبهة ومن منهم استشهد؟

إن المسافة بين معسكر العرين والمأسدة تصل إلى خمسة كيلو مترات أو تزيد قليلاً، وأمامنا جبال شاهقة تفصلنا.. وقد كانت هذه السلسة الجبلية تحجزنا عن المأسدة وعن مشاهدة ما يجري فيها، واضطررنا أن نبقى يومين كاملين في العرين، لم نكن نخرج من داخل الكهف إلا لقضاء الحاجة فقط، وكانت تلك اليومان هي الأطول في حياتي ليس بسبب القصف المستمر والأرض التي تهتز تحت أقدامنا، وليس أيضاً بسبب الخوف المستمر، ولكنني كنت أخشى أن أقتل في ذلك المكان قبل أن "أخرق " رأس روسي ببندقية!!

ومن ضمن ما كان يهمس به ذلك الوسواس الخناس في خاطري"أنك الآن ستقتل بقذيفة طائرة من طيار يجلس فوق كرسيه يبعد عنك آلاف الأمتار وربما كان يأكل الشوكولاتة!! وهو يلقي عليك قنبلة تزن ألف كيلو جرام قبل أن تدخل جبهة أو تقاتل عدواً!!" كان هذا الهاجس يحرجني للغاية ولكنني كنت أحاربه بالسلاح الناجح "ذكر الله كثيراً".

الانتقال إلى المأسدة ومعركة رمضان ١٤٠٧هـ

يومان وأنا أصارع نفسي أريد أن أخرج من الكهف بأي طريقة ، صحيح أن الكهف كان به تقريباً كل شيء، حتى المكتبة والتدفئة والفراش الوثير، وأسباب الراحة متوفرة، وشباب أيضاً كانوا لطيفين وكنت سعيداً برجولتهم، ولكن كان همي الأكبر كيف أصل إلى ذلك المكان الذي لا يبعد عني سوى ٦ كيلو مترات.

وفي اليوم الثالث أتى الفرج من الله تعالى، فقد أصيبت مجموعة من الإخوة العرب من جراء القصف المدفعي وصعدوا بهم إلى المأسدة وكان مركزهم موقعاً اسمه (حطين)، وكان على ميسرة قيادة المعسكر ، وصلوا بهم إلى المستوصف وأنزلونا بدلاً عنهم لتغطية مكانهم، وعندما وصلنا وسط قيادة المأسدة كان القصف علينا من كل مكان لا يكاد يهدأ وخصوصاً صواريخ ألـ(بي ٤١ — إم) وهذا السلاح بالذات كان يصيب أعصابي وأشعر بتشنج شديد إذ لا أحد يستطيع أن يتحمل صوت ٤١ صاروخاً تسقط دفعة واحدة على منطقة معينة!! بهمسة زر تنطلق كل تلك الصواريخ الإحدى والأربعين ، والمسافة بين كل صاروخ وآخر عند سقوطه على الأرض خمسة إلى عشرة أمتار وكأنك تزرع أرضاً بالبذور!! إضافة إلى مدافع "الهاون ٢٢٠ ملم " ومدافع الهاوزر١٥٥ملم " ، وكان هذا السلاح لا يقل خطورة عن (الكاتيوشا) وخطورته تكمن بعدم وجود أي صوت له ولا تشعر به إلا وقد انفجر بجانبك!! هذا غير الأسلحة المتعددة والمتنوعة والتي كان الروس يستغلون فرصة تجريبها على دماء وأشلاء الشعب الأفغاني!!

كنت أتمنى في تلك المعركة وأنا ألتفت يميناً ويساراً أن أجد مصوراً تلفزيونياً أو صحفياً أو كاتباً ليسجل وينقل للعالم جرائم وفظاعة ما يرتكبه

جيش الاتحاد السوفييتي ، ويسجل أيضاً ما يسطره هذا الشعب الأفغاني البطل من أسمى البطولات وأعظم التضحيات والصمود الذي بفضله تم سحق تلك الأسطورة العسكرية الروسية التي كان يقال عنها إنها لا تقهر..

ويبدو أن الروس اعتقدوا – لغبائهم – أن أفغانستان مثل (تشيكوسلوفاكيا) ويبدو أيضاً أنهم ما قرؤوا تاريخ أفغانستان.

وسط كل ذلك القصف والحريق وصلنا إلى وسط المعسكر، وكان يوجد تحت الأرض مقر القيادة ، وكانت عبارة عن غرفتين صغيرتين للقيادة الأفغانية والقيادة العربية، وهنا خرج من ذلك المكان أخ عربي اسمه "أبو خالد المصري" والذي أصبح بعد فترة قائداً لحرس أبي عبد الله "أسامة بن لادن" ، سلم علينا هذا الأخ وسألنا كيف وصلنا إلى هنا؟ .. وقلنا له القصة السابقة ، وإننا كنا نريد أن نواصل طريقنا إلى كابل ، حيث أن لنا بعض الإخوة ينتظروننا هناك، ولكننا علمنا – هنا في العرين– أنكم تحتاجون لشباب عرب فتقدمنا إليكم وعرفته بنفسي وبأخي أبي عوف الزهراني وأبي تراب السكاكي ، وكان قد صرف لنا السلاح والذخيرة من معسكر العرين.. بعد ذلك تقدم الأخ أبو خالد ونحن وراءه وسط خندق من أول نقطة القيادة حتى وصلنا مركز حطين الذي كان يعتبر مقدمة القيادة، وكان مركز حطين أخطرها على الإطلاق إذ لم يكن أمامه سوى قلعة (تشاوني) وقرية (خيل علي) وعلى شمال القرية سور طويل ، ولم أكن أشاهد من هذه المسافة إلا فوهة الدبابات التي كانت موجهة على ميسرة مركزنا الذي كان المنفذ الوحيد لانطلاقة كل القوافل التي تدخل إلى بقية الولايات الأفغانية.

كنا تحت وابل من قذائف دبابات العدو الروسي على مدار أربع وعشرين ساعة ، فمن خلال استهدافهم لذلك المكان ما أن يجدوا شيئاً يتحرك حتى

يقصفوا المنطقة كلها، مما كان يضطر الأفغان – أصحاب القوافل– أن يمكثوا في السائلة أو مجرى مياه الأمطار – التي كانت تحتنا– حتى منتصف الليل، ثم ينطلقون، وقد نجا الكثير منهم ، لقد كان الجبل الذي أمامنا عبارة عن مكان تتجمع فيه عظام وأشلاء البغال والخيول والشهداء الأفغان!

تقدمنا مع أبي خالد المصري حتى وصلنا إلى مقدمة "حطين" وكان في مقدمة المركز حفرة بقطر مترين، وقد نصب فيها رشاش (دو شكا ٧/١٢)، وكان هذا السلاح هو الذي أحبه كثيراً وأتميز في استخدامه، ونظرت إليه بإمعان وكأني أسلم عليه وأقول له: مرحباً لقد وصلت!!

ثم استدعى أبو خالد أخاً اسمه "أبو حمزة" – وهو من جدة – وكان أميراً في هذا المركز، صعد إلينا أبو حمزة ولم أكن أتصور أن هذا الأخ الذي لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، وكان قصيراً وممتلئاً وكانت ملامحه تركية ؛ لونه أحمر وعيناه زرقاويتان وشعره يكاد يصل إلى ظهره ، لقد رأيت شباباً بعمر الزهور ولكنهم ليوث بكل ما للكلمة من معنى ، شهر لم يتمكنوا من تبديلهم ، معلوم عسكرياً أنه لا يجوز وضع الجندي أكثر من شهر على الخط الأمامي فإذا علمت أن هذا الخط أمام الجيش الأحمر وفي معركة حاسمة وفاصلة فماذا أقول وماذا أنقل؟! اللهم تقبل مني ولو ساعة من تلك المعركة إن كنت تعلم أنها خالصة لوجهك الكريم ، والمهم أنهم كانوا يقومون بحفر وتوسعة الخندق وسط جبل "ليس فيه تربة"، ومع كل ذلك العمل، والحراسة والخوف والقصف من السماء والأرض ، لم أكن أتصور أن أجده هكذا ، وجدته ووجهه يشع سعادة وطمأنينة ووقاراً مع صغر سنه، ومن أين؟ من جدة.. (وما أدراك ما جدة؟!!) إن ثبات ذلك الأخ عندما رأيته أمامي– وأنا أطول منه ولكنه كان أكبر مني ثباتاً وهمة– بدا وكأنه يوازي بثباته جبال "جاجي" التي كنت ألتفت إليها في تلك

اللحظة، وعندما مد يده ليصافحني ويعانقني رأيت يده بلون آخر غير وجهه؛ حيث كانت قد تشققت من شدة البرد وبعض الدماء تسيل منها، ولكنه كان يتلذذ بتلك الصورة التي طبعت على يديه!! (ترى ما الذي جعل من هذا الجداوي أسداً من أسود الله ؟!) ، وربما لم يكن يشعر بألم ، ثم عرفنا الأخ أبو خالد به وقال لنا: هذا أميركم الأخ أبو حمزة ، فاسمعوا له وأطيعوا، ثم نزلنا من مكان "الدوشكا" إلى الغرفة التي كان الشباب قد حفروا منها قرابة ثلاثة أمتار أو تزيد قليلاً، وطلب منا الأخ أبو حمزة أن نساعد إخواننا الذين يحفرون بداخل الغرفة لأنهم قد أنهكوا من الحفر بالنهار والحراسة بالليل ، ولأن هذا المركز كان قريباً جداً وأمام مرمى (دبابات العدو) فلا يمر يومان أو ثلاثة حتى يصعد منه جريح، ودخلنا وحملنا أدوات الحفر واشتغلت بكل جد واجتهاد – أرجو الله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه – وفي الليل عندما تم توزيع الحراسة كان الأخ "الأمير" يسأل كل أخ منا عن السلاح الذي يجيد استخدامه ، وعندما سألني قلت له: إنني متمكن من سلاح "الدوشكا" فقال: أنت من الآن المسئول المباشر عن هذا السلاح ، فإذا لم تكن حراستك فأنت الذي تنظفه وتهتم به .

قضينا أسبوعين ونحن على برنامج واحد لا يكاد يتغير ، حتى إني لم أخرج من مركز حطين إلى القيادة التي لم تكن بعيدة عنا ، كنا في صباح كل يوم نحفر ونوسع المكان أو الكهف، لأن العدد كان يزداد في المركز ولذلك كنا مضطرين لتوسعته أكثر، أذكر أني نزلت مرة واحدة إلى النهر عندما جاء "دوري": لآتي بالماء من أسفل النهر وكان عليّ أن أنزل إلى أسفل النهر برفقة "بغل مجنون"!! لم يهدأ حتى ملأت الأربع دبات، ولأنه لم يهدأ اضطررت أن أحمله العبوة كلها وأنا لا زلت أسفل النهر، لأن المعروف عن البغل أنه إذا كانت حمولته ثقيلة يهدأ ويطيع.. وقد فعلت ذلك لأني كنت بحاجة لأن أغتسل لسبب خاص

بي!! ولن تصدقوا ، كان ذلك أثناء الحراسة أخذتني سنة من نوم خفيف ولم أشعر إلا بعد الانتهاء من كل شيء.

كانت تلك المرة الوحيدة التي خرجت فيها من "حطين" للسببين اللذين ذكرتهما ، قبل يومين كانت تفصلنا عن دخول شهر رمضان المبارك ، وليت شعري لو أن الروس علموا ماذا يعني لنا نحن المسلمون شهر رمضان، ولو كنت قائداً روسياً لانسحبت من تلك المنطقة (تشاوني والقرى المجاورة لها) من أمام المجاهدين على الأقل فترة رمضان، ولكن "الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون".

وقد كان ذلك ، ومهما عربدت قوات العدو وقصفت وأحرقت وأهلكت الحرث والنسل فإن النتيجة "إنكم تألمون كما يألمون وترجون من الله ما لا يرجون" والنتيجة الطبيعية أيضاً "هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا" لقد بدأ ذلك يوم ٢٨ شعبان وكأن القيامة قد قامت في منطقة "جاجي" ، إن أسراب الطائرات المختلفة الصنع والطراز قد وصلت تقذف بجحيمها وتنزل حمولتها فوقنا ، ولأول مرة نشاهد طائرات سوداء اللون كان صوتها يسمع وهي فوق (قرديز) منطقة تبعد عن جاجي حوالي ثلاثين كيلو متراً أو أبعد من ذلك ، وكان لذلك الصوت وقع خاص في أسماعنا ورهبة في قلوبنا، مع أن بقية الطائرات كانت تنزل فوق رؤوسنا كل أنواع القنابل والذخيرة التي كانت أغلبها تحمل تاريخاً حديثاً عندما كنا نشاهد الكثير منها ومن التي لم تنفجر ، أما تلك الطائرات السوداء فقد تحققت بعد فترة من نوعها عندما عدنا إلى بيشاور وأخذت بعض الموسوعات العسكرية التي كانت متوفرة بمكتب الخدمات ، فعرفت أن هذا النوع من الطائرات اسمه (تو بوليف ٢٢– ٢٦– ٢٨) .

وجدت أن لها أرقاماً خيالية لإمكاناتها وطاقتها والمدى القتالي لها بالوقود الداخلي ٣٤٠٠ كيلو متر ، أي أنها تستطيع إن تطير من داخل روسيا وتضرب أي مكان في أفغانستان وترجع، وسرعتها القصوى ٢٤٤٥كم في الساعة ، وقوة الدفع (٢٢٠٠كغم) وزنتها وهي فارغة (١٠٥أطنان) ، وزنتها بالحمولة القصوى (٤٥٠ طناً) وأبعادها (الطول في العرض في الارتفاع) تتألف من الرقم (٤,٤٤×٣٤×٤٠×١١م) وتحمل أيضاً قنابل حرة الإسقاط أو صواريخ بعيدة المدى ، وقاذفة القنابل أسرع من الصوت وأكبر من الطائرات الأمريكية (بي ٥٨ وتي يو ٢٨) ولقد رأيت من تلك القذائف والقنابل التي كانت تسقطها هذه الطائرات ما كان يحفر في الأرض حتى يخرج نبع ماء من جراء انفجارها ، إن منطقة "جاجي" لا تزال متأثرة من آثار ما استعمله الروس من الأسلحة المحرمة دولياً حتى الآن ، حيث لم يعد يزرع فيها أي نبات – حسب علمي (على الأقل حتى سنة ١٩٩٢م عندما غادرت أفغانستان).

من صباح اليوم الثامن والعشرين من شعبان والطائرات لم تسكت والأرض لم تهدأ ، وفي هذه الظروف العصيبة والأجواء الحالكة، وأنا أرى وأشاهد أسود الثرى فوق الثرى وهم فوق رشاشاتهم المتواضعة التي لا تكاد – ولا يمكن – أن تصل نيران أسلحتها إلى ارتفاع الطائرات الروسية التي كانت تقصف ، ولكن الذي قال: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)" هو الذي أيد ونصر أولئك الشباب الذين خرقوا كل القوانين العسكرية وأسقطوا كل التقديرات البشرية والتصورات الإنسانية والمنطقية.

إن الجهاد الأفغاني قد أسقط كل التنظيرات – وأنا شاهد على ذلك – وقد صرح بعد المعركة كبار العسكريين الباكستانيين الذين كانوا يراقبون المعركة من الحدود الباكستانية الأفغانية ، وقالوا: إن ما صب على منطقة

جاجي الصغيرة لم تشهد القارة الهندية طوال تاريخها، ولم يحصل مثله حتى في الحروب الباكستانية الهندية .

منذ أول يوم من دخول رمضان المبارك ونار الحرب مستعرة بصورة أعجز تماماً عن نقلها بين دفتي الكتاب ، ولا أقول أكثر مما قال القرآن ولن أجد أي تعبير أدق مما قاله ربنا: (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) ولن أزيد على هذا الوصف الذي وصفه القرآن.

اثنان وثلاثون يوماً لا نستطيع أن نخرج من كهوفنا إلا منتصف الليل لقضاء حاجتنا إن وجدت!! وكنا مع ذلك صائمين، ورفضنا أن نفطر، وقد تم إبلاغنا برسالة عاجلة من الشيخ عبد الله عزام يقول فيها: إنه يتوجب علينا أن نفطر في رمضان لأننا وسط لهيب معركة شرسة وأن هذه المعركة – كما قال– ستحدد مستقبل الجهاد الأفغاني ، لأن هناك استماتة من الجيش الروسي في هذه المعركة وللمرة الثانية على التوالي، لأنه يريد حسم المعركة لصالحه وغلق منفذ "جاجي" المنفذ لـ١٧ ولاية أفغانية تمون منه غذاءها وسلاحها ، ورغم كل تلك الحجج فقد رفضنا أن نفطر مع علمنا بشرعية الإفطار، كنا نريد ونتمنى أن نلقى الله صائمين ولا نفطر إلا عنده وفي مستقر رحمته في جنان الشهداء الخاصة (الفردوس الأعلى) لأنها أقرب إلى عرش الرحمن.

اثنان ثلاثون يوماً والآلة العسكرية الروسية تطحن جبال جاجي العملاقة وكأن هذه الجبال كانت تريد أن تقول لهم – أي للطيارين الروس– : إن كنتم شجعاناً فانزلوا إلى الأرض!! طول ذلك القصف من قبل القوات الروسية لم نستخدم أسلحتنا كاملة ولم نتمكن من ذلك بسبب سيطرتهم الجوية ، ونادراً

ما نخرج!! كنا نتيمم للصلاة بالتراب وكان الواحد منا يحرص أن يظل على وضوئه طوال اليوم.

ودارت تلك المعركة الرهيبة و أظهر فيها المجاهدون العرب والأفغان شجاعة نادرة وثباتاً عجيباً ، إذ من المعروف عن إستراتيجية الروس العسكرية أنهم يستعملون ما يسمى (بالأرض المحروقة) إذ يقصفون ويدمرون كل شيء أمامهم ولا يستثنون شيئاً ، وبعد ذلك تتقدم قواتهم البشرية ، وكانوا يتصورن من خلال سيطرتهم على أرض المعركة أنهم قد أبادوا كل شيء داخل "جاجي" لذلك وعند أول يوم من أيام عيد الفطر المبارك والمسلمون يفرحون بعيدهم ويلبسون الثياب الجديدة ويزورون أرحامهم وأقاربهم ، كنا في أفغانستان وفي منطقة "جاجي" نحتفل بطريقتنا الخاصة.

ففي هذا اليوم المشهود أعطيت الأوامر لكتائب القوات الروسية الخاصة "الكوماندوز" بالتقدم نحو قيادة المأسدة بهدف السيطرة عليها ، ثم قطع الطريق باحتواء خمسة مراكز متقدمة من ضمنها موقعنا نحن في "حطين" ، وقد تم بفضل الله وكرمه أن صد المجاهدون هجومين متتاليين وقتل منهم ٥٠٠ من قوات الكوماندوز و١٥٠٠ من قوات الجيش الأفغاني التابع لنظام نجيب الله في كابل ، كانت هدية يوم العيد من الله تعالى ، لأن الروس كانوا يستخدمون الشيوعيين الأفغان دروعاً بشرية لهم وكانوا يجعلونهم في مقدمة الصفوف ، تلك كانت هدية ربنا لنا في يوم العيد ، وربما لن تصدقوا أن من صد ذلك الهجوم واحداً وثلاثين مجاهداً عربياً(وقد شرفني الله أن أكون واحداً منهم) ، ومائة وخمسة وعشرين من المجاهدين الأفغان ، وأقسم إن تلك هي الحقيقة والواقع وأنا على ذلك من الشاهدين .. ربما في مناسبة غير هذه أستطيع التحدث عن معركة جاجي .

وقد امتشقنا أيضاً أسلحة الكوماندوز الروسية ، وكانت أول مرة أمتشق فيها سلاح "الكلكوف" الذي لم يكن موجوداً آنذاك – لدى الجيوش العربية والدول التي لها علاقة تحالف مع الاتحاد السوفييتي فقد كان هذا السلاح خاصاً بقوات الكوماندوز فقط!! ولأنني كنت مسئولاً عن صديقي ألـ "دوشكا"!! الذي أثبت إمكانياته الممتازة فلن تصدقوا أن الخندق الذي كان به الرشاش قد امتلأ بالظروف الفارغة طوال المعركة ، ومن فضل الله أنني استعملت سلاحي وقد تقدمت الكتيبتين الروسية والأفغانية وكان لهذا السلاح دوره الذي حسم مستقبل كثير من أولئك الغزاة!! وقد كنت أستبدل "سبطانة" الرشاش الجديدة بالسبطانة القديمة ، بعد كل ثلاثة آلاف طلقة ، وكان بجانبي عدد من "السبطانات" الجديدة والمستعملة التي كان يعاد تنظيفها من قبل أبي الحارث – وهذا الأخ من الرياض وكان يعمل مع الجيش السعودي وكان بطلاً وشجاعاً – وفي لحظة معينة من الهدوء تقدم عدد من الإخوة إلى مكان الشهداء والمصابين وتم حملهم من أسفل الموقع ووضعهم داخل الخندق قرب المدخل الذي يلف مقدمة مركز حطين ، اثنان من الإخوة العرب هما أبو خالد الجزائري وأبو الوليد السعودي أصيبا بقذيفة هاون من قوات الكوماندوز الروسية، ولأن معركة الاقتحام قد اشتدت وحمي وطيسها ، فقد تقدمت مجموعة تريد التقدم إلينا، وبفضل الله استطعت أن أمنعهم من ذلك ، وناديت بصوت عال : أخي أبا الحارث ومن سمعني بأن يأتيني بذخيرة وسبطانة نظيفة.

ولأن الروس أسفل مني وقد شممت رائحة سيجارة من بعضهم وكنت أظن أنهم انسحبوا بعد إطلاقي عليهم وابلاً من الرصاص (٧/٨/٢) المعروف بكفاءته ودقته، وصعد إلي الإخوة ومعهم الذي طلبته ، وحمل الأخ أبو مصعب – وهو من السعودية أيضاً – صاروخ (آر- بي-جي٧) ، وقمت بتغيير "السبطانة"

ووضعت خزنة جديدة واستعديت بسلاحي لأي طارئ، وهنا شعر الأخ أبو الحارث أن الروس أسفل المركز فقال : هذه فرصتنا ، إذا صعدوا إلينا فلن نستطيع مقاومتهم.

فنزل ومعه الأخ أبو مصعب وأخ ثالث وفتح الله على أيديهم فتحاً عظيماً، وعندما ضرب الأخ أبو مصعب بأول قذيفة من الـ"آر. بي.جي٧" تطايرت جثث العديد منهم، تقدم الأخ أبو الحارث مباشرة بسلاحه الـ"بيكا" وقتل عدداً آخر ، وعندها فرت البقية منهم ، ومثل ذلك حدث وسط المأسدة، وفي هذه اللحظة رأيت أحد الجنود الروس وكان لا يزال به رمق من الروح ، وجسده يتحرك ، فزحفت إليه ببطء شديد حتى وصلت فوق رأسه ، وكان شاباً صغير السن من خلال ملامح وجهه ، ووقعت عيني في عينيه وكنت أتمنى أسره ولكن إصابته كانت بالغة في رقبته وصدره ، مع العلم هنا أنهم كانوا يستخدمون الدروع الواقية ضد الرصاص ، وقد رأيت أن أخطر إصابة فيه هي التي في حنجرته ، حيث كانت الدماء تسيل بغزارة من ذلك المكان وكأنه ثور ذبح ، ونحن في يوم عيد!!، نظرت إليه ونظر إليَّ وكأنه يقول لي: أنقذني!! وقد رأيت البراءة في وجهه تلك اللحظة لكن حالته كانت ميؤساً منها، لذلك قلت: أكمل يومك مع من سبقوك على يد أبي الحارث وأبي مصعب ، الحق بزملائك الذين قضوا نحبهم قبل دقائق فإنهم ينتظرونك على أبواب جهنم!!وأطلقت عليه طلقة وسط جبينه حتى أرحمه من العذاب الذي كان يعانيه!! (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ).

تلك كانت فرحة أول يوم من أيام عيد الفطر، ولم تنته محاولة الروس ؛ فقد أرادوا أن يفتحوا ثغرة جديدة في منطقة أخرى ليصلوا إلى وسط المأسدة عن

طريق جبل أسماه الإخوة العرب (ذات الصواري)، وقد حدث لهم مقتلة كبيرة كان على إثرها أن انسحبت القوات الروسية وإلى الأبد من ذلك المكان ومن منطقة (تشاوني) وتلك المنطقة بأكملها ، وعادت أدراجها إلى كابل ذليلة مكسورة ومهزومة ، وتركت عملاءها من الشيوعيين الأفغان ليلاقوا مصيرهم المحتوم على أيدي جند الله.

وكانت حصيلة المعركة كلها منذ يوم الثامن والعشرين من شهر شعبان وحتى ثاني أيام عيد الفطر المبارك ١٤٠٧هـ اثنين وثلاثين شهيداً من الإخوة الأفغان، وثمانية من المجاهدين العرب، اقرؤوا تلك الحصيلة جيداً يا من تبحثون عن السلام مع أمريكا وإسرائيل!!، أكاد أجزم أنكم كما قال الله في كتابه: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ) لقد كان في قصصهم عبرة ، ولكن ..

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

لقد تركتم العالم كله يستفيد ويستخلص الكثير من تجارب الجهاد الأفغاني الذي غير تاريخ العالم كله إلا أنتم أبيتم:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

مجريات ما بعد معركة جاجي

بعد أن تنزل نصر الله على المؤمنين، واستقر الوضع على تلك النتيجة التي ذكرتها، وانتقلنا هنا من موقف المتصدي للهجوم والدفاع إلى وضع المهاجم.. وبعد أسبوع من الفرح الذي ملأ قلوبنا والسعادة التي غمرت أفئدتنا ، استطعت أخيراً أن آنزل كل يوم تقريباً إلى أسفل الوادي وأغتسل في النهر الجميل ومياهه العذبة الصافية ، واستطعت أخيراً أن أقف بكل طولي فوق (الدوشكا .الروسية) ولم أعد أخشى شيئاً إلا الله.

الكثير من موازين المعركة تغير لصالح المجاهدين، مع أن الطيران كان لا يزال يقصف ولو بصورة منقطعة، وصواريخ الكاتيوشا كانت لا تزال تسقط فوقنا ، ولكن الشيء الأهم أن الهزيمة قد وقعت ومعلوم كيف يكون المنهزم!!

بعد مضي أيام على الانتصار العظيم في جاجي أمر قائد مجموعة الرصد والاستطلاع مجموعته – وهم من المجاهدين الأفغان – بالنزول إلى منطقة أو موقع اسمه "النائمة" ، أطلق عليها هذا الاسم لسعة طول الموقع ، وذلك لاستطلاع المنطقة التي سبق أن استطلعوها من قبل ، وكذلك يريدون أن يستطلعوها مرة أخرى لاستخراج الألغام الأرضية التي كانت تحجز المجاهدين عن الوصول إلى مراكزهم ، وكانت المسافة مشياً على الأقدام بالطريقة التي سلكها الشباب قرابة الساعة ، وقد كنا على اتصال معهم عبر الأجهزة اللاسلكية التي وصلتنا مؤخراً من القيادة هدية من أبي عبد الله "أسامة"، وقد نزل مع الإخوة الأفغان اثنان من الشباب العرب هما خالد الكردي من قيادة المعسكر، ومن مركزنا أبو مصعب (أميرنا أمير مركز حطين)!.

كما تم السماح للشباب في الصباح الباكر – بعيداً عن أعين (الكوتشاي) البدو، والذين كانوا خليطاً من الباكستانيين والأفغان، للأسباب المعروفة العرقية والقبلية والعشائرية ويتبعون قبيلة "تري منكل" الحدودية – بالدخول إلى أرض الجبهة ليحصلوا على ما تبقى من حطام الطائرات أو بقايا قنابل، أو قنابل لم تنفجر، حتى الشظايا المتناثرة في كل شبر من أرض جاجي، وكانوا أيضاً يجمعون الحطب ويقطعون الأشجار إن بقي هناك شيء من الأشجار!!، كل تلك الامتيازات التي كان يتمتع بها "الكوتشاي" البدو من أجل أن يمتنعوا عن مضايقة المجاهدين، وعدم التعرض لقوافلهم وسلبهم، مع أن القيادة الأفغانية كانت تعلم يقيناً أنهم يعملون لصالح المليشيات التابعة لنظام نجيب، وكانوا أحياناً يعملون كراصدين للشيوعيين وهم يقصفون علينا، ولكن رغم كل ذلك كان قرار القيادة الأفغانية ممثلة على الأقل بالذين كان لهم حضور داخل جاجي، وهم الثلاثة الأوائل على الساحة الأفغانية (سياف، حكمتيار، ورباني) عدم التعرض لهم.

وكان قراراً حكيماً، من أجل عدم فتح جبهة جديدة معهم، ومحاولة استمالتهم لصالح المجاهدين باعتبارهم من المؤلفة قلوبهم كما قال الشيخ سياف عندما سئل ذات مرة عن هذا الموضوع، وقد أردت من التوسع بذكر أولئك القوم من "الكوتشاي" أو البدو، لأن خطرهم كان قد ازداد بعد مقتل أخ عربي اسمه (يحيى سنيور) من جدة، وكان هذا الأخ قد قتل وسط قرية "تري منكل" الحدودية الباكستانية، وتركوه فوق سيارته بعد أن نهبوا كل ما وجدوا معه من أموال خاصة بالمجاهدين ومواد غذائية، وقد قتل وهو يريد الدخول إلى معسكرات "جاجي" وترك مقتولاً وهو مضرج بدمه دون أن يتقدم أحد لإنقاذه أو حتى لأخذه بعد قتله إلى معسكر الشيخ سياف القريب من مكان الجريمة، ومعلوم أن هذا الأخ

الكريم – رحمه الله– قد حصلت له كرامة بعد مقتله ، فقد خرجت من دمه رائحة زكية كرائحة المسك ومكثت تلك الرائحة الزكية حتى أرسل لأهله في جدة ، ومعه وصيته وعليها بقعة من دمه الزكي ، ووصلت إلى أهله في جدة بعد شهر من استشهاده وشمت أمه تلك الرائحة الزكية من دم ابنها يحيى سنيور، وحمدت الله تعالى الذي أكرمها بأن يكون ابنها شهيداً في سبيل الله ، وتلك كانت من علامات القبول عند الله تعالى ، وقد أصبح يحيى سنيور حديث المجالس والسامرين في منطقة "أبحر" بجدة ، وقد كانت مثل تلك الكرامات متواترة عندنا وخصوصاً بين الإخوة السعوديين واليمنيين لحكمة لا يعلمها إلا الله،!! ولست هنا أنتقص أو أجحد دور بقية الإخوة العرب أو حتى المسلمين من ماليزيا إلى موريتانيا، لأنني أؤمن بأن "المؤمنين أخوة" ولا أؤمن بقومية أو مناطقية أو عرقية أو ما إلى ذلك، فالإسلام قد جمع كل تلك التسميات والجنسيات تحت راية الإسلام وعلى أرض أفغانستان ، ولم يذهب أولئك الشباب الذين كانوا ينتمون إلى دولهم بواسطة جواز السفر – إلى أفغانستان– لنصرة الأفغان لأنهم أفغان فقط ، ولكن لأنهم مسلمون ، واستجابوا فقط لنداء رب العالمين: (وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ)، وأريد هنا أن أعرض لموضوع أساسي وحيوي ، وخلال هذا السؤال: ماذا يقول الذين بيدهم الحل والعقد وولاة الأمر عندما يقرؤون – إن كانوا يقرؤون!! – قول ربنا : "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه"؟

لقد أنكرتم علينا لماذا يجاهد الشباب العرب في أفغانستان ونسيتم القاعدة الشرعية أنه إذا أعتدي على أرض من أراضي المسلمين فإن الجهاد يصبح فرض عين على جميع أهل البلاد التي غزاها المحتل ، فإذا لم يستطيعوا فيكون القتال فرض عين على أهل البلاد التي تليها وهكذا ، ألم يقل الله تبارك وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) ، وإذا قلنا لكم: خلو بيننا وبين الصهاينة وسترون ماذا سيصنع بهم المجاهدون .. ولكن؟! وقد رأينا إلى أين أوصلتم القضية الفلسطينية ، لو كان المجاهدون غير عرب ولا مسلمين لنصبت لهم التماثيل على ناصية كل شارع ولكانوا نماذج يحتذى بهم ، فإذا كانت هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C تقول معلقة على دور العرب المجاهدين : إنهم خبراء عسكريون (أرسلوا) من دولهم يقاتلون مع الأفغان .. أقول لهم : إن التاريخ كفيل بإنصافهم .

أعود هنا إلى أرض البطولات والعزة، إلى مصانع الرجال ومنازل الأبطال ، ففي ذلك اليوم المشهود الذي أبكى كل من رأى وشاهد ذلك الحدث، بعد مضي قرابة خمس ساعات لعمل هؤلاء الإخوة الذين نزلوا لنزع الألغام التي زرعها الروس .. تذكروا مقالة القادة العسكريين الروس: لقد تركنا للأفغان عدواً يقاتلهم عشرين سنة قادمة ، ومعلوم أن المجاهدين لا يملكون أجهزة حديثة لكشف الألغام، وكانوا ينزعونها من خلال خنجر أو سكين يحفرون بها حول اللغم بأسلوب هادئ وبطيء حتى يظهر اللغم تماماً ، ولأن جبناء الروس كانوا في بعض الأحيان يضعون تحت اللغم الذي على السطح إما مادة متفجرة أو لغماً إضافياً ، فقد كان الشباب يضطرون لأن يحفروا بعمق أكثر قبل أن يحاولوا نزع اللغم وإبطاله ، وفي لحظة معينة وفي وقت محرج للغاية وكان الوقت ظهراً وكل شيء كان مكشوفاً للعدو من خلال الراصدين لهم أو من خلال القبائل العميلة للشيوعيين ، ومن خلال خطأ ارتكبه خالد الكردي انفجر لغم وارتفع به إلى الجو وسقط على لغم آخر فقطعت قدمه واندلقت أمعاؤه إلى الأرض، أما الأخ أبو مصعب فقد قطعت له إصبعان من أصابع يده اليمنى من آثار الشضايا ، وفي هذه

اللحظة انسحب أحد الإخوة الأفغان من مكان الحادث إلى أسفل النهر ليطلب النجدة من القيادة، وهنا أريد أن أسجل موقفاً لأبي عبد الله "أسامة بن لادن" فإني أشهد له في ذلك اليوم أنه كان أشجعنا على الإطلاق، فعندما سمع أن الإخوة قد وقعوا في شرك الألغام – كما سمعنا الخبر عبر اللاسلكي – خرج بفرسه الأدهم وكان فرسه شديد السواد وقد أهدي له من لاهور – كما ذكر ذلك الإخوة في القيادة – خرج من القيادة مباشرة إلى مركز "حطين"، وكان معنا في المركز الأخ أبو خالد المصري ، وقد وجه أبو عبد الله حديثه إلى الأخ أبي خالد قائلاً: يا أبا خالد ، بايع عدداً من إخوانك على الموت والحقوا بي إلى أسفل النهر.

أضاف قائلا: عندما أطلبك تتحرك مباشرة ، وهنا كان ينبغي عليه إذا أراد أن يصل بسرعة ومن طريق قريبة أن يجتاز ذلك المثلث الذي يقصف بصورة مستمرة وهو طريق القوافل الأفغانية، ولا يفصل ذلك المثلث سوى النهر الذي أسفل الوادي ، ثم صعوداً إلى تقاطع الطريق الذي يذهب إلى كابل والذي يمر من وسط القرى التي كانت تحت سيطرة الشيوعيين الروس ، وما إن ظهر أبو عبد الله من ذلك المكان الخطر حتى قصفت عليه أكثر من ست دبابات كانت تتمركز فوق مركز "جبل النائمة" كما كان يطلق عليها ، ولم نكن نشاهد من تلك الدبابات سوى فوهات مدافعها ، ومن غزارة تساقط القذائف على ذلك المكان وتصاعد الأتربة والدخان الذي غطى محيط المنطقة – الجبل تقريباً– فقد فقدت أبا عبد الله ويشهد الله أنه لم يمر سوى لحظات حتى رأيت الرجل وهو ينطلق كالسهم فوق فرسه ويشق قرابة ٥٠٠ متر أو تزيد ، وهذه البقعة – التي اجتازها أبو عبد الله– كانت أخطر من الأولى لأنها كانت واضحة لا يفصلها شيء من أمام العدو .

وكان أبو عبد الله يريد باجتياز تلك المنطقة المكشوفة أن ينزل إلى أقرب مكان للشباب الذين وقعوا داخل حقل الألغام ، وكنا نتبعه لحظة بلحظة حتى اختفى عن أنظارنا وسط الغابة ووصل إلى أسفل النهر وأجرى مكالمة لأبي خالد قائلاً له: عليك أن تنزل ومعك الدكتور صالح الليبي – وكان الطبيب الوحيد من العرب – يوم ذاك – أتينا به من مركز القيادة وأخذنا معنا عدداً من الحمالات لنقل الجرحى ، ثم نزلنا أنا وأبو خالد المصري وأبو عبد الرحمن الليبي وأبو عوف الزهراني وسراقه اليمني ، وقبل أن نصل إلى المكان المعلوم قابلنا أبو عبد الله وقد عاد هذه المرة من أسفل الطريق الآمنة التي نعهدها ، وقال لنا: اذهبوا واحملوا أخاكم المصاب والأخ الآخر . إن هذا الرجل لم تمنعه الكدمات والرضوض التي على جسده فقد كاد يُقتل من قذيفة هاون عيار "٢٢٠ملم" في المعركة الأخيرة ، إضافة إلى أن أبا عبد الله يعاني من انخفاض شديد بضغط الدم لذلك ترى مادة الملح لا تفارقه .

بعدها واصلنا الطريق حتى وجدنا الإخوة الأفغان ومعهم الشهيد الحي ، وما هي إلا لحظات قبل أن نصل إلى مكان الإخوة وفي هذه اللحظات اشتغلت جميع الأسلحة التي كانت تمشط أسفل الوادي وقد أحالوا الوادي إلى قطعة من اللهب فراحت الصواريخ تقذف بحممها المسعرة ومدفعية الميدان " ١٥٥ ملم " ولأول مرة نسف بصواريخ "موشاك" من بعد المعركة ، فهذه الصواريخ مداها ثمانون كيلو متراً وقد أصيب العديد من المجاهدين بالجنوب من شدة انفجارها ، إن شدة القصف جعلتني أقول لنفسي: هل يعقل أن يفكر الروس بالعودة إلى جاجي ؟ إن القصف كان بشكل جنوني لا يرقى إلى مستوى الحدث ، فالإخوة كانوا ينزلون يومياً للترصد وتنظيف الطريق من الألغام ولم يحدث شيء من

هذا ، بل إن القصف المتقطع يومياً أصبح بالنسبة للروس كأنه رياضة يقصفون أي شيء في هذا الجو .

أمرنا أبو خالد أن نفترق حتى لا تسقط قذيفة فتشمل العديد منا ، ثم بحث كل واحد منا عن مكان تحت الصخور الشاهقة في أسفل النهر حتى يهدأ القصف ، ثم واصلنا طريقنا حتى وصلنا إلى مكان الإخوة ووجدنا الأخ خالد الكردي – رحمه الله – وقد قطعت قدماه ، واندلقت أمعاؤه ، وجسده قد تورم بشكل مخيف ؛ فوجه خالد لم أعد أعرفه ، والإخوة الأفغان – جزاهم الله خيراً – حاولوا إعادة أمعائه إلى مكانها في بطنه ، وحقاً كان الأمر مخيفاً ومحزناً جداً ، وسط كل هذا فلا يزال خالد فيه حياة ويشعر بنا ، وهنا تقدم إليه الدكتور/ صالح (وهو أيضاً رحمه الله استشهد في ٩٨م في جلال آباد) وفي تلك اللحظة فإنني أول ما شاهدته قلت لنفسي: إلا أن يشاء الله ربما يصل إلى المعسكر ، إذ لم أعد أجد شيئاً داخل بطنه ؛ فأمعاؤه كانت متدلية إلى خارج جسده، وقدمه قد قطعت ، والشظايا في كل جزء من جسده ، حتى أن وجهه تورم ولم يعد وجه خالد كردي الذي أعرفه ، ووضعناه فوق الكرسي أنا وأخي أبو سراقة وقد كان شديداً وقوي البنية كما كان مغترباً في السعودية ، وعندما نظر إليه الدكتور/ صالح – رحمه الله– حيث قتل هو الآخر بعد ذلك في مكان آخر، بدا وكأنه يريد أن يقول له وهو يجمع أمعاءه وما تبقى منه إلى داخل بطنه : ماذا سأفعل لك أيها الخالد؟ وانفجر من البكاء ، وكنت أعرف هذا الدكتور بروحانيته وعاطفته العظيمة، وعندما رأى خالد الكردي الدكتور صالح يبكي، قال: يا دكتور ، لماذا تبكي؟ والله ما أشكو إلا من هذه الجروح في باطن يدي ، هنا لم نستطع أن نتمالك أنفسنا ومشاعرنا فبكينا جميعاً، وأمرنا الدكتور صالح أن نحمله ونعود، وعاد هو لجراحة يد أبي مصعب، وحملنا خالداً الكردي على ظهورنا، ولأني

كنت خلف أبي سراقه فقد شعرت بصوت وكأن خالداً يريد أن يقول شيئاً ، فقلت لأبي سراقة: انتظر يا أخي ، لننزل خالداً نرى ماذا يريد فإني سمعت همهمة ، أنزلناه من على ظهورنا بجانب النهر ، وكانت لحظة مهيبة ، كنت أتمنى لو أن شاعراً شاهد تلك اللحظة وعبر عنها!

لقد شاهدت وجه خالد ولم أصدق أنه ذلك الوجه الذي شاهدناه عندما حملناه أول مرة على سرير نقل الجرحى، ذلك الوجه الذي كان منتفخاً من شدة انفجار الألغام ، ومن كثرة الشظايا التي أصابته ، إنني أرى ذلك الوجه الآن وجهاً صافياً نيراً وكأنه بدر!!

ونظر إلينا وابتسم ابتسامة عظيمة كان فيها الكثير من السعادة ، ثم نظر إلى السماء وابتسم ابتسامة أخرى أعظم من الأولى ، وخرجت منه في تلك اللحظة رائحة كانت أزكى وأجمل وأرق ما شممته في حياتي،!! ثم انقطع نفسه في تلك اللحظة ، وصعدت روحه إلى بارئها – رحمه الله – لقد كانت لحظة مهيبة؛ كنت أشعر أن الملائكة تملأ النهر والمكان الذي نحن فيه لتستقبل هذا الضيف العربي من داخل أرض أفغانستان لتنقله مباشرة إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، وكأن الملائكة تقول: اصعدي أيتها النفس الطاهرة ، إلى روح وريحان وجنة نعيم!!، رحمك الله يا خالد الكردي ، ورحمك الله يا دكتور صالح الليبي، وقاتل الله من فرق ذلك الجمع، ومن صد أولئك الشباب من أن يقاتلوا في سبيل الله في أرض فلسطين. يعلم الله أننا كنا نقاتل بأجسادنا أما أرواحنا فقد كانت معلقة ببيت المقدس .

إنني هنا أريد طرح سؤال قد يكون ساذجاً بريئاً وسأطرحه بمناسبة ذكر تلك النماذج الطاهرة التي أعادت للأمة ثقتها بربها وأعادت حقيقة التوكل على الله، وأيقظت فريضة كان المسلمون قد نسوها قرناً من الزمان أو يزيد ، إنني أريد

بعد هذا كله أن أسأل: من الذي جمع اليمني والمصري والسعودي والجزائري والليبي والعراقي والكويتي ، ومن الذي جمع الماليزي والإندونيسي والتايلندي والهندي والموريتاني وحتى الأميركي(المسلم) والبلجيكي (المسلم) والكندي (المسلم) والهولندي(المسلم)؟ كل هؤلاء من الذي جمعهم ليقاتلوا في خندق واحد ويقدم كل واحد منهم صدره فداء لأخيه الآخر؟ هل أدركتم لماذا تمضي كل تلك التجربة؟ هل أيقنتم لماذا خطف الجهاد الإسلامي المبارك وأخرجوا لكم البديل الذي اسمه طالبان ؟؟!! لا أريد أن أفتح ملفات الحديث فيها يطول ويطول ويطول .... .

سأترك الإجابة لأصحاب النظريات والمشاريع المختلفة، ولكل من له ذرة من عقل!! بعد أن انتقلت روح خالد الكردي إلى بارئها والرائحة العبقة تنتشر في ذلك المكان كله والتي من شدتها كنت أشعر أني سأختنق!! وكأن هذه الرائحة ليست للأحياء الجيف (من أمثالنا) !! ولكنها كانت نقطة من ذلك العالم (الفردوسي)!!، صعدنا بجسده الطاهر بصعوبة بالغة ليس من جسد خالد – رحمه الله – ولكن من شدة تلك الرائحة،!! ولم أفكر ولم أحس بذلك القصف الذي لم يهدأ ، عندما علم الشيوعيون أن هناك مجموعة قد تقدمت إليهم فكانوا يحرقون المنطقة حرقاً بقذائف الهاون وراجمات الصواريخ والمدفعية الثقيلة على طول مجرى مياه الأمطار ، وصعدنا بجسد الشهيد خالد الكردي إلى مقر القيادة وسط حشد من الشباب ، الذين أرادوا أن يلقوا عليه النظرة الأخيرة ، ويطلعوا على تلك الكرامة التي أكرمه الله بها (الرائحة الطيبة من دمه الطاهر !) .

وقد كان الشيخ خالد معروفاً بلطفه وخفة دمه ، وكان صاحب طرفة إذ كان يسعدنا ويضحكنا في أشد اللحظات حرجاً وخوفاً "إنه من العراق!!"، لقد صعدت روحه الطاهرة وأرواح إخوانه السبعة الآخرين الذين كانوا حصيلة

معركة رهيبة استمرت أكثر من اثنين وثلاثين يوماً ، ولن أتحدث هنا عما قيل عن تلك المعركة وعن حجم الخسائر التي تكبدتها القوات الروسية والجيش الأفغاني التابع لها ، وصدق الله: (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) يعني ويصطفي ، والاصطفاء يكون عن دقة الاختيار لمن انطبقت عليه الشروط والصفات والمقاييس الربانية ، وعندما تنضج الروح الإنسانية وتصفى من كل أدران الدنيا وتتعلق بما عند الله وتترك كل ما عداه ، من هنا تكون بداية الطريق للشهيد ، وإنني من خلال معايشتي لمن كانوا يقتلون ، الحق أقول : إنهم كانوا يتميزون بصفات خاصة وعالية وكانوا يعملون كل شيء يقربهم إلى الله ؛ من كثرة العبادات ، والنوافل ، وقيام الليل ، والحراسة بدلاً عن إخوانهم ، وإيثار إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، تلك بعض الصفات التي كان يتميز بها أولئك الذين ذهبوا وتركونا لذئاب الأرض!!

بعد حادثة خالد الكردي وأبي حفص الذي نقل إلى بيشاور ومنها إلى السعودية حيث علمت أن له قرابة (بأبي عبد الله أسامة) ، إستمريت في مركزي "مركز حطين" وقد تبدل الشباب الذين كانوا معي في المركز حتى أبو الحارث الذي اتفقت معه من قبل على أن نذهب سوياً عند أول فرصة إلى "شكر درة" قرب كابل فقد تركني بأمر من أبي خالد وعاد إلى بيشاور لعمل خاص بالمجاهدين كما قال لي.

صحيح أن الشباب الجدد كلهم أحباب ومخلصون ، ولكن كان للذين تركوني وحيداً بصمة قوية عليّ ، وعلاقتي معهم كانت متميزة ، فقد شاهدت معهم – على مدى أكثر من شهر– الموت بكل أشكاله وألوانه، وكنا نتقاسم كسرة الخبز بيننا وكأس الماء كان يشربه خمسة إلى ستة من الشباب!!، لقد كانوا بحق متميزين، وعندما عملت مقارنة – بعد فترة– بين هؤلاء الذين عشت

معهم أحلك وأشد الظروف على الإطلاق وبين أولئك المتأخرين أيقنت حقاً أن السابقين دائماً متميزون بحق!! (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وقليل من الآخرين) .

مكثت في مكاني في مركز حطين شهراً ونصف الشهر أمضيتها بين القيادة برفقة أبي عبدالله بأعمال خاصة للجهاد ، مكان القيادة (المأسدة) أو مأسدة الأنصار ، وقد قام أبو عبدالله بشق الطرقات وتوصيلها إلى عدد من المواقع المحيطة بمركز القيادة وعمل شبكة خنادق ، فالمعركة الأخيرة علمتنا الكثير ، والحق أن أبا عبدالله كان له كبير الأثر على معنوياتنا ، فصمود هذا الرجل وشجاعته وثباته مع أنه يعاني من هبوط شديد بضغط الدم فأراه يحمل الملح في جيبه لا يفارقه وإلا مات إذا لم يتناوله ، وقد كاد يقتل في تلك المعركة فقد سقطت قذيفة هاون من العيار الثقيل (٢٢٠ ملم) وقذفته إلى أسفل الخندق وأغمي عليه ، لولا أن الدكتور/ صالح الليبي كان قريباً منه فقام بإنقاذه وذهب به إلى المؤخرة (العرين) ولم يمض عليه سوى يومين حتى عاد إلى مأسدة الأنصار وشاركنا المعركة حتى ثالث يوم من عيد الفطر المبارك .

آه.. آه يا أبا عبدالله ، والله الذي يعلم السر وأخفى أنك كنت أحب الناس إلى قلبي ولكن بعد كل الذي جرى باسمك وتحت عنوانك فاللهم إني أبرأ إليك مما صنع . ولكن لماذا حدث ذلك ؟؟!! .

وقفة : حديث في السياسة

أولاً : إنه وبانتهاء معركة رمضان الأخيرة والمحاولات الروسية العديدة للسيطرة على منطقة جاجي وما كان يجري على طول وعرض أفغانستان من هزائم ساحقة للقوات الروسية الغازية على أيدي المجاهدين الأفغان ، ومن نتائج ما كان يجري على الساحة الأفغانية انعكس على الخارج الأفغاني سواء الدول المحيطة أو على المستوى الدولي ، لنخرج إذاً الآن من أفغانستان وننظر إلى النتائج التي ترتبت على الانتصار العسكري للمجاهدين الأفغان وانعكاساته سلباً أو إيجاباً على الدول المحيطة وبقية العالم ، أما الدول المحيطة أو المعنية بالجهاد الأفغاني وهي " باكستان – السعودية – مصر " هذه الثلاث الدول الإقليمية المؤثرة تأثيراً مباشراً على الجهاد الأفغاني ، ثم نمد بصرنا لبقية دول العالم وتحديداً الغربي منه ، نحن نعلم جيداً أن الغرب رحب بداية بالجهاد الأفغاني ليدحضوا به الدب الروسي ويحطموا كبرياءه ويدمروا اقتصاده على سفوح جبال الهندكوش والهلمند دون أن يراق (الدم الغربي النبيل الأزرق؟؟!) وفي هذه المعركة نتائجها لصالحهم على أي الجهتين مالت كفتها أو انكفأت موازينها فسواء تحطم الشعب الأفغاني الأصيل بفطرة المعتز بإسلامه المتمرس بمعاركه والتاريخ القريب يشهد بذلك ، معارك بريطانيا الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس أفلت شمسها على أيدي الشعب الأفغاني – كما ذكر سابقاً – إذاً سواء دمر الأفغان أم دمرت روسيا – العدوة التقليدية للغرب – فالمعركة إذاً في صالح الغرب ، فما كان يدور بخلد الغرب وهو يتهلل فرحاً بهذه المعركة كانوا يريدون ابتداءً من الجهاد أن يمرغ كرامة روسيا ، فحصل لهم ما أرادوا ، وكانوا يريدون من الجهاد قميصاً يلوحون به في المحافل الدولية والمنتديات العالمية لتحطيم روسيا معنوياً وسياسياً لتفقد أنصارها في العالم ، فكان لهم ما أحبوا ، وكانوا

يخشون من الدب الروسي المتعطش لآبار البترول في الخليج أن يرد آباره فتبدد خوفهم .

لقد هزمت روسيا وهزم جيشها على أرض أبي حنيفة النعمان ، وانتهت أسطورة الجيش الأحمر الذي لا يهزم دون أن يحمل في جيبه ورقة واحدة تحفظ له بقية ماء وجهه ليلوح بها للعالم أنه خرج بمعاهدة أو ميثاق ، لقد كسر ظهر روسيا والإمبراطورية السوفييتية ، ألم يصرخ قائد الجيش الروسي إثر أنسحابه من على شاشات التلفزيون قائلاً : (هذا اليوم الذي كنا ننتظره منذ سنين) ؟ ألم يعلن سكرتير الحزب الشيوعي غورباتشوف أنه سيسحب مليوني جندي من أوروبا الشرقية ؟ ألم ينهر جدار برلين إثر الهزيمة الساحقة للجيش الروسي ؟ هذه بعض من أهم نتائج الهزيمة العسكرية للجيش الروسي على مستوى أوروبا ، عند هذا التاريخ – أعني نهاية سنة ١٩٨٨م – رأينا الثلاث الدول (الحليفة) للجهاد الأفغاني قد تغيرت مواقفها تجاه الأفغان ، لقد كانت المتغيرات في أواسط آسيا قبل الغرب تضع أمام نواظرها هدفاً لا يغيب عنها وهو : عرقلة قيام تجمع إسلامي في أفغانستان على ضوء النتائج الباهرة التي أحدثها الجهاد الأفغاني ، وكانت تعمل جاهدة على تأخير حسم المعركة عسكرياً ريثما يرتب الغرب أوراقه من جديد ويبحث له عن بديل للنظام الشيوعي المتهالك في كابل .

لنعد إلى أفغانستان وننظر من هناك إلى الدول الثلاث "السعودية – باكستان – ومصر" ، ولنبدأ بباكستان العمق الإستراتيجي واللوجستي للجهاد الأفغاني ، إن قتل ضياء الحق – رحمه الله – ومعه كبار قادة الجيش الباكستاني كان بحق ضربة قوية كسرت ظهر الجهاد الأفغاني ، وإن المتغيرات السريعة التي جرت في باكستان قد أحدثت هزة عنيفة (الأصولية المتشددة كما كان يسميها الإعلام الغربي آنذاك!) حكمتيار – سياف – رباني – خالص ،

ومحاصرتهم مادياً وسياسياً ومعنوياً خصوصاً بعد مجيء بنازير بوتو إلى سدة الحكم لباكستان ، وبدأت المساعدات التي كانت تأتي من دول الخليج تقل شيئاً فشيئاً ، وأصبح الحصول على تأشيرة الدخول إلى باكستان أكثر صعوبة من الحصول على تأشيرة لأحد الدول النفطية (علماً أنها في السابق كانت تعطى للقادمين إلى باكستان من مطاراتها) وبدأ التضييق العملي على الإخوة العرب بل واغتيال بعضهم (تحت ظروف غامضة) ومنعهم من دخول أفغانستان — سيأتي هذا لاحقاً .

أما السعودية فقد تم تغيير مراكز القوى لديها ، وبدأت بإغلاق مكتب الحزب الإسلامي (حكمتيار) تحت فتاوى وعناوين فارغة ، ولحقه إغلاق مكتب الشيخ جلال الدين حقاني ، واستلم ملف الهيئات الإغاثية (سلمان بن عبد العزيز) وتم بذلك السيطرة على ٩٠٪ مما كان يصل للجهاد الأفغاني من السعودية .

أما مصر فقد كان دورها هنا في بيشاور على أيدي المرجفين في المدينة ، وقد وكلت لهم مهمة تشتيت هذا التجمع العربي المبارك وتكفير القادة المخلصين والتشكيك بهم والحملات المسعورة والشعواء ضد إمام المجاهدين الدكتور عبد الله يوسف عزام واغتياله بعد ذلك بتحريض من الدولة النفطية الكبرى .

أما على المستوى الإقليمي عموماً فقد رأينا التقارب الروسي الإيراني وتوثيق الصلات بين باكستان والهند ، والتقارب الإيراني التركي الباكستاني الصيني الهندي ، ثم أخيراً إنهاء الحرب العراقية الإيرانية ، هل يمكن حصول كل هذه المستجدات والتطورات في تاريخ واحد ؟! هل كل ذلك كان مصادفة ؟! أسئلة أتمنى أن تراجع من قبل من يسمون أنفسهم بالمحللين الإستراتيجيين والخبراء في الشؤون الـ ..... الخ .

إصابتي بمرض الملاريا وخروجي إلى بيشاور

بينما أنا مستمر بالبرنامج الذي أعده أبو عبدالله شعرت ذات ليلة بإرهاق ، وبحمى شديدة ، وفي آخر الليل وأنا أعاني من تلك الحمى الشديدة ، حصلت لي حالة قيء وإسهال شديدين ، ومن شدة تلك الحالة لم أستطع أن أصمد ، فنقلني الشباب إلى مركز القيادة ، حيث كان فيه غرفة صغيرة فيها القليل من أدوات الجراحة ، ويعمل فيها أخ صحي أفغاني ، وعندما رآني هذا الأخ وقد تغيرت بشرتي ، وصار لون وجهي كالورق الأبيض من استنزاف الكثير من السوائل داخلي ، طلب نقلي على الفور إلى مؤخرة معسكر العرين ، ونقلت مباشرة إلى هناك وأدخلني مستوصفاً كان قد تغير كثيراً عندما رأيته لأول مرة ، حيث توسع كثيراً وجهز بالكثير من الأجهزة الطبية والأطباء وأصبح شبه مستشفى ، حتى الطريق من المأسدة إلى العرين تغيرت كثيراً ؛ فقد تم توسعتها ومسحها وتهيئتها تهيئة جيدة – حتى أني لم أشعر بمطب أو وعورة في الطريق– قام بها أبو عبدالله على نفقته جزاه الله خير الجزاء ، فقد أراد أن يجعل من المعسكر "المأسدة" نقطة التقاء للشباب العرب فقام بتوسيع المعسكر وبذل الكثير من المال وعمل شبكة متكاملة من الخنادق ، وتم وصل قرابة خمسة مراكز من بعضها ، حتى أنه قام بإنشاء مستشفى عظيم وسط معسكر العرين ، لكي يستقبل كل الحالات الخطرة التي تصل من أفغانستان، وقد زرت المنطقة بعد سنة أو تزيد وشاهدت ذلك المستشفى، وكان مشروعاً باهراً.

عندما وصلوا بي إلى معسكر العرين، نقلت إلى المستوصف – الذي تحسنت إمكانياته كثيراً– ووضعوني على السرير، وأعطوني إبراً ومغذيات ، وغيرها من الأدوية، ومع ذلك لم يتوقف القيء والإسهال طوال يوم كامل وأنا داخل مستوصف العرين، و في اليوم التالي زارنا الشيخ سياف والشيخ عبد الله عزام والذي كان من عادته أن يزور المرضى والجرحى في العديد من الجبهات ، وكان معي – بجانبي – سلاحي الذي لا أفارقه ولا يفارقني (كالكوف) الذي غنمته من ذلك العلج الروسي ، ولأنني أحببت هذا الشيخ الفلسطيني لم أجد شيئاً وأنا طريح السرير وحالتي سيئة جداً لأعبر عن حبي له ، وقبل أن يصل إلي ومعه الشيخ سياف واللذان كانا يسلمان ويصافحان كل مريض وجريح واحداً تلو الآخر ، حدثت نفسي: ماذا أقدم لهذا الشيخ حتى أعبر عن حبي وتقديري له؟ وعندما وصل إلى قرب السرير الذي أرقد عليه أمسكت يده بقوة أريد من خلالها أن أنهض وخطرت لي دون تفكير فكرة أن أهديه سلاحي ، وعندما وضع يده بيدي، قال لي: لا بأس عليك لا تنهض، قلت له: بلى أريد أن أنهض ارفعني قليلاً ، وأنزلت يدي إلى تحت السرير وأخرجت له تلك البندقية ، وقلت له: يا شيخ ، إني لم أجد شيئاً أهديك إياه إلا هذا السلاح العزيز علي ، والذي غنمته من أحد أفراد القوات الروسية وأرجو أن تقبله مني.. كانت لحظة عاطفية رائعة ولم يتمكن الشيخ من أن يصمد خلالها ، فبكى وأبكانا معه ، وكذلك الشيخ سياف لم يصمد أمام تلك اللحظة ، حتى المرضى الأفغان الذين لا يجيدون اللغة العربية تأثروا بهذا الموقف. ولأننا كنا داخل كهف لم يكن به إضاءة جيدة فإن الشيخ لم يتعرف عليَّ إلا بعد أن سألني عن اسمي ، فقلت له: يا شيخ! أنا تلميذك أبو إبراهيم اليمني ، الذي رفض الكلمة الأخيرة عندما أردت إضافتها على اسمه ، وتذكر الموقف ، وعندما ضحكت عرفني من خلال المسافة التي تتوسط أسناني ، ثم تقدم إلي وقبل رأسي ووضع يده على رأسي ودعا لي ووضع الكلاكوف على

كتفه وخرج من أمامنا ، وما أجمله في تلك اللحظات وهذا السلاح على كتفه!! انتابني شعور لا أجد كلمات تصف تلك اللحظة ولكني في تلك الدقائق نسيت أنني مريض وانتهى الصداع الذي كنت أشعر به داخل رأسي وكأنه مولد كهربائي من شدة الألم!!.

وبعد يومين وأنا في المستوصف لم تتحسن حالتي ولم يتوقف الإسهال والقيء ، فأمروا بنقلي إلى بيشاور – للأسف الشديد– !!، وقد نقلت فوق سيارة "الإسعاف" مع جريح أفغاني.

وانطلقنا من معسكر العرين، ونزلنا وسط تلك الغابات التي تبقت ولم يقصفها الطيران الروسي، وتذكرت وأنا مستلقٍ على السرير وبجانبي الأخ المصاب الذي كانت إصابته خطيرة جداً ، وقد جيء به من لوجو وهي أبعد من جاجي ، حيث أصيب بقذيفة هاون (١٨٠ملم) وكان أخطر الأسلحة على الإطلاق، تذكرت تلك اللحظة عندما انزلقت من فوق حقيبتي إلى سطح السيارة التي كانت ممتلئة بالدم، وكنت خائفاً جداً تلك الليلة ، ولم أجد أي مقارنة في هذه الساعة وأنا أمر بنفس الطريق التي اجتزتها من قبل ، فقد كسر لدي حاجز الخوف ، ولم أعد أتأذى من صورة الدماء والأشلاء ، وما ميز عودتي هذه أن الطريق قد تحسنت كثيراً ، وكنت ألمح العمال وهم يشتغلون على جانبي الطريق ، وأشاهد المعدات من (البلدوزرات) التي كانت تمسح الطريق ، ثم خرجنا من حدود أفغانستان وانطلق السائق – بعد ما دخل الطريق الإسفلتي – بأقصى سرعة ، وكلما دخل طريقاً مزدحمة أو سوقاً أدار صوت السيارة (الونان) من أجل إفساح الطريق للسيارة، واستمرينا على تلك الحالة حتى وصلنا مدينة بيشاور..

وأدخلونا– أنا وأخي الأفغاني المصاب – المستشفى الكويتي ، وربما أنكم عندما تقرؤون كلمة مستشفى يتبادر إلى أذهانكم أنكم تشاهدون مستشفى أنيقاً

وحديثاً بأقسامه المتعددة والمتخصصة، وداخله ملائكة الرحمة كما يطلق عليهن (الممرضات)، لا . لا يوجد كل هذا في المستشفى الكويتي، إنها عبارة عن مسلخ!! لأن الداخل إلى هذا المستشفى يشعر أنه داخل إلى سوق للجزارة أو لبيع اللحوم وهو يشاهد الأيدي المقطوعة والأرجل المبتورة والوجوه المشوهة والبطون المبقورة، وأحياناً كنت أجد المصاب مربوطاً ومعلقاً على ثلاثة أعمدة!! هذا المستشفى وهذه هي الصورة داخل المستشفى الكويتي باختصار شديد وبتواضع!!

عندما وصلت سيارة "الإسعاف" أنزلونا أمام شيء مكتوب عليه "قسم الطوارئ" ولعمري لو رأى أحدكم هذا المكان لكنت على ثقة أنه سيذهب ليشتري قفلاً ويقفله بيده!!، ومع ذلك أنزلوني أنا والأخ الجريح الأفغاني، ووضعونا داخل غرفة ليست مكيفة ونحن في صيف ، ومعروف لدى من ذهب إلى بيشاور كيف يكون حرها ورطوبتها ، نعم . كان في الغرفة مكيف ومروحة لكنها لا تعمل!!، وجلسنا فترة كان يدخل إلينا بعض الأطباء أو الممرضين لا أدري فكلهم يلبسون الخرق البيضاء!! ، أخيراً بعد طول انتظار نقلوا الأخ الأفغاني الذي كنت أتألم لبقائه جانبي.. صحيح أنهم وضعوا له مغذيات — لا أدري ما هي وظيفتها؟ المهم عبوة تقطر إلى عضلة يده — وقد وضعوا فيها إبرة صغيرة أظنها مهدئة أو منومة، المهم أنهم نقلوه أخيراً لا أدري إلى أين؟ وأنا نقلت إلى قسم الباطنية ، وبعد إجراء الفحوصات تبين أنني أصبت بفيروس الملاريا (لا أذكر ما هو الاسم الذي أطلق على هذا النوع من الفيروسات) أذكر أنه قيل لي: عندك ملاريا ونوعيتها خطيرة وتحتاج إلى عناية حتى تتخلص منها ، وكانوا يمطرونني بعدد من الإبر كل يوم إضافة إلى الحبوب..

وبعد أربعة أيام وأنا نزيل هذا المستشفى الذي تمنيت أني لم أدخله!!، جاءني أحد الإخوة من مسئولي مكتب الخدمات حيث كانوا ينقلون أسماء

المصابين والمرضى إلى مكتب الخدمات ليعتنوا بهم وينظروا في أمرهم!! وعرفني بنفسه وكان اسمه (أبو جندل) وهو من فلسطين، وهذا الأخ قتل بعد عدة شهور داخل بيشاور في حادث مؤسف ، بعدما عرفني باسمه ذهب إلى إدارة المستشفى وتحدث مع الطبيب الذي يكشف علي ويتابع حالتي ، وأمر الطبيب بإخراجي من المستشفى على أن أظل تحت رقابته وأزوره كل ثلاثة أيام ، وأن أستريح لفترة وأتغذى جيداً.. الخ، بعد ذلك أخرجني الأخ (أبو جندل) وصعد بي إلى السيارة الخاصة بمكتب الخدمات وانطلق بنا إلى المضافة وأنزلني غرفة ممتازة ومكيفة، فحرارة الصيف في بيشاور شديدة ، ووجدت داخل الغرفة سريراً نظيفاً، وفيها أيضاً ثلاجة خاصة بالمرضى فيها الكثير من الفواكه والخضروات، والغرفة تتسع لثلاثة أسرة ولكنني كنت بمفردي لأنها خاصة بالمرضى وليس الجرحى ، أما غرف الجرحى فهي عديدة داخل المضافة ولها نظامها الخاص.

وقد قاموا بالعناية والاهتمام بي بطريقة ممتازة، ولم أشعر بأي ضيق، فإلى جانب الإمكانيات والمتطلبات التي كان يوفرها الإخوة العاملون في مكتب الخدمات – جزاهم الله خيراً – فقد كانوا يحيطونني بالحنان والمعاملة الأخوية المتميزة، وكان يزورني الإخوة الذين عشت معهم إما في الجبهة أو أثناء التدريب في معسكر صدى ، يزورونني بعد عصر كل يوم ، وكم كانت سعادتي غامرة والفرح يملأ قلبي وأنا أشاهد الإخوة وهم يزورونني ويدعون لي ، وكان بعضهم يضع مبلغاً من المال تحت وسادتي دون أن يعلم أحد بذلك!!، لقد كان أولئك الشباب قمة في الوفاء والإخلاص ، وكنا حقيقة كما وصف الحديث الشريف (كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر).. أولئك قومي فجئني بمثلهم!!، ليتني أستطيع أن أستعيد ولو ساعة وأعيش مثل

تلك الأيام أو الساعات ، لقد مكثت أياماً عديدة وأنا أتلقى التغذية والعناية (لو كنت عند والدتي لما وجدت مثل تلك العناية الطيبة)!.

وعند آخر زيارة للطبيب أجرى لي فحصاً للدم، وبعد أن ظهرت النتيجة قال لي الطبيب: الآن الحمد لله اختفى الفيروس من دمك ، ولكن حسب علمي أن هذا النوع من الفيروسات يعاود الظهور فجأة ويكون قوياً وأحياناً يكون قاتلاً ، نسيت اسم هذا الفيروس الذي علق عليه الطبيب ، وعند خروجي من المستشفى كان يرافقني هذه المرة أخ أفغاني من شمال أفغانستان كان اسمه "ذبيح الله"، طلبت منه عند الخروج أن يسبق بسيارته إلى مكتب الخدمات ، أو إلى عمله ، وأنا سألحقه بمفردي حيث أردت اليوم أن اختبر نفسي بعد أن طرحني المرض وأهلكني ذلك الفيروس الخبيث ، ونقص وزني أكثر من ١٠كيلو جرامات ، بعد أن علمت أن الإخوة العرب شكلوا فريقاً متواضعاً لكرة القدم وكانوا يلعبون داخل ملعب جامعة بيشاور، وكان داخلها العديد من الملاعب الجديدة والجميلة ، أردت أن أتمرن وأعيد بعض اللياقة البدنية ، وأوقفت من أمام المستشفى الباص الذي يصعد باتجاه مدينة أباد– المدينة الجديدة التي كانت تبنى يوم ذاك – ونزلت أمام الحرم الجامعي (كان ذلك يوم أن كان العرب مرحباً بهم من قبل الشعب الباكستاني وقيادته السياسية) والحق أن الشعب الباكستاني في تلك الفترة كان يحترمنا أيما احترام عندما كان لا يزال الشهيد خالد الذكر ضياء الحق – رحمه الله– في سدة الحكم ، لأن الناس على دين ملوكهم ، عندما نزلت وتقدمت إلى بوابة الجامعة ، سلمت على العسكري الذي يقف أمام بوابة الجامعة بزيه الباكستاني الجميل فرد علي السلام بأحسن منه ، ثم قلت له: أريد الدخول.

قال لي: تفضل إنك عربي مجاهد (قالها والله بهذا اللفظ).. سبحان الله وأنا أتابع هذه الأيام ما يجري داخل باكستان، وكيف انقلبت الموازين وتغيرت المفاهيم؟! .

بعد أن سمح لي العسكري بالدخول إلى الحرم الجامعي شاهدت العديد من الشباب وقد انقسموا إلى عدة فرق وكانوا يلعبون كرة القدم – اللعبة المشهورة عندنا نحن العرب – أما الباكستانيون فلم يكونوا يستهوونها بعد!! ولكنهم كانوا يستمتعون كمتفرجين!! وانطلقت أجري– جرياً خفيفاً – وسط تلك الأشجار الجميلة والحدائق المرتبة والنظيفة، واستمريت بالجري حتى شعرت بالتعب فتوقفت وأجريت عدة تمارين سويدية، ثم أخذت مكاني بين صفوف المتفرجين وكانوا قليلاً من الإخوة العرب والباكستانيين والطلبة، واكتفيت بهذا في ذلك اليوم ، عندها شعرت أن عافيتي قد استعيدت وأني قد استمتعت بيوم جميل ورائع ، وقد خرجت ونفسي متحسنة وحتى شهيتي مفتوحة للطعام، وقبل أذان المغرب تحركت مع بعض الإخوة العرب من وسط حدائق الجامعة وعدنا إلى المستشفى الكويتي، حيث كان هناك مسجد مستقل عن المستشفى، وكان إمام هذا المسجد شاباً أفغانياً كانت قراءته للقرآن رائعة جداً، وكان يشبه في قراءته إلى حد كبير قراءة المنشاوي – رحمه الله – وبعد أن أدينا صلاة المغرب ثم صلينا العشاء منفردين على اعتبار أننا مسافرون، خرجنا من الجامع، وقد شعرت بجوع شديد وطلبت من الإخوة الذين أرادوا مرافقتي أن يكون العشاء في تلك الليلة على "حسابي" وما عليهم إلا أن يختاروا أي مطعم يحبونه، وطبعاً كان معلوماً لدينا – نحن الشباب العرب– أن أشهر مطعم هو مطعم "العثمانية"، ولم يكن بعيداً عن المكان الذي كنا نتحدث فيه فقد كان على امتداد الشارع نفسه ، انطلقنا إلى مطعم العثمانية وأخذ كل واحد منا قائمة الطعام واختار

الطعام الذي يحبه ، وكان أجمل ما يميز المطعم هو "شربة" لا زلت اذكر اسمها (تشكن جالفريزي)، وأجمل ما كان في المطعم من الحلويات هو الآيسكريم "الكوكتيل" حيث كانوا خبراء في إعداد هذا النوع من الحلويات، وبعد أن استمتعنا بطعام العشاء رجعنا سيراً على الأقدام في ليلة جميلة، ولو أن حرها كان شديداً ، ولكني كنت أشعر عند عودتي إلى مكتب الخدمات بسعادة غامرة ، لأن العافية لا تقدر بثمن عند الذي يفتقدها .

وعندما وصلنا إلى المضافة أرادوا أن يقدموا لنا الطعام فشكرناهم وقلنا للأخ الأفغاني المسئول عن سفرة الطعام: إننا أردنا أن نغير الطعام فقد مللنا من طعامك وطبخك ، من باب المداعبة والمزاح!!، ثم شكرناه كثيراً، وعدت إلى غرفتي وما إن وضعت رأسي على الفراش حتى نمت ولم استيقظ إلا وقت صلاة الفجر، واستمر وضعي على ما هو عليه وبمثل هذا النظام ، وكان كل يوم يدعوني أحد الإخوة لأكون ضيفه في أي مطعم ، وقد كان بداخل المضافة أكثر من ثلاثمائة أخ من جنسيات عربية وغير عربية ، وكانوا كلهم على قلب رجل واحد ، والله ما سمعت أحداً منهم اشتكى أو تذمر أو اعترض أو ... الخ ، إن أنفسهم كانت صادقة، وأرواحهم كانت معلقة بالرحمن ، ولم يكن قد دخل فيها وبينها الخبث والأنانية والتطرف والحزبية، وكل تلك الأمراض التي ظهرت في فترة متأخرة، إن الذي جمع هؤلاء أخوة الإسلام والجهاد في سبيل الله ، وأتحدى كل فكرة أو نظرية أن تجمع تلك الإعدادات تحت سقف واحد في خندق واحد وجبهة واحدة ، وقد كنت شديد التعجب وأنا أشاهد هذا الجمع العالمي وأفراده يتنافسون من سيُقتل أولاً!! ولا أنسى في هذه المناسبة أخاً أمريكياً من ولاية (كاليفورنيا) كان اسمه "سيف الله" وكان أبيض الرأس وأزرق العينين وطويل القامة ، وكان معنا في الجبهة في منطقة "ماني كاندوا" بولاية "باكيتا" وكان لهذا الرجل

مواقف أبهرت حتى الأفغان الذين ضربوا المثل بالشجاعة والإقدام، كان سيف الله أول من أسقط طائرة (هيليوكبتر) روسية وبماذا؟ لن تصدقوا والعسكريون كذلك لن يصدقوا، لقد أسقطها بمدفع "٨٢" صيني الصنع!! وجدته ذات يوم في مكتب مجلة الجهاد – كان ذلك بعد فترة من هذا التاريخ الذي أتحدث فيه عنه الآن – قلت له بعد أن سلمت عليه وعانقني بطريقته الخاصة – التي من شدتها كاد ينقطع نَفَسي وهو يضمني إلى صدره! وكان يتحدث معنا بلغة عربية بعض جملها غير صحيحة – قلت له : يا سيف الله ، إنني ذاهب للعمرة فماذا تريد أن أدعو لك؟ فقال لي بالنص : (ادع لسيف الله الأمريكي ابن الكافر فإن أبي رفض أن يدخل الإسلام وأظنه الآن في أحد حانات كاليفورنيا يحتسي البيرة ويجالس المومسات!!)، قال لي هذه الكلمات بهذا النص ، إنني لا زلت أتذكر هذا الأخ حتى الآن فقد كان لي معه في الجبهة مواقف تكتب بماء الذهب وسأحتفظ بتلك الذكريات لنفسي، لأنها لا تعني أحداً ولأني رجوت الله أن لا أشرك معه أحداً وأن تكون خالصة لوجهه الكريم.

إن الجهاد يصقل النفس ويهذب الروح ويرتفع بالإنسان إلى أعلى عليين ، إنه – أي الجهاد– ذروة سنام الإسلام ، وقد أعجبني هنا أحد الحكماء وهو يصف طبيعة الإنسان وكيف إذا ينشأ إذ قال: (ولأن لكل شيء روحاً يحفظ بقاءه ويدفعه إلى المغالبة حتى الشجرة أيضا تغالب الشتاء بسياط رياحه وانهمار ثلوجه وبرغم تعريها وتشققها فإنه يختبئ فيها سر الربيع!! حتى أصبح عنف الشتاء ضرورة إخصاب وتجديد لأن الشجرة لا تخضر وتثمر إلا إذا انخلعت أوراقها البالية ولا تسمق إلا إذا خلصتها من زوائدها وطفيلياتها ، وكذلك الإنسان فإنه شريك النبات من حيث البناء).

أقول: إن الجهاد – بصفة خاصة– هو الذي يهذب النفس فيصقلها ويجعلها تحلق عالياً وتنظر إلى حقيقة الإنسان المسلم وماهيته ، وما هو دوره الذي خلقه الله من أجله؟ إن الجهاد هو الذي يرفع الإنسان عن سفاسف الأمور وعن انحطاط التفكير والتصور ويجعله ينظر إلى العالم بمسئولية وجدية.

إنه الجهاد الذي خلع عني وعن أولئك الشباب (الخليجيين) تلك الأدران والعصبية التي يمقتها الإسلام، إن الإسلام بعقيدته الصافية وتصوره للإنسان والحياة هو الذي جعلنا نبصر حقائق الأمور، وهو الذي ألف بين قلوبنا، وهو الذي استنفر كل تلك الجموع من أنحاء العالم العربي والإسلامي، إنه الإسلام الذي حول قتال الأفغان من قتال قومي (بين أفغان وروس) على قطعة أرض إلى جهاد عالمي شعاره "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن...) إنها تجارة مع الله الذي له ملك السموات والأرض ومن أصدق من الله حديثاً.

عودة أهم صديقين إلى بيشاور وسفرهما إلى بلادهما

استمريت في المضافة بأحسن حال مع أولئك الإخوة ، وبعد فترة وأنا على هذا الحال وعند عودتي في يوم من الأيام إلى مكتب الخدمات، وجدت أمامي عند ملعب التنس أحب أخوين إلى قلبي وهما اللذان كانا ينتظراني في "شكر درة" ، رأيتهما يلعبان التنس وكأنهما اشتاقا لمثل تلك الألعاب ، هما (أبو القعقاع وأبو الوليد)، ومن منظرهما عرفت أنه لم يمض على وصولهما فترة كبيرة ، حيث أنهما لم يكونا قد غيرا ملابسهما بعد ، حتى أن شعر رأسيهما كان قد بدأ يتدلى من على أكتافهما، وصورتهما كالأسود المزمجرة!!

بعدها لم أجد شيئاً يلفت أبا القعقاع وأبا الوليد سوى جملة كانت تضحك أبا القعقاع كثيراً ، أرجو أن يكون الأخ (أبو القعقاع) لا يزال يتذكر هذه العبارة إذا تمكن من قراءة هذه السيرة الذاتية التي أردت من خلالها أن أبرأ إلى الله مما يجري اليوم بحق إخواننا الأفغان الأبطال الذين تنكر لهم العالم بسبب الأطماع القذرة والسياسات الحقيرة ، وكم كنت أتمنى من كل قلبي لو أننا نجتمع في مناسبة – غير هذه – ولكنها الأيام والسنين وشياطين الإنس قد عملت على أن تفرق شملنا!!

وكانت تلك الجملة تطلق أو تستعمل أثناء الحراسة الليلية من قبل الأفغان بلغتهم ، وهي (درش تسكويه!!) يعني "توقف من أنت"؟ وعندها التفت ذلك الأسد ، وعندما تيقن مني تماماً قال : (استلما شيه وورورة) ومعناها (السلام عليك يا أخي)!! وقد تعلم "الباشتو" من شباب "شكر درة"، وتعانقنا معانقة أخوية

صادقة مليئة بالشوق والحب في الله رب العالمين، وقد جاء في الحديث أنه من ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة (رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه)، وكان يوماً سعيداً لم تسعني فرحتي بلقاء الأحبة ، وقد مضى على فراقي لهما أشهر عدة، كانا في تلك الساعة لم يغيرا ملابسهما بعد ، فقلت لهما: لتدخلا إلى داخل المضافة فتستريحا وأنا سأخرج إلى السوق أشتري لكما بدلتين جديدتين ، وأشتري أيضاً مستلزمات الحمام ، إن أشكالكما تحتاج إلى صنفرة "وربما ندخلكما ورشة للسمكرة"!!.

وقد أردت أن أحتفل بهما بطريقتي الخاصة على اعتبار أنني قد أصبحت على علم بكثير من مناطق وشوارع بيشاور.. وقبل أن نخرج من المضافة ومن أوساط الشباب الذين كانوا دائماً ما يحتفلون بكل أخ يعود من الجبهة، وكأنهم في مؤتمر صحفي! ويكون الأخ القادم حديثاً من الجبهة هو الذي يتلقى أسئلة الشباب عما يجري في الجبهة وعن القتال وعن الشهداء، وكان كل أخ قادم من الجبهة يصبح حديث السمر لعدة أيام حتى يأتي غيره وهكذا دواليك دواليك ..

وقبل الصلاة طلبت من الأخوين أبي القعقاع وأبي الوليد أن نخرج ونستريح من المؤتمر الصحفي الذي أقامه الشباب على شرفهما، والذي لم يكن سينتهي بسبب كثرة الأسئلة لهؤلاء الأخوين اللذين وصلا من أرض المعركة، وكان غبار المعركة لا يزال يشم على ثيابهما، طلبت منهما أن يستعدا لأننا سنخرج ونتعشى خارج المضافة على شرفهما "وعلى حسابي" ، فقاما واغتسلا ولبسا الثياب التي اشتريتها لهما ثم خرجنا، وكان يوجد قرب المضافة للشيخ جلال الدين حقاني مسجد صغير قد بني من الرخام ، وكان رائعاً جداً، وبناؤه وسط حديقة جميلة ، وإلى جانب المسجد سكة حديد للقطار أظنها قديمة، ودخلنا حديقة المسجد واستلقينا فيها لنستريح وكأننا جميعاً نريد أن نستعيد

ذكريات ثمانية أشهر قضيناها ما بين التدريب والجهاد، ونريد ترتيب تلك الذكريات وتخزينها داخل عقل كل واحد منا، لأننا في تلك اللحظة – ونحن مستلقون على ظهورنا وسط الحديقة الجميلة – لم ينبس أي منا بأي كلمة، وكأننا جميعاً نريد أن نستعيد ذاكرة تلك الأيام الخالدة، وأرجو الله أن تكون خالصة لوجهه الكريم وأن لا نشرك بتلك الأيام مع الله أحداً أبداً، ولم ننته من تلك اللحظات حتى أذن لصلاة المغرب فنهضنا، وكل واحد منا ينظر إلى الآخر وكأننا نقول لبعضنا: وصلت الرسالة وعلم الجواب نرجو من الله أن يثبتنا على هذا الطريق وعلى هذا الجهاد الذي أعاد إلينا روحنا وحقيقة وجودنا في هذا العالم، تهيأنا للصلاة، وصلينا مع الإخوة الأفغان، مع العلم أن كثيراً من أدعياء (السلفية) كانوا يرفضون الصلاة مع الأفغان، أو خلف إمام أفغاني، لأن هؤلاء الأفغان في نظرهم – كما كان يروج لتلك الحملات من الرياض عاصمة السلفية – مشركون وأصحاب بدع، ولم يكونوا جميعاً هكذا، فقد كان منهم أيضاً شباب ناضجون آتاهم الله الحكمة والبينة ونظروا إلى الجهاد الأفغاني بنظرة الرجل المسلم البعيدة النظر والطموح، وليس بنظر وأعين أصحاب القرار في الرياض.

بعد أداء صلاة المغرب مع إخواننا الأفغان خرجنا من المسجد وانطلقنا – مشياً على الأقدام – نريد مطعماً كنت أفكر به من خلال خبرتي لمدة ثلاثة أسابيع في بيشاور، ولأني أعلم مسبقاً أن هؤلاء الأفغان والأخوين أبا القعقاع وأبا الوليد، هم من الزهاد ولا يحبون التوسع في الطعام، فقد اخترت لهم مطعماً نظيفاً من حيث المكان ولذيذاً في طباخته، وكان اسم ذلك المطعم (أفغان ريوسترنت)، إنه حقاً متميز حتى عن مطعم العثمانية الذي كان أشهر المطاعم في تلك الأيام.

وعندما وصلنا المطعم صعدنا إلى الطابق الثاني وطلبت من الإخوة أجمل طبخة يتميز بها هذا المطعم، وكانت الدجاج المطبوخ مع الطماطم والبصل، وكانت لهم طريقة عجيبة في طباختها، ومع أن العشاء لم يكن يزيد عن ذلك فقد استمتعنا بعشائنا وشربنا الشاي المميز، ثم عدنا إلى نفس الحديقة الجميلة "حديقة المسجد" التي ذهبنا إليها قبل المغرب، وكان الليل قد أرخى سدوله وهدأت الشوارع من المارة ومن عربات الخيول المزعجة ، وسمرنا – ثلاثتنا فقط – في تلك الحديقة وبدأ كل واحد منا يتحدث عن أجمل اللحظات التي عاشها داخل أفغانستان بين الحديد والنار وأزيز المدافع والطائرات!! وتذكرنا الكثير في هذا الشأن ، ثم سألتهم عن البرنامج القادم فقالا لي إنهما سيعودان إلى وطنهما (الرياض) يزوران أهليهما وأقاربهما ، لأنهما كانا متزوجين ، وكان الأخ أبو القعقاع قد رزق بطفل قبل أن يأتي إلى أرض الجهاد ، وكذلك ليدعوان من يحبان إلى السياحة في أفغانستان!! ثم عدنا إلى المضافة وفي هذا اليوم كانت قد فتحت أول مضافة لأبي عبد الله – وإن لم يكن أعلن ذلك باسمه – بحجة أن عدد الشباب قد ازداد ولا بد من فتح مضافة جديدة تستوعبهم ، ولم يكن الشيخ عبد الله عزام يعلم بذلك!! وعندما علم الرجل اعتبرها من باب حمل ثقل عن كاهله طالما وأن صاحب هذا المشروع "أبو عبد الله"!.

في صباح اليوم التالي استلم الأخوان أماناتهما المودعة لدى الأخ المسئول عن الأمانات في مكتب الخدمات ، والتي كانت عبارة عن ظرف يوضع بداخله الأوراق والوثائق الرسمية والمال إن وجد ، وكان الشخص إذا أراد أن يسحب هذا الظرف يعطي الأخ المسئول اسمه ورقم الظرف إن كان يحفظه ، فيسلمه مسئول الأمانات الظرف بما فيه دون أن يفتحه.

كان هذا هو نظام مكتب الخدمات وهو النظام الذي سارت عليه أيضاً بقية المضافات التي فتحت ببركة الله ، ثم بفضل وكرم أبي عبد الله!!.

بعد أن حسم الأخوان (أبو القعقاع وأبو الوليد) أمرهما كان لابد لي أن أرافقهما إلى إسلام أباد ، وانطلقنا – على الفور – فوق "الركشة" وهي عبارة عن باص صغير ذي ثلاث عجلات ، وكان ذلك هو شكل (الباصات) في بيشاور!! ثم نزلنا من "الركشة" لنركب الباص "العمومي" الذي سيذهب مباشرة إلى "إسلام أباد" العاصمة الباكستانية الجميلة.

وبعد أن وصلنا إلى إسلام أباد توجهنا مباشرة إلى مضافة الشيخ سياف في إسلام أباد بعد أن كنا قد أخذنا عنوان المضافة من مكتب الخدمات، ووصلنا إلى المضافة بعد رحلة ممتعة وهادئة فرحبوا بنا أجمل ترحيب، ثم صعدوا بنا إلى الطابق الثاني من "العمارة"، والذي كان مخصصاً للضيوف العرب.

وفي اليوم نفسه الذي وصلنا فيه إلى مضافة الشيخ سياف خرج الأخوان إلى مكتب الطيران السعودي – وكان قريباً من مضافة الشيخ سياف – وحجزا على الطيران السعودي للعودة إلى بلدهما ، جلسنا يومين واستمتعنا بهما في إسلام أباد العاصمة الجميلة والنظيفة اللهم من كثرة طائر الغراب بداخل العاصمة الباكستانية، وكانت إضافة إلى ذلك فيها كل الخدمات ، وكنا نصعد في الليل إلى جبل كان به مطعم وعدد من البوفيهات ، ومن ذلك الجبل الذي يطل على العاصمة كنا نشاهد الغابات الجميلة التي تغطي أغلب مناطق العاصمة الباكستانية ، وبعد قضاء اليومين كان موعد الطيران ينتظرنا فاتجهنا في منتصف اليوم الثالث إلى مطار إسلام أباد الدولي، وبداخل صالة المطار ودعتهما واستودعتهما دينهما وأمانتهما وخواتيم أعمالهما، ووعداني بأن لا يتأخرا بالعودة إلى أرض الجهاد.. وكان ذلك الوداع نهاية سنة ١٩٨٧م .

وبعد أن ودعتهما عدت بمفردي إلى مضافة الشيخ سياف وحيداً أجر معي ذكريات أطيب أخوين عرفتهما في أرض أفغانستان.. اللهم اجمعني بهما في الفردوس الأعلى .. آمين ، ولم أشعر بالضيق إلا عندما دخل الليل لأنني كنت الوحيد في الدور الثاني بمضافة الشيخ سياف والذي كان مخصصاً – كما قلت – للضيوف العرب ، ولهذا ضقت ذرعاً في تلك اللحظة واضطررت أن أخرج خارج مضافة الشيخ سياف وأن أمشي وسط الأشجار، والتي كانت تزعجني أصوات الغربان الكثيرة جداً ، اضطررت أن أوقف سيارة "تاكسي" لأصل بسرعة إلى وسط السوق ، حيث كنت في تلك اللحظة أريد أن أتحدث مع أي شخص كان.. ونزلت من فوق التاكسي وسط سوق العاصمة ، وتمشيت قليلاً ثم دخلت مطعماً ، وكان أمام هذا المطعم "سوبر ماركت" كبيرة على النمط الأمريكي كان يرتادها أعضاء السلك الدبلوماسي والأغنياء من الباكستانيين ، وبينما أنا داخل المطعم إذا بأحدهم يتقدم إلي وعلمت – من منظره – أنه عربي وكان ملبسه أنيقاً ولم يكن يلبس الزي الباكستاني الذي كنت ألبسه (فوق رأسي القلنسوة الأفغانية المميزة) ووصل هذا الشخص إلى جانبي، مباشرة قال لي: الأخ عربي؟ فقلت له: نعم ، وحييته ، وطلبت منه الجلوس فعرَّفني بنفسه وأنه جاء إلى أرض باكستان ويريد أن يصل إلى بيشاور ليبحث عن أخيه الصغير – كما قال – وأن والدته قد أصيبت بمرض السكر بعد علمها بأن ابنها ذهب إلى أفغانستان ليقاتل مع الأفغانيين ، وأن هذا المجنون!!! قد ترك جامعته ومستقبله و... و..الخ.

إنه يريد مساعدتي له في البحث عن أخيه بعد كل تلك المقدمة التي أراد منها أن يُكوّن معرفة بي ، استطرد في حديثه قائلاً: إننا نحن العرب ضحية مؤامرة – كما قال– يقوم بها الكبار!! (يقصد بالكبار أمريكا وروسيا) اسماهم الكبار مع أنه يسمع في كل أذان – حتى ولو لم يكن مسلماً فإنه يسمع في بلده وهنا في

باكستان وفي كل مكان – أن (الله أكبر) وسقط من نظري ، مع أنه شخصية أنيقة ، ولكن داخله خاوياً وليس له هوية!!، إلى هنا لم أعلق على أي كلمة قالها – كنت فقط – أهز له رأسي وربما أعتقد أن هز رأسي هو موافقة لما يقول ، وتوسع الرجل بالحديث العام على القضية الأفغانية وأن مكاننا – نحن العرب – ليس هنا في أفغانستان ، بل في فلسطين؟!!..

وبعد ما انتهى من حديثه ، قلت له: أنهيت كلامك؟ قال لي : نعم .. وأرجو أني ما كنت قد آذيت حضرتك!!، قلت له: لا عليك فإن من خصوصيتنا نحن العرب – التنظير والخطابة – !! وأردت بهاتين الجملتين أن أشده إلي ، ثم قلت له: كما سمعتك وأنت تتحدث ولم أقاطعك بجملة واحدة تأدباً للحوار ، أرجو أن تسمعني أيضاً دون مقاطعتي ، ولن أتحدث كثيراً فاسمع مني: إنني أريد أن أسألك بعض الأسئلة : من ذا الذي أخرج الشاب السعودي من منزله ومن جانب زوجته الحسناء وقصره الكبير الذي يحوي بداخله كل مستلزمات الحياة والراحة والذي لا يمكن أن تطمح به أنت وأنا على اعتبار أننا لسنا من دول النفط؟ ما الذي جعل الشباب يعترضون الذهاب إلى بانكوك ثم يممّوا وجوههم شطر بلاد الأفغان ؟ ما الذي جعل الشاب يترك آخر موديلات السيارات التي بداخل حوش قصره ؟ وما الذي جعله يترك أرصدته في البنوك داخل بلده وخارجها؟! من الذي أخرج الشباب من كل الجنسيات العربية والإسلامية ومن أوروبا الغربية وحتى من أمريكا؟ من الذي جعل هؤلاء يتوجهون جميعاً إلى داخل أرض أفغانستان يطلبون الشهادة في سبيل الله ؟؟

أم لأنهم علموا أن آبائهم تركوا لهم ملكاً أو إرثا داخل أرض أفغانستان ، أم أنها اللعبة الدولية بين الكبار كما زعمت أنت ؟؟!! أما أنا فبمناسبة ذكرك الكبار فإني أتصورهم بل واعتقد جازماً أنهم أحقر وأصغر وأجبن الخلق (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) وأنصحك هنا – باعتبارك عربياً وصاحب رسالة عالمية ومسلماً – أن تتوب إلى الله من تلك الكلمة التي وصفت بها أمريكا وروسيا (بالكبار)!!، هل تستطيع أن تجيبني على سؤال صغير وبسيط بالنسبة لي لأني أعلم لماذا ولكني أريد أن أسألك هذا السؤال الأخير: ما الذي جعل العربي – كما أسميتهم العرب السذج والمتهورين – يطلب مني وهو داخل أرض المعركة ويقول بالحرف الواحد: أريدك يا أخي ، أن تدعو الله بأن يرزقني الشهادة بقنبلة طائرة وزنها (١٠٠٠كيلو)(طن) حتى لا يرى من جسدي قطعة ولا يوارى الثرى؟!!

يا أستاذنا ، إني آسف أنكم تعلمون ظاهراً من القول، وكنت أتمنى على الذي أعطاكم هذه المعلومات أن يكون دقيقاً وأن ينقل الصورة كاملة عن ما يجري داخل أرض أفغانستان ، إن هذه روسيا التي تدعي أنها دولة عظمى قد هزمها ثمانية عشر أخاً عربياً وثمانون مجاهداً أفغانياً في معركة "جاجي" ، المعركة التي حاول الروس من خلالها دخول تلك المنطقة (منطقة جاجي) للمرة الثالثة، وإذا كنت ممن يدعون أنهم مطلعون على الوضع وعلى سياسة العالم وما يدور فيه ، فأرجوك أن تعود إلى ما قالته الصحف الرسمية الباكستانية من خلال تصاريح كبار الجنرالات الباكستانيين عن معركة جاجي، وأيضاً ما صرح به قائد الحملة الروسية عندما عاد إلى كابل مهزوماً مدحوراً يجر وراءه أذيال الهزيمة ، ارجع إلى تصريحه وماذا قال للتلفزيون الروسي ولوكالة الأنباء هناك في كابل.

إن هؤلاء الشباب – يا أيها المثقف والمطلع – قد هزموا الروسيين ، وإذا كنت تريد أن تتكلم في السياسة فإني أتفق معك بأن أمريكا كانت مرتاحة وسعيدة بانزلاق الجيش الروسي إلى داخل أرض أفغانستان ليغرق كما غرقت هي

من قبل على شواطئ نهر (الميمكونغ) في فيتنام ، ظنت أمريكا أن الفرصة قد حانت للتنفيس عن أحقادها في فيتنام ولتحطيم أعدائها التقليديين الشيوعيين والمسلمين معاً ، واستنزاف القوى البشرية والاقتصادية والعسكرية للطرفين!!

إذا كنت تقرأ جيداً فارجع إلى ما قاله (غورباتشوف) في القمة التي جمعته مع الرئيس الأمريكي ريغان من أن أفغانستان هو جرحها الدامي!!، وارجع أيضاً إلى ما صرح به قبل فترة الرئيس الفرنسي (ميتران) من أن أفغانستان سرطان في جسد روسيا سيأكلها كلها!! ولن أزيد بالاستشهاد على ما قاله أعداؤنا.

كنت أتمنى من الأمريكان والبريطانيين وهم ينقلون تقاريرهم من خلال منظماتهم الصليبية التي وصل عددها الآن إلى أكثر من ثلاث وعشرين منظمة تعمل باسم إغاثة المهاجرين ومن خلال الأقمار الصناعية ومخابراتها المنتشرة ومراكز أبحاثها ، حتى أنني قرأت مؤخراً أن الجامعات الأمريكية قد فتحت قسماً خاصاً لدراسة الحالة الأفغانية.

كنت أتمنى من خلال ذلك كله لو أن الأمريكان والإنجليز وهم يرسلون التقارير إلى بلادهم أن يعطوكم صورة طبق الأصل من نفس النسخة التي ترسل إلى بلدانهم، غير منقحة ولا محسنة، ولن أطلب منكم أن تكلفوا أنفسكم وتتكرموا وتدخلوا إلى أرض الواقع ، وإذا شئت فأنا على استعداد من الآن أن أوصلك إلى أي مكان في أفغانستان وتطلع بنفسك على الواقع ، وكيف أن الذي تسميه اللعبة الدولية ليس صحيحاً ، لأنه لا يمكن لشريك في لعبة أن يسمح لنفسه ويظهر للعالم بأنه مهزوم ، وقد كسرت شوكته وتحطم جيشه ومسحت كرامته وهيبته!! فكيف يكون ذلك وتسميها لعبة، أقول لك يا أستاذ ، بكل صدق والرائد لا يكذب قومه لأن ذلك جزء من عقيدته : إذا كنت حريصاً على أن تعلم يقيناً

بما يجري لا أن تكون ثقافتك ومعلوماتك من خلال تقارير مشبوهة ، ناهيك على أنها من عدو حاقد "لا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة" لماذا لا تكون لكم مراكزكم الخاصة والمستقلة لاستقاء المعلومات ، وأن لا تكونوا ببغاوات ترددون ما يقوله أعداؤنا: (وإذا سمعوا أمراً من الأمن أو الخوف أذاعوا به) عن تلك الدول المشبوهة (كنت أحدثه بهدوء ولم يسمعنا أحد ونحن في داخل مطعم محترم جداً من نزلائه العديد من الشخصيات الأجنبية وكذلك العربية تبينت ذلك من خلال السيارات التي كانت تنزل بهم أمام المطعم).

وبينما أنا مستمر بحديثي مع ذلك المسكين الذي أشفقت عليه ذاب "الآيسكريم ألبيتي" داخل كأس كبير، قلت له في الأخير: إن كنت جاداً فأنا على استعداد لأنتقل معك صباح غد إلى بيشاور ونبحث لك عن أخيك الذي تدعي أنه هناك، وإن لم نجده نبحث عنه في بقية المعسكرات أو الجهات إذا شئت!! ثم قمت أريد أن أغسل يدي وأترك فرصة لهذا الرجل ليفكر بما قلته ، وعند عودتي من مكان الغسيل جلست ونظرت إليه وقلت له مباشرة: إذا أردت أن أساعدك فأنا على استعداد وأخرجت ورقة وقلماً وكتبت له عنواني في بيشاور ورقم تليفون مكتب الخدمات، واسم الشارع ، وقلت له: هذا هو عنواني والآن سأتركك في أمان الله سأنتظر مكالمة منك أو زيارة! ولم يعقب على ذلك وتركته داخل المطعم وتركت إسلام أباد أيضاً!!

العمل بمشروع الشيخ عبد الله عزام

صباح اليوم التالي عدت إلى "بيتنا" وإلى "شباب يريدون الله والدار الآخرة ولا ينظرون إلى الخلف وإلى المتخلفين"!!

وكان في منتصف ١٩٨٧م عدد الإخوة الشباب يزداد بفضل الله ثم بجهود إمام وسفير الجهاد أبي محمد عبد الله عزام ، فقد وصل عدد الإخوة قرابة ثلاثمائة وخمسين إلى خمسمائة شخص أو ينقص قليلاً ، حسب إحصائيات مكتب الخدمات من خلال قسم الأمانات، الذي تولى أمره أخ جديد كان قد وصل حديثاً من أمريكا، وهو فلسطيني الجنسية وكان اسمه (أبا الفاروق) وهو متزوج من أمريكية مسلمة أتت معه إلى بيشاور ، وجلست أنتظر سفير الجهاد الشيخ عبد الله عزام ، الذي أطلقت عليه تلك التسمية ، وقد كان كذلك بحق فقد كان واجهة الجهاد وعنوانه خارج حدود باكستان ، وكان يطوف العالم ليعرف المسلمين والعالم بأسره بهذا الجهاد وحقيقته وما يدور من حرب عالمية ثالثة داخل أفغانستان، وبعد جمعتين من انتظاري له في بيشاور حتى عاد من رحلة خارجية له ، ذهبت إليه في مكتب مجلة الجهاد ، وسلمت عليه وسألني عن صحتي وماذا أعمل الآن؟ فقلت له: إنني حتى الآن لست كما عهدت نفسي، فأنا أشعر أنني لست بصحة جيدة وأنا أريد أن أعود إلى المكان الذي كان يتواجد به الأخوان اللذان تركاني قبل فترة وعادا إلى بلادهما ، فقد وصفا لي الكثير عن مديرية "شكر درة" وكيف أنها منطقة تكثر فيها العمليات بسبب قربها من العاصمة كابل..الخ . وبعد أن سمع الشيخ عبد الله عزام مني هذا الكلام ، قال لي: اسمع إننا بحاجة إليك وإلى عدد من إخوانك الذين تختارهم ، أريد أن أشكل فريق عمل خاصاً بمتابعة أحوال المجاهدين وتسجيل أسماء أبناء وبنات الشهداء ،

وتصويرهم، وعمل ملف خاص بهم عندنا، فأنا قد أتيت من هذه الرحلة ومعي مبلغ خاص بكفالة الأيتام ، وستزورون أولاً المعسكرات التي على الحدود وسيكون معكم مندوبون من التنظيمات الأفغانية الثلاثة (الحزب الإسلامي – الاتحاد الإسلامي– الجمعية الإسلامية)، هؤلاء المندوبون من الإخوة الأفغان سيكونون عوناً لكم، يساعدونكم بالمعلومات، لأن أسماء الشهداء وعائلاتهم معروفة لديهم من خلال الكشوفات الأساسية التي بحوزتهم.. فما رأيك؟

قلت له مباشرة: يا شيخ ، إنك أميرنا داخل هذه البلاد وإني – والله – أحبك في الله أكثر من نفسي لأني أحسبك صادقاً مع قضايا الأمة ، ولا أزكيك على الله. فقال لي: إذاً نتوكل على الله.. صباح غدٍ أريدك في المكتب – بدار المضافة –فأنا قد خصصت قسماً في المضافة لإدارة شئون الأيتام وكفالتهم.

والحمد الله فقد وفقنا الله تعالى في هذا المشروع ، والذي أدراه أبو حمزة الفلسطيني إدارة جيدة واستمرينا بالتنقل بين المعسكرات، وأحمد الله أنني تمكنت من الاطلاع – من خلال هذا العمل – على حقيقة هذا الشعب العظيم وكيف أنه يرضى بالحياة – القاسية جداً – مع الحفاظ على كبريائه ودينه وعزته إذ لو كان دينه الحياة وزخرفها تعدل في ميزانهم شيئاً لقالوا بساتينهم ودورهم تشبه في جمالها الأحلام رغم بساطتها إنها غرف تجري من خلالها الأنهار والثمار لا تحتاج ربة البيت سوى أن تزيح الستار وتقطف الثمار ، لكنهم هجروا هذه الحياة الشاعرية وهاجروا بدينهم ، لقد رأيت بأم عيني الأسرة والأسرتين يعيشون في خيمة واحدة وما وصلت إليهم إلا بشق الأنفس وبعد تردد عدة أشهر على أبواب المنظمات (الإغاثية) وبين الحدود كي يحصل على خيمة ، ولقد رأينا بعض الناس وقد أقبلوا (بحزم من البرسيم – أموال سعودية مشبوهة – يظنون هذا

الشعب كغيره من الشعوب ، وحاولوا أن يفرضوا عليه آراء بعيدة عن تفكيره وقناعته فنبذها ونبذهم) (وكله باسم الدين)..

وقد وجدت من خلال تلك التجربة في العمل مع أبي حمزة، أن الإسلام أولاً صقل معدن هذا الشعب (الأفغاني) فأصبح الوفاء لهم سجية، والشجاعة لهم صبغة، والعزة لهم طبعاً، والحياء لهم خلقاً، والنخوة لهم أرومة، وأصبح الزهد ديدنهم، والرجولة عنوانهم ، والعزة سمتهم.

والحق أقول إنني ومن خلال معايشتي للمهاجرين الأفغان لم أجد من الشاكين والرافضين والساخطين إلا القليل!! وكنت أنظر لطبيعة حياتهم، وقسوة ظروفهم في الحر والبرد ، فأهون أمر عندما أجد خيمة مساحتها (ثلاثة في ثلاثة أمتار) يسكن فيها ستة إلى ثمانية أفراد (أطفالاً ونساء وشيوخاً) ولا يملكون سوى وجبة واحدة أساسية فقط وهي طعام العشاء، ولا يملك رب هذه الأسرة قوت يومه.

ورغم كل تلك الصور المأساوية التي لا نستطيع وصفها رأينا كيف استقبل الرئيس الأمريكي السابق (نيكسون) من قبل هذا الشعب الفقير من أسباب الأرض، ولكنه الغني، العزيز بانتمائه لهذا الدين الذي أعزهم الله به، وكسروا أنف أشرس جيش على وجه الأرض ، وخرجت بخلاصة، زادتني إيماناً وتسليماً ، وهي أن الإنسان المسلم أعز وأشرف وأقوى مخلوق على وجه الأرض إذا كان مرتبطاً بالله عز وجل ويؤمن – بحق – أن الرزق والأجل ، والحياة والموت بيده وحده لا شريك له.. خرجت بتلك المفاهيم التي نقرأها – نحن – في كتبنا ولكن الشعب الأفغاني عاشها حقيقة واقعية ، وصحح بذلك المفاهيم التي نقرأها لعقيدة التوكل على الله ، والغريب أننا كنا نسمع بعض من يردد – في الجزيرة العربية – ممن يطلقون على أنفسهم السلفيين وأصحاب عقيدة السلف الصالح!

أن الأفغان مشركون وأصحاب بدع ، هؤلاء للأسف ينتسبون إلى تاريخ السلف ظلماً وعدواناً ، إذ عبر التاريخ الإسلامي لم يُكفر أحد أو يفسق بسبب تركه سنة من السنن (إن صحت)!! ولا يعقل أن تشق صفوف الأمة بسبب مسألة خلافية ليست من صميم هذا الدين، ولا من أسس عقيدته ، إذ لا يعقل – بأي حال من الأحوال عند كل ذي لب – أن نترك الفريضة وننادي ونسعى بل وأحياناً نقاتل من أجل سنة مشكوك بصحتها ، إن ذلك – للأسف – هو ما كان يقوم به البعض و يسعون جاهدين بإمكانياتهم المادية وتأثيرهم السياسي لبث روح الفرقة وتمزيق صفوف المجاهدين الأفغان والعرب!! إنهم أصحاب الريال السعودي!! وما ظهور المدعو "جميل الرحمن"، الذي أعلن إقامة إمارة إسلامية سلفية سنية سعودية داخل ولاية كونر، بعد أن تم فتحها من قبل جميع المجاهدين إلا بسببهم ، بل أستطيع القول إن الذي صنع من جميل الرحمن أميراً للمؤمنين سنة ١٩٨٩م وعمل جاهداً على زرع (الطريقة الوهابية) بين الأفغان هو نفسه الذي صنع الملا محمد عمر! فجميل طالباني مصغر ولكن الفكرة هي الفكرة ، وبما أنني في هذا المقام أتحدث عن تجربتي الشخصية إلا أنني أفكر أن أكتب بحثاً مستقلاً عن ظاهرة الوهابية ومتى وكيف ولماذا ظهرت في بلاد أبي حنيفة النعمان ؟!!

وكان هذا الرجل "جميل الرحمن" يعمل في المدينة المنورة ، وفجأة ظهر علينا بخيله وريالاته السعودية وأعلن عن مشروعه وأنه يريد قتال المشركين،! وأصحاب البدع والتمائم!!، وكان يقصد بذلك الأفغان طبعاً!!.. وسيأتي ذكر هذا الرجل مفصلا في مكان آخر .

ولكن ما جعلني أتطرق إلى هذا الموضوع في هذا السياق إنما هو مشكلة المهاجرين الأفغان، والذي بلغ عددهم حسب الإحصائية الرسمية أربعة ملايين ونصف المليون ، إذ كيف يعقل أن يهاجر هذا العدد الكبير من شعب واحد فاراً

بدينه وعرضه وعقيدته من الشيوعية الحمراء التي كانت تستبيح رقاب المسلمين وأعراضهم ، وقد يخرج هذا الأفغاني من أرضه ووطنه وهو لا يملك شيئاً وقد ترك منزله ومزرعته ، وقد رأيت بنفسي جمال أرض أفغانستان ومزارعها الخصبة وأرضها المباركة، ترك هذا الأفغاني تلك المزارع والأنهار التي تجري فيها ، وفَرَّ بدينه وعرضه إلى أرض باكستان وشعبها .

في البداية وقد أحسن الشعب الباكستاني ضيافة أخيه الأفغاني، ثم بعد كل تلك التضحيات من أجل عقيدة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، يأتي إلينا هؤلاء في القرن (العشرين) يشككون بعقيدة هذا الشعب المسلم ويتهمونه بالشرك والزندقة، إلى آخر تلك الفتاوى الظالمة!، وإذا كانوا كذلك في شركهم وضلالهم فإن الله قد قيض لهم ثلاثاً وعشرين منظمة عالمية لخدمتهم ومعالجتهم وتغذيتهم ، والمسح على رؤوس أيتامهم من قبل أصحاب الصليب!!، بغض النظر عن حساباتهم السياسية، لأن أولئك النصارى كانوا قد علموا ما قدمه هذا الشعب من تضحيات عظيمة أذهلت العالم بأسره إلا نحن العرب "الببغاوات"!! إن بلغ الوصف لبني الأصفر (النصارى) ما حكاه لنا سيدنا عمرو بن العاص "لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى".

وانطلاقاً من هذا المبدأ الرباني العظيم الذي لم يأت ليخاطب "بدو الجزيرة" فقط ، قال المولى عز وجل : (ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) ونقرأ خبراً لسيدنا(عمرو بن العاص) يقول فيه: "إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة ، وخيرهم لمسكين وضعيف ويتيم – وحسنة خامسة جميلة– وأمنعهم من ظلم الملوك!!!" لكننا – للأسف – مقابل هؤلاء ندعي انتماءنا للإسلام ونتنكر له في آن واحد ، منتمون له بالميراث وخارجون عنه مادياً وأدبياً!! ونتيجة لهذا كله استطاع

النصارى أن يقطفوا ثمار ذلك الجهاد وتضحيات ذلك الشعب وتسيير ذلك النفير العالمي الذي أحدثه جهاد الشعب الأفغاني لصالحهم!! ونحن نقاتل داخل بيشاور تحت قيادة أسامة بن لادن على أين نضع اليد في الصلاة في الصدر أو في السرة أو تحت السرة؟!! إن العرب والمسلمين كانوا يلهون ويلعبون بأخطر قضية في الأرض، إنهم أغفلوا وجحدوا حقوق الشعب، وتركوهم للغرب ليعبث بقضيتهم حسب مصالحه السياسية، إنهم تركوا أصالة وقدرة الشعب الأفغاني القتالية، ووفاءه لدينه، وأغفلوا دوره الذي كان ينتظره العالم بأسرة، فالله تعالى أمر بالصدق وقول الحق ولو على أنفسنا .

العودة إلى أفغانستان

وتأسيس معسكر "ليجه"

استمريت بعملي مع الفريق الذي شكله "أبو حمزة" في خدمة أبنا الشهداء، والأيتام داخل معسكرات المهاجرين ، التي كانت منتشرة في المناطق القريبة من الحدود الأفغانية – الباكستانية ، وقد أدينا – ولله الحمد – واجبنا كما ينبغي ، وسجلنا الأعداد التي طلبها الشيخ عبد الله عزام – رضي الله عنه – بحسب الميزانية التي كانت مخصصة لهذا الباب (باب كفالة الأيتام وأسر الشهداء) ، وأذكر أننا سجلنا أكثر من ستة وثلاثين ألف أسرة ويتيم ، وكنا نقطع لهم الاستمارات ونأخذ لهم صوراً شخصية (مقاس ٤×٦)، وكان يُفتح لهم ملف في مكتب الخدمات وتوزع لهم المعاشات الشهرية والمساعدات العينية التي كانت متوفرة لدى مكتب الخدمات.

وبعد أن انتهينا من تلك المهمة أعلن النفير أو حالة النفير القصوى على "خوست" المحمية العسكرية لنظام نجيب والروس أيضاً، وقد أراد الروس أن ينقلوا معركتهم إلى مكان قد يكون أسهل – حسب نظرهم – من منطقة "جاجي" والتي كانت غاباتها من العوامل المساعدة للمجاهدين، ولذلك استطاعوا أن يصدروا ثلاث هجمات (في كل صيف هجمة)، لهذا تحركت القوات العسكرية الروسية من "قرديز" ومن جميع أماكن تواجدهم في ولاية بكتيا ، وكعادة الإستراتيجية العسكرية الروسية (حرق كل شيء على الأرض وتسويته) قامت القوات الروسية بقصف جوي مكثف على المنطقة لدرجة أن الطلعات الجوية للطيران الروسي فوق

منطقة (جاور وجهاد وال) كانت من عدد يفوق خمسين طائرة ، واستمر ذلك الهجوم أكثر من عشرين يوماً سقط خلاله المئات من الشهداء.

ولأول مرة يصل عدد الشهداء من المجاهدين إلى أكثر من مائتين وخمسين شهيداً، واستطاعت القوات الروسية أن تسيطر على جاور والمناطق المحيطة بها حتى وصلت إلى نقطة التفتيش الحدودية بين أفغانستان وباكستان، بل وقصفت ذلك المركز الحدودي وقتلت عدداً من الجنود الباكستانيين ، مما اضطر المجاهدين بقيادة الشيخ جلال الدين – الذي أصيب في تلك المعركة بحروق من جراء قذيفة طائرة – للانسحاب مع قائدهم إلى مديرية "ميرام شاه" الباكستانية ، حيث يوجد في هذه المديرية المركز الإداري والتنظيمي للشيخ جلال ومخازن أسلحته. هنا أعلن الشيخ جلال الدين النفير العام من خلال رسالة وجهها عبر تنظيمه السياسي والمركزي بقيادة الشيخ الفاضل العالم الزاهد (يونس خالص) وكان مقر الحزب داخل قرية (بابي) القريبة من بيشاور ، الغريب أن هذا الرجل (يونس خالص) هو الوحيد الذي لم أجد له مضافة باسمه في أي مكان سوى مقر الحزب الذي كان فيه منزله الخاص ، وفي نفس المكان (قرية بابي للمهاجرين) البعيدة عن خبث وخبائث بيشاور وما كان يدور فيها!! اختار قرية بابي بتواضعها الجم وأصالة ساكنيها ومنازلها المصنوعة من الطين ، ومجرى المياه التي تشق وسط الشوارع ، ولم يسع للانتقال إلى القصور الفارهة والأحياء النظيفة.كما صنع بعضهم!

وليت شعري لو أن الذين كانوا يتبنون الإعلام والدعاية على الجهاد الأفغاني والمجاهدين من أبناء (الحركة الإسلامية العالمية) ليتهم كانوا صادقين مع تلك القيادة الصادقة، بدلاً من الجري وراء القيادات التي كانت تجيد الخطابة، لأنهم خريجو جامعات مصر، ولأنهم أيضاً منتمون لتنظيم

الإخوان المسلمين وأعني بهم سياف ورباني – للأسف الشديد – حتى التيار الإسلامي مصاب ببعض الأمراض مثل الولاء الضيق والعمل مع الذي ينتمي لمدرستي أو فكري ....الخ.

لقد جاء الإعلان عن حالة النفير العام أو حالة الطوارئ الذي أعلنه الشيخ جلال الدين حقاني بعد سيطرة القوات الروسية والشيوعية الأفغانية على المناطق والمراكز التي كانت تتبع الشيخ جلال وهي (ماني كاندوا – وستى كاندوا– وجهاد وال – وليجة) (الأخيرة كانت مقراً لمعسكرنا المبارك)، وانتهاءً بأهم منطقة وهي (مجموعة معسكرات ومخازن جاور).

كل هذه المناطق سيطر عليها الروس، بل واستطاعوا أن يخرجوا المجاهدين إلى خارج أرض أفغانستان ، واضطر من تبقى منهم إلى أن ينسحب إلى مديرية (ميرام شاه) وفي الظروف العصيبة وقد وصلت الحرب إلى النقطة الحدودية الدولية التي تتبع الجيش الباكستاني وصلنا جميعاً – نحن العرب – على دفعات إلى "ميرام شاه" وقد كانت هذه المديرية تغص بالآلاف من المجاهدين الأفغان ، وكان عددنا نحن العرب لا يزيد عن ١٥٠ – ١٧٠ شخصاً على أكثر تقدير، ووزعنا إلى ثلاث مضافات أو بيوت، وكان معنا الشيخ عبد الله وبصحبته أبو عبد الله أسامة بن لادن..

جلست في إحدى هذه البيوت ومعي أسامة بن لادن أربعة أو خمسة أيام متواصلة ، وكانت الميزة الوحيدة في ذلك الوقت التي كان يتميز بها وعند الذين كانوا يعلمون من هو هذا الشاب لأنه – وكما تعلمون– لا يعنينا زيدٌ من الناس أو عمرو، لأن الله قد أعزنا بالإسلام وبالجهاد المبارك الذي ساوى بيننا جميعاً ، اللهم إلا أنه قد جاهد بماله ونفسه .

لأن غنينا وفقيرنا في خندق واحد ، والمقياس والمعيار هنا هو مدى شجاعة وثبات وصدق هذا من ذاك، وكنت أرى في هذا الرجل هدوءاً يكاد يكون قريباً من الصمت، وكان يلتف حوله كالسوار بالمعصم الإخوة المصريون ، وأكرر و أشدد هنا(الإخوة المصريون) !!! وكنت أجد فيه صمتاً غريباً ، ولم يكن يتميز عن أي شخص آخر إلا أنه بن لادن!! ولم أكن أسمع منه إلا : وزعوا القافلة أو الحمولة في منطقة كذا، وأنزلوا الحمولة أو القافلة عند الشيخ فلان. والحق أقول : إنه موّل شخصياً تلك الجبهة وأمدها بكل ما تلزم بنسبة ٧٠٪.

كنا ننتظر متى سيعطينا الأمر بالدخول إلى أفغانستان لأنه لم يسمح لنا بالدخول في اليومين الأولين من عودة المجاهدين الأفغان وانكسارهم بأول خطوط المواجهة ، حيث أن الروس الشيوعيين والأفغان على مشارف منطقة جاور ، وذلك حتى تستقر الأوضاع وتتضح الرؤيا ، وكان ذلك رأي الشيخ عبد الله عزام..

وبعد أن استقر الوضع لصالح المجاهدين، وعادوا إلى معسكراتهم في جاور بعد أن مكثت فيها قوات المظلات الروسية وكتيبتان من القوات الشيوعية الأفغانية يومين فقط ، وتمكن المجاهدون بفضل الله ونصره من دحرهم إلى خلف معسكرات جاور بعدد من الكيلو مترات ، عندئذ سمح لنا بالدخول ومشاركة إخواننا الأفغان القتال، وعندما شاهدت ما كان يجري داخل منطقة "خوست" لم أجده يختلف عما جرى في "جاجي" الصيف الماضي.

ومن فضل الله علينا أننا تمكنا من دحر وقتل أكثر من خمسمائة من قوات المظلات الروسية التي أنزلت على قمم الجبال بواسطة طائرة هيليوكبتر في ليلة مظلمة، وإني أتذكر هنا أن الجندي الروسي المسكين لم يكن ليتمكن من أن يضع قدمه على الأرض ، وقد قتل الكثير منهم بتلك الطريقة.

وأتذكر هنا أيضاً ونحن نتقدم باتجاه الطريق إلى (ماني كاندوا) أني وجدت جثث أكثر من خمسين روسياً مجندلين في مساحة صغيرة وقد انتفخت أجسادهم ، وامتلأ المكان جيفة من رائحة جثثهم الكريهة!! وكانت تلك حصيلة معركة قادها أخ أفغاني (محمد أمين)، ثم استمرت المعارك حتى سيطر المجاهدون على آخر نقطة من سلسلة الجبال التي كانت تحيط بوادي خوست ، حتى أنه لم يعد بيننا وبين آخر منطقة أو مركز ضمن السلسلة الجبلية إلا موقع "سناكي" وهذا الموقع لم يسقط إلا بصعوبة شديدة ، وبعد أن مضى قرابة أسبوعين ، وقد استقر الوضع على الأرض لصالح المجاهدين ووصلنا إلى أعلى جبل في (ماني كاندوا) وكان اسمه (تورلالا) وقد أصبح بعد ذلك مركزاً للاستطلاع والترصد ، وكان يطل على الكثير من مواقع العدو في تلك المنطقة، أذكر هنا أنه زارنا أبو عبد الله ونحن في أعلى جبل "تورلالا" ومعه أبو عبيدة البنشيري ، وهذا الأخ كان مميزاً وحافظاً للقرآن ، وبعد فترة وقد ظهرت مشاكل العرب علي السطح ، والغريب أن هذا الأخ قتل بحادث غامض في دولة إفريقية ، وكذالك الأمر مع أبي عاصم وغيره ، وكان يعيش عدد من الإخوة المصريين العقلاء الناضجين ولكنهم ...؟؟ (وقد حدثني ذات يوم أنه غير راض عما يجري من قبل أبي عبد الله وجماعته) وكان معه أيضاً أبو خالد المصري وأبو عثمان الكويتي (وهذا الأخ قتل بعد حين رحمه الله)، وفي تلك الساعة – التي قام فيها الأخ أبو عبد الله ومرافقوه بزيارتنا – كنت نازلاً من الجبل لآتي بالماء – على ظهر بغل– وكان ذلك في صباح يوم ماطر، والثلج يتساقط عليَّ ، وقد التقيت بهم منتصف الجبل و سلمت عليهم ، ثم توقفوا لحظة يريدون الاستراحة لأن أبا عبد الله لا يقوى على مواصلة السير دون استراحة ، وكنت أشاهده يخرج من جيبه مادة الملح فيبتلعها ويلحقها بشربة ماء من (زمزمية) كان يحملها أبو خالد ، وبالمناسبة فقد تعرفت على هذا الأخ وكانت تربطني به علاقة ممتازة ، ولأنه

وكما قال لي: لا ينتمي إلى أي تنظيم لا في مصر ولا هنا وإنه خريج مدرسة الصاعقة في مصر ، وأن وزير السياحة المصري من أقاربه كما عرفني هو بنفسه !.

وبعد أن استراحوا في الطريق واصلت أنا عملي ونزلت إلى أسفل الوادي ومعي البغل المحترم وحملت فوقه أربع دبات من الماء ثم عدت إلى مركزي، كان صباح ذلك اليوم ماطراً وجميلاً والثلج كان يتساقط علينا حيث أصبحت الجبال مكسوة ببياض جميل وناصع "يكاد سنا بياضه يذهب بالأبصار"!!

كذلك كانت تتساقط علينا قنابل الطائرات زنة (٥٠٠ كيلو ، ١٠٠٠ كيلو) ، إن أجمل الطائرات هي التي كانت تقصفنا بالقنابل العنقودية التي كانت تجعل الليل نهاراً ، كأننا كنا نشاهد ألعاباً أولومبية عندما تتساقط المئات من القنابل وتشكل إضاءات جميلة ، ولكن عند نزولها إلى الأرض يختلف الأمر تماماً!! فإن لم تصب أحداً فأنا على الأقل كنت أصاب بإسهال شديد!!

واصلت الطريق إلى قمة الجبل وأمامي البغل المحمل بالمياه حتى وصلت إلى المركز، ولم يكن لدينا في قمة الجبل سوى خيمة صغيرة نصبناها وسط الأشجار التي كانت مزروعة في قمة الجبل، أنزلت دبات الماء من فوق البغل بمساعدة أخ أفغاني ووضعتها جانباً، وكان أبو عبد الله والثلاثة الذين معه قرب "المنظار" الذي يرصد من على الجبل "تورلالا" مراكز العدو في أسفل الوادي، وبعض ما تبقى من الهضاب والمرتفعات الجبلية التي كانت لا تزال تحت سيطرتهم.

ثم أعددنا لهم (الشين شاي) – بدون سكر– وذهبت إليهم في ذلك المكان المطل على الوادي وشربنا الشاي سوياً، وكنت أحدثهم عن المواقع التي قد تم استطلاعها من قبل المجاهدين الأفغان، وإننا نركز جهودنا على منطقة (سناكي) التي كانت الأخطر علينا إذ كانت عبارة عن قلعة محصنة ولم تكن

تؤثر فيها قذائف الهاون وصواريخ (بي – إم – ١٢) ، وقد تبين لنا فيما بعد – عندما فتحها الله علينا – أن الخنادق والغرف التي كانت محفورة في باطن الأرض كانت مسقوفة بطبقتين إسمنتيتين ، وأذكر هنا أننا عندما كنا نستطلع هذه المنطقة أو المركز كنا نشاهد الجندي لا أدري إن كان روسياً أو أفغانياً ، إذ كنا نراه وهو يدخل أحد أطراف المعسكر أو الموقع ويخرج من الطرف الآخر من خلال خندق طويل ممتد إلى نهاية المعسكر أو الموقع ، والذي كله مسقوف بالمواد الأسمنتية والخرسانية ، لأن منطقة "سناكي" كانت منفذاً ينطلق منها أو من جانبها المسافرون إلى (ساني كاندوا) حتى يصلوا إلى قرديز، و"اورقن" وبقية المناطق في ولاية باكيتا، لذلك كانت عبارة عن منفذ لتلك المناطق .. واستمريت كذلك أشرح لأبي عبد الله ومن معه الوضع العسكري حتى انتهيت.

ولم أجد سؤالاً من أبي عبد الله شخصياً!! وفي تلك اللحظة زارتنا طائرتان قصفتا مركزنا وقتل على إثرها البغل الوحيد الذي كان معنا والذي كان عوناً لنا في نقل المياه والمواد الغذائية والذخيرة من أسفل "ماني كاندوا"، وبعد أن هدأ القصف تلقوا اتصالاً من "جاور" الذي أصبح بعد ذلك مركز قيادة ومعسكراً للتدريب لأسامة ، أعطاه الشيخ جلال ثلاثة من الكهوف في طرف المعسكر أمام المطبخ المركزي للأفغان.

وقد شيد أبو عبد الله البناء داخل تلك الكهوف وجعلها وكأنها منزل جميل، حيث بنيت من الداخل من الطوب الأحمر وقسمت إلى غرف عديدة ؛ مكتبة ومسجد وحمامات عديدة، وفي آخر الكهف بطول ١٥٠متراً أو أكثر قليلاً مخزن للسلاح والذخيرة، لقد تحسن الوضع كثيراً من خلال مشروع أبي عبد الله

(أظن أن هذه المراكز الآن بيد الأمريكان) وعاد أبو عبد الله ومن معه بعد أن تلقوا اتصالاً من جاور إلى مركز قيادتهم.

إصابتي والعودة إلى بيشاور ثم إلى جدة

لم أشاهد أبا عبد الله من ذلك التاريخ في قمة الجبل "تورلالا" إلا بعد سنة أو تزيد قليلاً، عندما أصبت حيث علم بإصابتي من خلال أبي خالد، والذي كان متواجداً في مديرية (ميرام شاه) التي نقلت إليها من معسكر "ليجة" إثر إصابتي، ومعروف أن تلك المنطقة (جاور – وجهاد وال) وجزءاً من منطقة باري كانت تحت سيطرة أبي عبد الله وكان فيها معسكرات ومخازن ومراكز خاصة به، وكان الأخ أبو خالد يعتبر ساعده الأيمن في ذلك التاريخ (منتصف ١٩٨٧م – إلى منتصف ١٩٨٨) تقريباً ، وقد أصر أبو خالد أن ينقلني إلى بيشاور ومن ثم إلى جدة "فنقلت بسيارة تابعة لمستشفى (ميرام شاه) وهذا المستشفى كان قد أنشأه "محسن" من دولة الكويت – جزاه الله خيراً .

وعندما وصلت إلى بيشاور وأنزلني أبو خالد المصري في بيت جديد لم يكن مضافة وكأنه منزل خاص لأبي عبد الله، وقد هيأ لي غرفة رائعة وأكرمني وقام بالعناية بي أحسن قيام، وبعد يومين أو ثلاثة جاء أبو عبد الله لزيارتي وكنت أشاهده عندما دخل بسيارته الباجيرو البيضاء (ميتسوبيشي) إلى حديقة المنزل وقد شعرت آنذاك بحرج شديد ، وأظن أبا عبد الله حتى لا يحرجني لم يدخل مباشرة إلى الغرفة التي أنا فيها فقد زار بعض من كان في هذا المنزل ، ولم يكن أحدٌ من المرضى أو المصابين إنما هم ضيوف زائرون من السعودية ، أظن أن هذا المنزل كان مضافة خاصة، وبعد ذلك دخل أبو عبد الله لزيارتي ومعه أبو خالد وأيضاً أبو عبيدة البنشيري (وهذا الرجل – رحمه الله – قتل – كما علمت – في منطقة حدودية بين أوغندا والسودان!!.) وسلم عليَّ و كنت أشعر – أكثر من إصابتي في قدمي – بألم شديد في بطني ، وعندما سألني كيف تجدك؟ قلت: يا

أبا عبدالله ، إن إصابتي ليست خطيرة فقد أخرجوا "الشظية" من رجلي فأنا والحمد لله بخير، ولكن أكثر ما أشعر به هو ألم شديد جداً في بطني، فوضع يده على بطني ودعا لي، ولم يزد على ما فعل وسلم عليَّ وخرج، وفي عصر ذلك اليوم عاد إليَّ أبو خالد وبيده ظرفان الأول بداخله مبلغ من المال والآخر رسالة بخط أبي عبد الله موجهة إلى رجل يدعى "عادل بترجي"، يزكيني في هذه الرسالة ويطلب منه علاجي على حساب "أبي عبد الله" بالمستشفى السعودي الألماني.

وبالفعل قطعت تذكرة سفر إلى جدة وسافرت ونزلت بمضافة أبي عبد الله بجدة، ثم أوصلني الأخ المسئول إلى الأخ "عادل" – الذي كان مكتبه قريباً من مبنى المستشفى – وعرض عليه الرسالة ومن تلك الساعة فتح لي ملفاً في المستشفى، وأدخلني للرقود فيه، وأعادوا إجراء عملية في قدمي بعد أن وجدوا أن جزءاً من العظم مكسوراً داخل قدمي.

وبعد أن أجريت العملية مكثت أسبوعاً طريح السرير حتى استطعت أن أقف على قدمي ، ثم نقلوني إلى القسم الخاص بالباطنية واستقبلني فيه طبيب فلسطيني لا زلت اذكر اسمه حتى اليوم ، وقد أثارني لقبه الأخير حيث كان اسمه "الدكتور/كمال صهيون"!! وأجرى لي الطبيب عدة فحوصات من ضمنها منظار على معدتي وتبين أن عندي قرحة معدية في بدايتها ، ثم أعطوني العلاج المناسب ، وخرجت من المستشفى بعد أن مكثت فيه قرابة عشرين يوماً كلها على حساب الأخ "أبي عبد الله" وقد علمت أن تكاليف العلاج باهضة جداً في ذلك المستشفى السعودي الألماني الذي كان حديثاً جداً في ذلك التاريخ ، ولم أكن أطمح في يوم من الأيام أن أدخل ذلك المستشفى لتكاليفه الضخمة والهائلة! بعد ذلك عدت إلى مضافة "أبي عبد الله" ومكثت فيها عدة أيام ، ثم عدت إلى الأرض الحبيبة إلى مصانع الرجال والأبطال، عدت إلى أفغانستان وبالتحديد إلى

مركزي الذي مكثت فيه حتى آخر يوم خرجت فيه من أفغانستان وهو معسكر "ليجة" عند القائد البطل القرشي شرين جمال.

لم يكن يعيش معي في "ليجة" إلا اثنان من الإخوة العرب الذين كانوا من العاملين في معسكرنا ، كانا يذهبان ويعودان إلى مركزنا قبل أن ينشأ المعسكر البديل للشباب العرب، وهذان الأخوان هما أبو الفضل المكي والغريب المكي ، وهذا الأخير تولى إدارة مضافة بيت الأنصار فترة ثم تركها، وفي هذه الفترة زارني أخ يمني – بعد فترة من عودتي من العلاج – وهذا الأخ اليمني أظنه من "الإخوان المسلمين" مهما ادعى غير ذلك لأن ثقافتهم ودعوتهم – لمن كان يجالسهم – كانت تشير إلى ذلك، وبالرغم من أنني كنت أبتعد عن الحزبية والداعين إليها وكنت شديد الحساسية مع تلك الدعوات ومع شخوصها إلا أن ذلك لا يعني بأي حال من الأحول أن هذا الأخ هو الذي حرضني على العمل أو المشروع الذي قمت به بعد تلك الفترة التي قضيتها للمرة الثالثة من زيارتي لمعسكر صدى والتي كانت – هذه المرة – بصحبة هذا الأخ اليمني ، وكان يكنى بالمغوار ، وهو شاب حديث العهد بالجهاد والمجاهدين ، ولكنه كان مطلعاً على ما كان يجري بساحة بيشاور وكان قريباً من ذلك الصراع الذي كان يدور بصراحة بين الشيخ عبد الله عزام الذي يمثل – حسب تصور أسامة– تيار الإخوان المسلمين من جهة، وبين أسامة بن لادن الذي يمثل جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية المصرية ، إضافة إلى الطامة الكبرى الثالثة وهي السلفية السعودية أو السلفيون السعوديون ، والتي تضم بداخلها كل ألوان الطيف!! من جهة ثالثه أراد إخراج هذا الخلاف تحت هذا العنوان أن الخلاف بين حركة الإخوان المسلمين والجماعات الجهادية والحقيقة غير ذلك والهدف أكبر وأخطر مما نتصور ، ربما يفرد لهذا الملف دراسة مستقلة في مناسبة أخرى ..

عندما جاء هذا الأخ لزيارتي – وكان بيني وبينه مودة خاصة من أيام "منكاندوا وسناكي"، ومكث عندنا في مركز "ليجة" عدة أيام – طلب مني أن أعود معه إلى بيشاور، ولم يفصح عن ماذا يريد!! خرجنا من أفغانستان وانطلقنا مباشرة من (ميرام شاه) على أول باص ذاهب إلى بيشاور، ونزلنا بدار مضافة جديدة خاصة باليمنيين اسمها "مضافة الفاتحين" في منطقة اسمها "حياة أباد" وكانت هذه المدينة جديدة تبنى للطيارين الباكستانيين والميسورين من الباكستانيين أيضاً، وقد كانت هذه المدينة جميلة ومميزة وفيها الكثير من الخدمات وقد انتقلت إليها عدد من مضافات العرب وبعض التنظيمات الأفغانية، وقال لي هذا الأخ – عندما نزلنا بالمضافة– : إن هذه المضافة فتحت – كما قال – على حساب الشيخ عبد المجيد الزنداني، ومكثت في مضافة "الفاتحين" عدة أيام، وتعرفت – لأول مرة – على صاحب التقرير الذي جاء به من "بانشير" بشمال أفغانستان وهو التقرير الذي أزعج أحمد شاه مسعود، وتعرفت أيضا – ولأول مرة كذلك – على الأستاذ عبدالمجيد الزنداني – وقد كان ضيفاً مثلي داخل مضافة الفاتحين لأنني عندما أنزل بيشاور لا أنزل إلا في مضافة الشيخ "جلال الدين حقاني" بعيداً عن السياسة واحتواء الآخر إما بالترغيب أو بالترهيب "والتي كانت بيشاور عنواناً لهما". شعرت من تلك المناسبة أن هذا الأخ يريد دعوتي – إلى تنظيمهم – فقد كان آنذاك برفقة الأستاذ عبد المجيد الزنداني مسئول تنظيم الإخوان المسلمين الذي لم يكن يظهر بين العرب أو في صفوفهم أو مضافاتهم، حيث أنه كان يسكن وحيداً مع أسرته بمنزل قريب من مطار بيشاور، ومن خلال تلك المحاضرات التي كان يلقيها الأستاذ عبد المجيد الزنداني كنت أشم منها رائحة دعوة إلى التنظيم، وقد كان ذلك عقب صلاة الفجر، كان يذهب بعدد من الإخوة إلى ذلك المنزل – منزل الأستاذ فتحي الذي اشتهر بهذا الاسم – ولم يكن هؤلاء الإخوة يعودون إلى مضافة الفاتحين إلا بعد يومين أو

ثلاثة ، وبعد أن يأخذ الأستاذ عبد المجيد عليهم البيعة – كل شخص بمفرده – وبعد أن ينتهي الأخ من مبايعة عبد المجيد يدخل به إلى غرفة أخرى ، ثم تكتب عنه تفاصيل خاصة وبطاقة شخصية عن هذا الأخ الجديد الداخل في التنظيم ، وفي ذلك التاريخ كان الجميع يريدون الخروج بأكبر قدر من المصلحة من هذا الجهاد!! فقد أدرك بعض قادة الإخوان المسلمين بأن التجربة الجهادية الأفغانية التي يقود مسيرتها أبناء الحركة الإسلامية لن يسمح لهم بمواصلة مشروعهم ، فالدولة (الراعية مادياً) للجهاد قد أمسكت بل إنها تدعم فريقاً واحداً بعينه (لن أسميه الآن حتى يحين موعده) وإنما قد حظرت أي دعم يأتي للدكتور عبد الله يوسف عزام – الإخواني – أكثر من هذا لقد منع عبدالله عزام من البرنامج المعد له في الزيارة قبل الأخيرة له للرياض حتى لا تعطي أي مؤشر – كما حدث بعد أسابيع فقط من اغتياله – على أن الرياض لها علاقة بما حدث . كان هناك الكثير جداً من المؤشرات التي تدل بوجوب تغيير مراكز القوى على الساحة العربية ممثلة بعزام وكذلك على مستوى الساحة الأفغانية عموماً ، وقد رأينا مؤشرات الحملة الإعلامية التي تشكك بقيادة عبد الله وتخوينه واتهامه بسرقة أموال المجاهدين ثم انتهاءً بخروج فتوى تكفر عبد الله عزام يقودها المدعو أيمن الظواهري ، يؤسفني أن آتي على ذكر هذا المصري بين أسطر هذا الكتاب فو الله ما سمعت هذا الاسم إلا يوم قرأت منشوراً كان يوزع بين عدد من الشباب العرب ، ووالله ما رأيت وسمعت عن هذا المصري أنه دخل معركة في سبيل الله أيام الجهاد الحقيقي.

من هنا أدرك الإخوان المسلمون أنه لا بد من الحصول على كل ما يمكن الاستفادة منه من الجهاد الأفغاني على مستوى الأفراد أو من التدريب ..... الخ .

وهذا من حقهم ولكنهم كتموا ما كان يجري على الساحة ولم يبينوا للشباب حقيقة الصراع ، والأدهى والأمر أنه بمجرد أن ترجل الفارس عن جواده تركوا الساحة يعبث بها التافهون والمرجفون خريجو جامعة عبدالله بن أبي ، فكانت النتيجة والكارثة التي حلت بالرفاق وبالأمة جميعاً .... ولمن أراد التأكد من الدور الذي كان يلعبه السيد الظواهري يمكنه الرجوع إلى حديث الأخ الكريم حذيفة ابن إمام المجاهدين العرب الدكتور/ عبدالله يوسف عزام عبر قناة (العربية – العبرية) وهذا المصطلح الأخير من عندي نظراً لما تقوم به من خدمة للمشروع الأمريكي الصهيوني .

العودة إلى الرياض وعرض مشروع المعسكر على من أثق بهم

اتفقت مع أخي أبي "القعقاع" على عرض المشروع على الإخوة الذين نثق بهم ونتفق معهم حول رؤية واضحة للجهاد الأفغاني وما كان يجري داخل ساحة بيشاور.

– أنت تعلم يا أخي ، كيف تشن الحملة الإعلامية الخارجية على الجهاد والمجاهدين ، وقد أثر ذلك على الدولة التي تستضيف المجاهدين ، ومن ناحية ثانية مشكلة العرب الذين بدأ فيهم الخلاف والشقاق ومحاولة احتواء الآخر، نريد أن نبدأ بهذا المشروع بداية طيبة وحقيقية على هدى من الله كي نوجد للإخوة العرب بديلاً متواضعاً لمن أراد الله والدار الآخرة..

– وبعد أن "اتفق معي الأخ أبو القعقاع" وتفاعل بما طرحته من فكرة المعسكر البديل ، قلت له: الآن أنت أميري أسمع لك وأطيع . ويعلم الله أن هذا الأخ الكريم كان أوضح وأصدق وأشجع من رأيت من الإخوة السعوديين ، وقد كان من السابقين الأوائل للجهاد ، ولم أكن أتصور أن أجد هذه النماذج المضيئة في سماء السعودية التي عرفتها عن قرب ، وأن يظهر منها تلك النجوم التي أضاءت الدرب لمن لا يعرف هذا الجهاد والطريق الموصلة لرب العالمين.

بعد مضي يومين على بقائي في الرياض قام الأخ أبو القعقاع بطرح موضوع المشروع الجديد على كبار الإخوة الذين هم من خاصة الشباب المخلصين، ومنهم أبو الوليد والذي كان والده من كبار أهل الرياض ، وأبو صالح الغامدي (وكانت له خصوصية إذ كان داعية إلى الله وقد قطعت رجله في

معركة "جاجي" وكان شخصية معروفة عند الذين لهم اهتمام بالجهاد والمجاهدين)، وكذلك الأخ أبو أسامة الهذلي، وهؤلاء الثلاثة كانوا هم الدينامو المحرك لبقية الشباب ، وبعد أن تدارسنا الموضوع جيداً، وكيف نستطيع الحصول على التبرعات المادية من خلال المحاضرات التي سيقيمها بعض الدعاة والعلماء الذين يعتقد الإخوة أنه يمكن طرح الموضوع عليهم ، والاعتماد عليهم – بعد الله عز وجل– وصادف أننا قرأنا إعلاناً عندما دخلنا نصلي في أحد المساجد عن محاضرة للشيخ "أبي بكر الجزائري" في مسجد صلاح الدين الكائن في حارة صلاح الدين وهي منطقة حديثة البناء آنذاك، وهذه المنطقة قريبة من سكن الأخ أبي القعقاع.

وقد استنفر الأخ أبو القعقاع الشباب الذين يعملون معه في هذه الحارة للعمل والتنظيم لجمع التبرعات في هذا المسجد الذي ستقام فيه المحاضرة، وذهب هو والأخ أبو صالح إلى إمام المسجد وطلبا منه الإذن لجمع التبرعات لصالح المجاهدين في أفغانستان من خلال الجمع الذي سيحضر لسماع محاضرة الشيخ أبي بكر الجزائري، فوافق إمام مسجد صلاح الدين على طلبهم، ومعلوم أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يوجد ضغوطات أو تحفظات على جمع تبرعات للمجاهدين في أفغانستان من سياسة النظام السعودي المعلنة أما حقيقة ما يجري على الأرض فالأمر مختلف تماماً وهذا الفصل تحديداً لأهميته البالغة يحتاج لدراسة مستقلة ، أما عن تجربتي فيما يخص هذا الباب أو الفصل فسأكتفي بذكر ما شاهدته وكنت جزءاً منه .

وفي ليلة المحاضرة استعد الشباب الذين كلفهم الأخ أبو القعقاع بالعمل والتنظيم لجمع التبرعات من الرجال، أما مصلى النساء فقد كانت زوجة أبي القعقاع هي المسئولة عن ذلك ، وكان كل شيء تحت السيطرة ، وأنا وأخي أبو

القعقاع نراقب الوضع من مكان ما في المسجد، بدأت المحاضرة بعد صلاة المغرب واستمرت قرابة الساعتين ، وبعد تقديم الأسئلة من قبل الحاضرين والإجابة عليها.. تقدم الأخ أبو صالح إلى الشيخ أبي بكر الجزائري ، واستأذن منه في إلقاء كلمة، ثم تقدم إلى الميكرفون فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم صلى وسلم على إمام المجاهدين والرحمة للعالمين ، ووعظنا موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، وكانت كلماته البليغة الجامعة قد جعلت كل الحاضرين في مسجد صلاح الدين وكأنهم داخل مزرعة للنحل، إن الذي جعل هذا الأخ بتلك الهيبة وذلك الشموخ هو الجهاد الذي أعزه وأعزنا الله به، وبعد أن وعظ الناس ذكرهم بواجبهم الشرعي نحو الجهاد والمجاهدين ، وقال: إن بيننا أخاً حديث العهد بأفغانستان، وقد حدثني بما أحدثكم به الآن من متطلبات الجهاد، والشتاء قادم، وأنا أعلم ماذا يعني دخول الشتاء في أفغانستان ، وهو ينتظر منكم بما سيعود به إلى إخوانه في أرض الجهاد والاستشهاد، وإن الله قد ذكر المجاهدين بأموالهم في أكثر من موضع في كتابه الكريم وهذا واجب شرعي فاتقوا الله في إخوانكم المجاهدين، وإن الإخوة المنظمين لجمع التبرعات ينتظرونكم على مدخل المسجد فجودوا مع الله.

وعند خروج المصلين كان كل واحد منهم يخرج من جيبه ما كتب الله ، بل إن الكثير منهم – وقد كنت أشاهد ذلك بعيني – كان يضع كل ما في جيبه للمجاهدين، وجرى مثل ذلك في مصلى النساء ، وكنت أراقب أبا القعقاع وهو يوجه الشباب ويقوم بدوره كما ينبغي ، وبعد الانتهاء من الجمع أغلقت الأبواب لضم ما تم جمعه من التبرعات ، وبينما نحن على ذلك لدقائق معدودة إذ بنا نشاهد مجموعة من (أصحاب الثياب القصيرة جداً واللحى الطويلة جداً!!) وقد تقدموا إلى الشباب الذين جمعوا المال وطلبوا منهم تصاريح لجمع هذه التبرعات،

تقدم إليهم الأخ أبو صالح الغامدي وأبو القعقاع النجدي وأبو الحارث يريدون أن يعرفوا ماذا يريد هؤلاء الذين دخلوا فجأة وكانوا يتحدثون مع الشباب ، قالوا لهم: إننا نمثل الجمعية التي أنشأها صاحب السمو الأمير سلمان أمير منطقة الرياض لتنظيم التبرعات ، "فهل عندكم تصريح بجمع التبرعات أو بطاقة للجمعية الخيرية الإسلامية" – لجنة البر ؟

وبعد حديث طويل وأخذ ورد مع هؤلاء رفضوا رفضاً قاطعاً أن يأخذ الشباب التبرعات ، وأنها – أي هذه التبرعات – ستذهب إلى الجمعية الخيرية وتوزع حسب معرفة القائمين على هذه الجمعية، لم نكن نتصور أننا سنفاجأ بهؤلاء لأنني كنت أتصور أننا لو استلمنا ما جمع ذلك اليوم لفتحت به ولاية باكيتا بطولها وعرضها "كان أمام كل باب من أبواب المسجد كومة مرتفعة من المال".

آلمتنا تلك النهاية – الغير سعيدة – ، وخرجنا من المسجد نريد العودة إلى منزل الأخ أبي القعقاع ، ونحن في السيارة كنا كأن على رؤوسنا الطير من شدة الصدمة!! أنا لم اصطدم ويخيب ظني كثيراً – مثل بقية الإخوة – لأنني قد خبرت توجهات هذه الأنظمة والمؤشرات على ساحة بيشاور تؤكد ذلك .

إن أجمل ما شاهدته تلك الليلة كان رد فعل أخي أبي الحارث ضد هؤلاء ، ومعروف أن أبا الحارث إذا غضب يكون كلامه سريعاً جداً لا تستطيع أن تفقه كثيراً مما يقول!! وهو بدوي وعربي أصيل.. كان الوحيد الذي أضحكنا تلك الليلة وكيف اشتبك مع هؤلاء زبانية سلمان .

وعندما وصلنا إلى المنزل وبقيت مع أبي القعقاع في السيارة وكأنه يريد أن يقول لي : لن أدخل المنزل حتى أجد حلاً آخر وبديلاً بعيداً عن هؤلاء (أصحاب الثياب القصيرة واللحى الطويلة)!!

قلت له: انهزمت بأول محاولة.. إن هذا العمل يا أبا القعقاع ، يحتاج إلى صبر وبال طويل وأنت أخبر بقومك ..

كنت أريد أن أخرج أبا القعقاع من تلك الحالة بأي طريقة ، وهنا قال لي: اسمع وجدتها!! لقد خطرت لي الآن فكرة جديدة بعيداً عن هؤلاء..

قلت له: ما هي؟

قال: أنت تعلم أن عدد الشباب المجاهدين في الرياض كثير، وأنا أتواصل معهم باستمرار ، سأنسق معهم على أن يكون العشاء كل يوم في منزل واحد منهم ، وعند أن نجتمع في منزل هذا الأخ بعد الصلاة التي ستكون في نفس الحارة ويكون دور هذا الأخ أن يدعو من يريد في هذه الحارة لتناول طعام العشاء ممن يعلم عنه الصلاح والالتزام ، وعندما نكون في المسجد الذي سننطلق منه بعد أداء صلاتي المغرب والعشاء، سيتصل الإخوة ويتحدثون مع من يثقون به عن الجهاد والمجاهدين ، ثم يقومون بدعوته بنفس الفكرة لتناول طعام العشاء ، وبعد أن يجتمع من نريده أن يكون حاضراً يتقدم الإخوة الذين أعطاهم الله العلم والحكمة ويذكرون الآخرين بالله – عز وجل – ويهيئونهم روحياً ، ثم يتحدث من هو متخصص بالحديث عن الجهاد والمجاهدين وفضل الجهاد والحديث عن الإنفاق في سبيل الله ، ثم نختتم الحديث وتقوم أنت بسمتك الأفغاني وتحدثهم عن آخر العمليات الجهادية والمستجدات على الساحة الأفغانية وعن الكرامات التي شاهدتها للشهداء العرب ، وبعد ذلك ينتهي البرنامج الذي من أجله أحضرنا هؤلاء الضيوف!! وأنت تعلم يا (أبا إبراهيم) أن في كل حارة الكثير من أهل الخير والصلاح.. أعتقد أن الله سيفتح علينا بعيداً عن أعين "سلمان" وزبانيته!!

لقد عملنا طوال عشرة أيام أمضيناها في الرياض (عاصمة الخير) لولا الخوف من أن تشي بنا (العيون الساهرة) لأمن الرياض ، مع هذا فقد جمعنا سبعمائة وخمسة وعشرين ألف ريال ، وقد ذقت المرارة والقهر من نظام يدعي أنه يعمل على نصرة المسلمين والحقيقة غير ذلك تماماً ، كنت أشعر بالذل ونحن نمارس هكذا عملاً فالشكر لله أولاً وأخيراً ، لقد كان لهذا المشروع أبلغ الأثر فقد حمينا كثيراً من أعراض ودماء المسلمين في أفغانستان وحافظنا على عدد كبير من إخوة العرب من حزب عبد الله بن أبي . أعود وأقول : النظام في السعودية يوم ذاك يستحيل أن يعلن صراحة أو تلميحاً عن ما يخطط له تجاه الأفغان لذلك بدأ بحصر المساعدات والتبرعات والجمعيات لتكون كلها تحت سيطرته وقد كان له ما أراد . قلت له: يا أخي ، أنت أعلم بواقع قومك.. ولا يمنع ذلك من أن تستشير مرة أخرى إخوانك الشباب أبا صالح وأبا الوليد وأبا البراء وأبا الحارث الذين هم فريق العمل عندك ، واعتمدنا هذه الفكرة ، ثم خرجنا من السيارة ودخلنا المنزل. المفارقة العجيبة أننا سمعنا أن الأمير سلطان – وزير الدفاع – كان قد أصدر أمره إلى الخطوط الجوية السعودية بتخفيض قيمة التذاكر لمن يريد الذهاب إلى أرض الجهاد!! .

دخلنا إلى المنزل وكان الشباب "فريق العمل" داخل المجلس، وكان لأبي القعقاع أخ سلفي متشدد لا يؤمن بأن هناك جهاداً في أفغانستان ، ويرى أن الأفغان عبارة عن مبتدعين ومشركين! كنت أحاول جاهداً أن أبين لهذا الأخ أن الأفغان المشركين وأصحاب البدع الذين عقيدتهم باطلة قد أسقطوا وهزموا أكبر دولة عسكرية في العالم ببندقية الكلاشنكوف!! وقلت له: إن هذا الشعب الذي عقيدته غير صحيحة قد استطاع أن يوقف زحف هذا الدب الروسي الذي كان يريد أن يسبح في المياه الدافئة لخليجكم ويرد آبار نفطكم! وليت شعري يا

صاحب العقيدة السلفية التي تزعمها ، ماذا كنت ستفعل عندما ترى الجيش الروسي وقد دخل أرضك وأنت تدرس العقيدة الصحيحة التي شغلتمونا بها و أشغلتم أنفسكم؟!

لولا هذا الشعب الأفغاني – المشرك كما تدعون ظلماً وبهتاناً ، وفينا من يقول لهم عقيدتكم فيها خلل معاذ الله هذا الإفك مما ليس يحتمل – أروى أرض أفغانستان ببحور من الدماء وجبال من الجماجم والأشلاء ، ووقف سداً منيعاً أمام الزحف الروسي. إنني أذكرك هنا بما قاله ابن المبارك للعبد الزاهد القاضي عياض – إن كنت قد علمت به أو درست سيرته – اسمع ما يقول ابن المبارك في زمن لم يكن حال المسلمين ووضعهم قد وصل إلى المستوى هذا من الانحطاط والهزيمة ، ولم تكن فلسطين – حينها – مغتصبة من قبل الصهاينة ، ولم تكن نساء المسلمين يسبين في كل مكان على الأرض، ولم يكن هناك الاتحاد السوفييتي الملحد الذي يطمع أن يصل إلى آبار نفطكم وبحر مياهكم الدافئة ، يقول ابن المبارك:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	وهج السنابك والغبار الأطيب

كنت متحمساً لأبين لهذا الأخ حقيقة ما يجري داخل أرض أفغانستان ، لأني لا أريده أن يكون "ببغاء" يسمع ويردد ما يقوله المرجفون ، لأن هذا الأخ – وأنا أحترمه لأنه شقيق الأخ البطل أبي القعقاع – كان عاملاً سلبياً مرجفاً لمن حوله دون أن يعي خطورة ما يقوله ، وبينما نحن في هذا الجو داخل مجلس أبي القعقاع

وقد اشتد الحوار وتعالت الأصوات ، تقدم الأخ أبو البراء والأخ عزة وآخرون إلى مكتبة التلفاز ليجعلونا نشاهد فيلماً وثائقياً عن معركة "جاجي" الأخيرة التي أبلى فيها المجاهدون العرب والأفغان بلاء حسناً، وهزموا الروس للمرة الثالثة وهم يحاولون الدخول إلى جاجي وقتلوا منهم المئات من قوات الكوماندوز الروسية ، أرادوا بذلك أن يعيدونا إلى أرض العزة والكرامة ، وليذكرونا بما يقوم به هؤلاء الأبطال العرب والأفغان الذي يرى هذا الأخ أنهم مشركون ، وأن عقيدتهم باطلة ، كما أرادوا بذلك أيضاً أن ينهوا ذلك الحوار العقيم مع أمثال هؤلاء !.

وفي هذه الأثناء دخل الأخ أبو القعقاع ليبشرنا أن ما جمعته زوجته من التبرعات قد وصل إلى سبعة وثلاثين ألف ريال غير الذهب الذي جمع من النساء اللاتي تبرعن للمجاهدين ، فكبر الإخوة وحمدنا الله على هذا وقلنا: أول الغيث قطرة . ثم تناولنا العشاء جميعاً وبعد العشاء طلب الأخ أبو القعقاع من الإخوة "أعضاء فريق العمل" الاجتماع بهم من أجل مناقشة البرنامج الجديد، وذكر لهم ما كنا قد اتفقنا عليه ونحن في سيارته، وقد استحسنوا جميعاً فكرة الأخ أبي القعقاع ، وباركوها ، حدثنا الأخ أبو القعقاع في تلك الليلة عن زيارة والده لأمير كبير وكيف أنه استطاع أن يقنع هذا الأمير بعدالة وإسلامية هذه القضية ، وخرج من عنده وقد حول بقيمة عدد كبير من صواريخ "استنجر" الأمريكية وكانت تصلنا بواسطة ضياء الحق الرئيس الشهيد – رحمه الله – وثمن الصاروخ سبعون ألف دولار أمريكي ، وهو السلاح الأمريكي الوحيد الذي كثيراً ما أثير حوله الكلام وأصبح حديث السمر للصحفيين وعند عامة الناس والناس لا يعلمون أن الدولة الأمريكية كانت تأخذ ثمن كل صاروخ سبعين ألف دولار مثل هذا لا يتحدث عنه الأمريكان . وتم شراء هذه الصواريخ من الحكومة بواسطة ضياء الحق .

وكيف بعد أن ظهر الجهاد الأفغاني وخرج من الإطار القومي الأفغاني إلى العالمية الإسلامية ، استطاع أن يغير موازين القوى في العالم ، ولنا خير دليل على ذلك والذي لا يستطيع أحد أن ينكره وهو أنه قد هُزمت الدولة الروسية وهزم معها جيش وترسانة الاتحاد السوفييتي ، هذه هي الحقيقة على الأرض والتي لا نحتاج بعدها إلى دليل ، وإن كنا نرى أن نستأنس بما قاله الطرف الآخر الذي كان يراقب ما يجرى في أرض أفغانستان بأجهزة أرضية وعملاء وأقمار اصطناعية ، ومع كل تلك المراقبة الدقيقة من الأرض ومن السماء جاء الرئيس الأمريكي السابق "نيكسون" بنفسه لزيارة بيشاور الباكستانية ، ثم قام ومعه عدد من المسئولين الباكستانيين بزيارة لمعسكرات المجاهدين الأفغان ؛ معسكر "ناصر باغ" ومعسكرات المجاهدين في "كويتا" وكيف استقبل في تلك المعسكرات بالرفض له ولحكومته.

وعند مشاهدته قوافل المجاهدين وهي تدخل أرض أفغانستان وكانت كما وصفها هو (بطوابير النحل) عاد إلى قومه منذراً ومحذراً في ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده في بلاده "أمريكا"!! كل ذلك تحدثنا به عند من كان يجلس معنا وحذرناهم في حالة لو تركوا الجهاد والمجاهدين – لا سمح الله – هؤلاء الذين يتربصون بنا الدوائر وقلنا لهم : (إن الرائد لا يكذب قومه).

بعد تلك السهرة مع الفريق الذي شكله أخي أبو القعقاع تركونا وذهب كل منهم إلى منزله، على أن نجتمع غداً ظهراً للبدء بمشروع البرنامج الذي اتفقنا عليه، والحمد لله فلأن " البر يهدي إلى الصدق والصدق يهدي إلى الجنة" فقد كانت النتائج أكثر مما كنا نتوقع.

لقد عملنا طوال عشرة أيام أمضيناها في الرياض (عاصمة الخير) لولا الخوف من أن تشي بنا العيون الساهرة لأمير الرياض!! وقد تم جمع سبعمائة

وعشرين ألف ريال سعودي ، وقد ذقت المرارة من ذلك العمل لأنني كنت أشعر كأنني أسرق!! ولكن حتى وإن كان ذلك فأنا أسرق لأحمي بها أعراض ودماء المسلمين في أفغانستان ولحماية ثغر من ثغور الإسلام.

بدء العمل في مشروع معسكر ليجة

أخبرت أخي أبا القعقاع أنني أريد العودة إلى مكاني الطبيعي وحياتي التي وجدتها هناك ، فقد أصبحت كالسمكة ، إذا خرجت من أفغانستان أشعر أني أختنق،!! فكيف وأنا وسط عاصمة تريد خنق الجهاد أو ترتيبه بحسب الأجندة الموكلة لها، ولأني أعلم أنني لا أستطيع أن أدخل أرض باكستان وأنا أحمل هذا المبلغ الكبير، قلت له: أنا سأسبق إلى بيشاور، وأنت ستذهب إلى مكتب الشيخ سياف هنا عندكم في الرياض فلأنك سعودي تستطيع أن ترسل المبلغ عن طريقهم دون إثارة أية مشكلة، بشرط إن يتم إرسالها على دفعات وأنا سوف أستلمها من مكتب الشيخ سياف في بيشاور. اتفقنا على ذلك وسلم لي مبلغاً شخصياً أعين به نفسي، ثم عدت إلى بيشاور.

وكنت قد أعطيتهم تليفون مضافة الشيخ جلال الدين حقاني التي أنزل فيها ، وعند وصولي بيشاور لم أنتظر كثيراً حتى اتصل بي الأخ أبو القعقاع وطلب مني أن أذهب وأستلم من مكتب الشيخ سياف في قرية بابي مبلغ مائتين وخمسين ألفاً ، وبقية المبلغ وأكثر منه كان يأتيني عن طريق الإخوة الذين كان يرسلهم أبو القعقاع إليّ ، هكذا خرج مشروع المعسكر دون أن يعلم به سلمان وزبانيته حتى جماعة ابن أُبي في بيشاور فقد تفاجئوا به ، ثم عدت إلى أرض الجهاد وعدت إلى جبهتي التي أحببتها وأحببت المجاهدين فيها وتحدثت مع القائد الميداني الأفغاني شرين جمال وطلبت منه مكاناً أستطيع أن أقيم فيه معسكراً للإخوة العرب الذين كانوا قد ضاقت عليهم أرض باكستان بما رحبت من شدة ما كان يجري داخل صفوفهم..

وبدأت أشتغل في حفر كهف في باطن جبل صلب من قنابل الطائرات الروسية

وصواريخ الاسكود ، وقد أكملت حفر أول الكهوف بمسافة خمسين متراً ، ومثلها بالجهة المقابلة وعملنا لها أبواباً عدة ، كان هذا هو أول ما فكرت به حتى أستطيع أن آتي بالإخوة العرب وأنا مطمئن على سلامتهم، من باب الأخذ بالأسباب إذ لا نريد أن نقتل على يد علج روسي يجلس على متن كرسي طائرة ويرسل قنبلة زنة "طن" ، أو صاروخاً يرسلونه لنا من كابل وهم يلعبون الورق.

بعد الانتهاء من هذا الكهف وتجهيزه بكل ما يلزم – والذي يستطيع استيعاب سرية من الشباب أو أكثر – بنيت مطبخاً في الخارج قريباً من الماء ، وأعددت هذا المعسكر إعداداً جيداً حتى أرى ما سيكون عليه الحال بعد ذلك، وكان يعيش معي في نفس المكان – منطقة تسمى ليجة تبعد عن مدينة خوست حوالي عشرين كيلو متراً قبل أن ننتقل إلى المعسكر الجديد – ثلاثة من الشباب العرب ، وبعد زياراتي المتكررة إلى بيشاور اشتريت سيارتين، بقيت واحدة منها لخدمة المعسكر ونقل المجاهدين وطعامهم إلى المقدمة مع العدو ، ولم يمض الكثير حتى أصبح المركز ملاذاً لكثير من الشباب العرب ، وكانت دعوتي الوحيدة لهم أنه من أراد أن يقاتل في سبيل الله بدون أي استقطابات أو دعوة إلى جماعات أو تكفير أحد من الناس فليأت مرحباً به مكرماً معززاً ، والمعسكر بكل إمكانياته من المسدس إلى صاروخ الكاتيوشا تحت إدارته للتدريب والقتال دون أي أهداف أخرى كالتي ذكرت، وكتبت ذلك على بوابة المعسكر بخط عريض وواضح كشعار من شعارات المعسكر وشرط أساسي من شروطه ، وقد لقي المعسكر إقبالاً كبيراً من الشباب العرب ما كنت أتوقعه لدرجة الخوف حيث كنت أخاف على هذا الجمع في الوقت الذي تنشغل بيشاور للحصول على هؤلاء الشباب العرب والمتاجرة بهم،!!

وفي الشهرين الأولين لفتح باب المعسكر، وصل عدد المنتمين إليه بالمئات، الذين كانوا يتدربون ويرابطون فيه، وكان معي في المقدمة أمام العدو عشرون أخاً في النسق الأول ، وكان النظام المعمول به عندنا أنه في كل سبعة أيام يتم تغيير الإخوة الذين في المقدمة وإنزال آخرين بدلاً عنهم لأن الشباب العربي المجاهد حريص على أن يلقى العدو فيقاتله أو يقتل "يطلب الموت في مضانة"، وخلال تلك الفترة ورغم كثرة المعارك وشدة القصف فوقنا لم يستشهد غير اثنين من الإخوة العرب أحدهما أخ سعودي والآخر "خالد البراك شرف الدين" يمني.

وأثناء تلك الفترة لم يكن يمر علي أسبوع حتى تصلني رسالة من أخي "أبو القعقاع" مع القادمين من هناك الذين كان يحثهم على المجيء إلى خوست بمنطقة "ليجة" وكانت أقل رسالة يرسلها مع هؤلاء الإخوة داخلها ستة إلى سبعة آلاف دولار ، كان المعسكر يزدهر يوماً بعد يوم ، وبجانب هذا الازدهار والتقدم، كانت تشن على المعسكر حرب عالمية شريرة من (المرابطين) في بيشاور.!! المرجفين في المدينة الذين وظيفتهم نشر الأخبار السيئة عن الجهاد فتنقبض صدور الشباب العربي وتكل عزائمهم وتنثني إرادتهم ، هذه المؤامرة يتولى كبرها زعيم المرجفين ..... سنأتي على ذكره عندما يتم كشف الحساب بكل تفاصيله ولكن في حينه!! أقول : لقد مَنَّ الله تبارك وتعالى علينا بالنصر والفتوحات تصلنا أخبارها تترى من جميع أنحاء أفغانستان والولايات تسقط بأيدي المجاهدين أو تستسلم بدون قتال ، والنصر النهائي قاب قوسين أو أدنى وثمار النصر دانية وقادة المجاهدين قد أعلنوا عن تشكيل أول حكومة مؤقتة لهم ، هنا تكالب العالم كله شرقه وغربه يريدون قطف ثماره واستبعاد أهله الحقيقيين ، فكان لا بد من القضاء أولاً على هذا التجمع العربي الذي أصبح ركناً أساسياً

بل من أهم أعمدته يقودهم فلسطيني أعطاه الله جوامع الكلم استطاع بحكمته وإخلاصه وعلمه أن يجمع كل الشباب العربي بكل تناقضاتهم ، لقد أدرك الغرب وأمريكا معهم خطورة المدرسة التي تتلمذ عليها هؤلاء الشباب ، لذلك كله بدأنا نلمح مؤشرات تريد القضاء على تجمع الشباب العربي وحرق أعلامه ، فبيشاور هي الترجمان الحقيقي والصدى الواضح لما كان يجري على ساحة الجهاد داخل أفغانستان .

إن أكثر من كان يواجهني من أمثال هؤلاء الحمقى ، والحق أن كثيراً منهم مخلصون ولكن بسبب التربية والحياة الاجتماعية المعقدة التي يعيشونها ، والتدين الشّكلي فرض عليهم مثل هذا الفهم ، لقد كنت أنتظر ممن يسألونني عن الجهاد الأفغاني أن يسألونني عن الفتوحات والانتصارات التي حققها المجاهدون على الأرض ، ولكن أغلب الأسئلة التي كنت أواجهها هي من نوع الشرك والشركيات والبدع عند الأفغان والشرك الأصغر والشرك الأكبر وحكمتيار (يقتل الموحدين) .

أما النوع الآخر من الناس كانوا يسألون عن الجهاد الأفغاني ممن يُعتبرون مثقفين ومطلعين فكان التشكيك ينطلق عندهم من أننا نحن المجاهدون نقود معركة (بين العملاقين) وتارة يقولون إنها حرب بين الـ C I A والـ K J B ؟! هؤلاء هم المثقفون العرب ؟!

وصنف ثالث ربما هو أكثر اعتدالاً من الصنفين الأولين ، فكانوا يسألونني : إنكم أيها المجاهدون ، تبالغون فيما تقولونه من قصص لا يصدقها العقل ولا يقبل بها منطق ، وإنكم تنقلون صورة مثالية ورومانسية عن المجاهدين الأفغان وعن الكرامات التي هي ضرب من الخيال ، وكنت أقول لهؤلاء: اتركوا كل ما قيل عن الكرامات والبطولات ولكنكم لا تستطيعون أن تنكروا حقيقة

واقعة وواضحة كوضوح الشمس في كبد السماء ، وهو أن شعباً من أفقر الشعوب وأقلها موارد لا صناعة ولا تكنيك ولا زراعة ولا ثقافة والأمية تصل بينهم إلى ٨٥٪ ، وقف الشعب الأفغاني أمام أقوى وأعتى وأشرس قوة على وجه الأرض ، لقد هزم الجيش الأحمر السوفييتي الذي احتل تشيكوسلوفاكيا في خلال ساعات ، هل تستطيعون أن تنكروا هذه الحقيقة ؟ هل تعلمون ما الذي يميز الشعب الأفغاني عن بقية شعوب الأرض؟ إن ما يميزه أنه لم تدنس فطرته الأصيلة الثقافة الغربية وأنه من أنقى الشعوب وأقربها إلى الفطرة ، لم تستطع أن تغير فطرته الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس وحولت الأسود إلى قرود ، فقد قرأنا في التاريخ ماذا صنع الأفغان بجيوش الإمبراطورية البريطانية ، لقد أطلق الشعب البريطاني على الشعب الأفغاني صفة التيس الجبلي لأنهم ما استطاعوا تدجينه ، شعب رفض أن يذل وأبى أن يطأطئ هامته إلا لرب العالمين إلا لخالقه سبحانه ..

قوم إذا الشر أبدى ناجديه لهم ... ساروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

أما بأنها حرب (بين معسكرين عملاقين) أو بأنها حرب بين الـ C I A والـ K J B إلى آخر التسميات .. ؟ فإنه الخبل بعينه ... هل قدم الشعب الأفغاني مليوناً ونصف المليون شهيد وأربعة ملايين مهاجر قرباناً للـ C I A؟ لماذا ولأجل ماذا ؟!! ولماذا يا مثقفون ، ويا محللون ، ويا سياسيون ؟ وماذا تسمون قتال الشعب الفيتنامي ضد الجيش الأمريكي؟ ما سمعنا أحداً منكم يسمي تلك الحرب بأي اسم ، ما سمعنا أحداً يشكك في التجربة الفيتنامية ولكن لأن الأفغان فقراء وليس لهم من سند إلا الله استبحتم وتاجرتم بدمائهم وأعراضهم وتضحياتهم ... يا أمة ضحكت من أجلها الأمم وما زالت تكابر

لقد زار الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون ومن قبله كارتر بيشاور واطلعوا على مخيمات المهاجرين ، بل إن نيكسون نفسه وصل إلى الحدود الأفغانية الباكستانية ورأينا ماذا قال لقومه عندما عاد إليهم وشاهد بأم عينيه طوابير كالنمل بحسب تعبير نيكسون نفسه وهي تدخل إلى أفغانستان محملة بالعتاد والسلاح والغذاء ، فعاد إلى قومه منذراً ومحذراً من أن الخطر القادم إذا أمسك هؤلاء الأصوليون المتشددون بزمام أفغانستان سوف يأتي .. لاحظوا هنا ، لم يكونوا قد أعطونا ترقية جديدة ووصفاً جديداً وهو (الإرهاب) بل كنا أصوليين ومتشددين ، قلنا ذلك لأهلنا وأحبائنا في الرياض كل هذا وأكثر من ذلك والرائد لا يكذب قومه .

زيارة أبي القعقاع للمعسكر وبرنامجي معه خلال فترة الزيارة

بعد مرور فترة من الزمن زارنا – في فترة الإجازة – الأخ الكريم أبو القعقاع وأخوه "أبو البراء" ومعه ضيف آخر كان يعمل – كما قال – في وزارة مهمة في الحكومة السعودية ، وعندما وصل في ذلك اليوم إلى وادي ليجة "معسكراتنا على طرق هذا الوادي الجميل"صادف أنني كنت ظهر ذلك اليوم مع الشباب نعمل لهم اختراق ضاحية تنتشر في العديد من الجبال المحيطة بنا ، والذي سيصل أولاً من المجموعات المنتشرة يحصل على "خيل" عمره خمس سنوات.

وفي هذا اللحظة أبلغت – بواسطة الجهاز – أن مجموعة من الإخوة العرب وبينهم أخ يدعى "أبو القعقاع" هناك ، طلبت من جميع الإخوة المشتركين في اختراق الضاحية أن يعودوا جميعاً إلى قمة الجبال المحيطة بالوادي وطلبت منهم عند سماع تكبيراتي الأولى والثانية والثالثة وعند كلمة "ولله الحمد"، أن يطلقوا جميعهم ثلاثين طلقة تحية لهذا الفارس القائد المجهول.

وبعد هذا الاستقبال الذي يليق بهذا الضيف الكريم ، نزلنا إلى ساحة الوادي وسلمنا عليه وعلى ضيوفه ، وقد كان عندي إحساس كبير – قبل هذا اليوم –أنني سأجد أخي أبا القعقاع هنا في أرض الجهاد ، وقد أحسست بذلك من خلال الاهتمام الكبير الذي كان يبديه للمعسكر ، وخدمة المجاهدين ومصارعة أخيه السلفي وحبه سماع الحديث عن أفغانستان والمجاهدين ، ثم دخلنا إلى المعسكر ولم يصدق ما شاهدته عينه من حضور كبير للشباب الذين كانوا جميعاً على قلب رجل واحد..

وعندما وصل إلى وسط المعسكر وجد أولئك الشباب الرهبان في الليل والفرسان في النهار ولم يجد أحداً منهم يلعب أو يعبث فهم إما في قراءة القرآن أو قراءة كتب السيرة النبوية ، أو في مجموعات تتدرب على الدوشكا والزكويات ، أو على الهاون اثنين وثمانين أو ، على(بي إم ١٢) كلهم كخلية نحل يعبدون الله كل في عمل ..

بعد أن رأى تلك المشاهد نظرت إليه في تلك اللحظة وإذا بوجهه قد احمر ، والدموع تنزل من عينه فرحاً وحزناً ، فرحاً لأن هؤلاء الشباب قد عادوا إلى جادة الطريق ، وحزناً لأنه لم يشاركهم .. وكما قال هو نفسه: إن روح "جاجي" ومن كان فيها من السابقين الأولين الذين رضي الله عنهم قد عادت إلى منطقة "ليجة". ثم دخلنا إلى الكهف المخصص للسلاح وقد امتلأ بالسلاح بكل أنواعه وأحجامه وكان في داخل ذلك الكهف ما نقاتل به لستة أشهر قادمة.

ليت أن أبا القعقاع انتظر بعد أن اشتريت دبابة روسية جديدة من قائد أفغاني شيوعي ، واشتريت منه أيضاً منطقة بطول ثلاثة كيلو مترات كل ذلك بمليون ونصف المليون روبية باكستانية ، كنت أتمنى لو أنه قد رأى تلك الدبابة (تي اثنين وستين) وقد وضعناها على بوابة المعسكر.

بعد ما شاهده أخي أبو القعقاع وضيوفه الكرام بالمعسكر ، وعند خروجنا من الكهف أو المخزن المخصص للسلاح ، أدخلته الكهف الذي نسكن فيه ولم يكن يصدق ما شاهدته عيناه ، وبعد الاطلاع على المعسكر ، صعدت به إلى أعلى الجبل حيث مركز الدفاع الجوي الذي يحمي المعسكر من الطيران وغرفة الإشارة والاتصالات ، وقد استطعنا أن نصعد برشاش (ثلاثة وعشرين – أبو ماسورتين نوع "شيلكا") إلى قمة الجبل ليمنع الطيران من العبث بنا ، وقد حملنا ذلك الرشاش فوق جمل ، كان يشاهد مدينة خوست وقد أرخى الليل سدوله والجبال المحيطة

التي كساها الثلج إنه منظر بديع ، وتسمع أصوات القذائف المدفعية والصاروخية وهي تدك معاقل قوات الاحتلال الروسي والمليشيات التابعة لنظام نجيب الله على أطراف مدينة خوست ومطارها الذي كان يغذي ثلث ولاية بكتيا من أسلحة وعتاد وغيره ، لذلك كان المطار هدفاً مباشراً لسلاح المجاهدين على مدار الساعة وسترون صورة المطار بعد فتحه وعدد الطائرات التي دمرت وهي تحاول النزول فيه ، ولم يصدق أحد من الأفغان أننا قد أوصلنا هذا الرشاش الثقيل إلى تلك القمة من الجبل ، بعد ذلك عدت بأبي القعقاع وضيوفه إلى أسفل المعسكر وقلت له: يكفيك هذا الاستطلاع اليوم وغداً – إن شاء الله – نكمل بقية الاستطلاع ، ثم تركته هو وضيوفه بعد أن كلفت أحد الإخوة بالقيام بخدمتهم والعمل على راحتهم ، وذهبت لبعض أعمالي مع الأفغان بخصوص الإعداد لعملية على مركز (سبين كاي) وكان آخر موقع للجيش الروسي والشيوعيين الأفغان لآخر سلسلة جبال ليجه يأتي خلف هذه (البوستة) أو الموقع مباشرة مديرية دراكي الغربية التي ينتمي إليها شاه نواز تناي وزير الدفاع لحكومة نجيب الله .

مكث الإخوة معي عدة أسابيع، وكان أخي أبو القعقاع قد أخبرني عن ترقية جديدة له في عمله بالوزارة التي يعمل بها في بلاده ، وكان يتمنى أن يستمر معنا لولا ارتباطه بعمله.

قلت له: يا أخي ، حتى لو كنت في بلادك فلا أتصور أنك تبتعد عن الجهاد والمجاهدين فأنت على ثغر من ثغور الجهاد، وإن هذا الذي تراه من معسكر وإمكانيات هو من ثمار جهادك وجهودك ، والله يا أخي ، لو أن المتاجرين الذين يعبثون داخل بيشاور – بجميع إمكانياتهم البشرية والمادية – صدقوا مع الجهاد لكانوا الآن على مشارف كابل.

ولكن صدق الله العظيم القائل : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ، وقال رب العالمين أيضاً: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) ، إن كل المصائب التي يضعها إخواننا – إذا أحسنت الظن – هي بسبب الأنانية و "الأنا"، ثم حدثني أخي أبو القعقاع إذا كان في الإمكان إن يشترك في العملية القادمة؟

قلت له: يا أخي ، بالنسبة لهذه القضية أنا مرتبط كلياً بالقيادة الأفغانية المركزية ، فهي التي تحدد مكان وزمن العملية العسكرية – حسب ظروفهم وتخطيطهم للجبهة – ، ولكن حسب علمي فإنهم ربما سيهجمون قريباً على مركز (سبين كاي) لأنني كنت معهم أستطلع هذا الموقع الكبير الذي يطل على مديرية (دراكي) هذه المديرية ولد فيها وزير الدفاع الأفغاني (شاه نواز تاني) وهي محمية عسكرية كبيرة تتحكم بالطريق المؤدية إلى قرديز وتسويه وأورجون ؛ ولذلك أعتقد أن موعد العملية سيكون قريباً ، ولكن أنت تعلم معنى القريب عند الأفغان ، عندما يقول لك الأفغاني إننا سنفعل كذا قريباً فهو ثلاثة أضعاف الوقت الذي نحسبه ، بل إن هذا القريب قد يمتد إلى عدة أشهر، لكنني لا أعتقد أن تتأخر هذه العملية كثيراً ، لأنني علمت أنهم الآن يجتمعون في معسكر "جلال الدين حقاني" لمناقشة العملية ، وأظن إن الحزب الإسلامي – حزب حكمتيار – سيشارك في هذا العملية وقد دعيت لحضور هذا الاجتماع.

قال لي: يا أخي ، لا أكتمك سراً أن هذا الأخ الذي معي "أبو عبد الرحمن" هو جاري في الرياض وهو حديث السكن في المنطقة التي أسكن فيها وقد تعرفت عليه في المسجد وأخبرني أنه حريص للذهاب إلى أرض الجهاد ولو للتدريب ، وأنا أعلم – بشكل عام – أنه يعمل بوزارة مهمة وسيادية!! وهو خريج من إحدى الجامعات في أمريكا ، وأريد أن أكتشف هذا الأخ إن كان صادقاً بمجيئه

إلى هنا، وهل هو جاء فعلاً- كما يدعي - للإعداد للجهاد وللرباط في سبيل الله أم هو غير ذلك حتى يكون قلبي مطمئناً فنتعامل معه بحرية؟ قلت له: يا أخي، أنت تعلم أنه ليس لدينا مكاتب تحقيق - ولا يمكن أن يكون ذلك - لأننا نعمل بالعلن، وليس لدينا جواسيس أو مصادر معلومات عن الأشخاص أو أي شيء آخر لذلك فنحن نتعامل مع هذه الظاهرة - إن وجدت - بطريقة واحدة ناجحة وقد جربت وظهرت لنا نتائجها الباهرة دون أي تدخل مباشر منا .

قال لي: كيف ذلك؟!

قلت له: ندخله في العملية القادمة مع مجموعة الاقتحام، وإنه الحل الوحيد الذي يكون فيه الإنسان كما قال ربنا: "ليميز الله الخبيث من الطيب"، وكما قال أيضاً : "وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر" هذه هي الطريقة الناجحة بنسبة مائة بالمائة التي تبين لك إن كان هذا الرجل صادقاً أو عكس ذلك.

ولكننا لا نعلم متى سيقومون بهذه العملية؟ قلت له: دعني اليوم أبحث عن حل وفي المساء سأخبرك عندما أعود، فأنا سأذهب الآن إلى منطقة "بابي"، فقد دعيت من قبل الشيخ جلال ربما للمشاركة بالاجتماع الذي يجري هناك الآن مع القيادات العسكرية والمدنية ومشايخ القبائل... ثم ودعته وذهبت إلى عملي.

وصلت إلى "بابي" ومعي أخي القائد البطل "شرين جمال القرشي" لأننا الاثنين نمثل منطقة ليجة، وعندما وصلنا إلى "باري" دخلنا المجلس الذي يجتمعون به وهو عبارة عن غرفة "طولها ستة أمتار بعرض ثلاثة أمتار" وبداخلها أكثر من ثلاثين قائداً وأكثر من عشرين شيخ قبيلة، وبداخل هذا المجلس ثلاثة

براميل "بخاري" لتدفئة المكان، ويتوسط هذا المجلس عدد من أباريق الشين شاي "الشاي الأخضر" الذي لا يتخلى عنه الأفغان..

جلست ساعة معهم ثم ضقت من شدة حرارة المجلس وسخونة النقاش!! وليت عمري لو أن إخواننا الأفغان كانوا يركزون في نقاشهم على الخطط العسكرية بدلاً من الحديث المستمر والممل عن الغنائم وعلى اللجان التي ستشكل من الأحزاب والقبائل التي ستشارك في العمل!!، استأذنت وخرجت لأشم بعض الهواء فلو استمريت معهم في نقاشاتهم لاحتجت إلى شريط "بندول"!!

خرجت إلى خارج المجلس مفضلاً صقيع برد "بكتيا" على حرارة ذلك المجلس، ولم أنتظر إلا قليلاً حتى قدموا طعام الغداء، وبعد أن انتهينا جميعاً من تناول طعام الغداء، أراد الشيخ جلال الدين حقاني أن يعود إلى "ميرام شاة" في باكستان لقضاء بعض أعماله، وبخروج الشيخ من المجلس– باعتبار أنه يمثل القيادة المركزية لولاية بكتيا – أجّل الاجتماع إلى أجل غير مسمى "حتى عودة الشيخ".

وعدنا سوياً – أنا وقائدي شرين جمال– ومرافقي إلى مركزنا الدائم، وفي المساء جئت ومعي أخي "أبو القعقاع" إلى موقع "الشلكا" لننهي حديثنا بخصوص ضيفه الذي يريد معرفة حقيقته، فهو من حيث المبدأ يحترمه وهو جار له أيضاً في بلده، ولكن طبيعة عمل هذا الأخ الكريم وإمكانيات حياته الملفتة لنظر أبي القعقاع جعلته يطرح علي تلك الملاحظات عن هذا الأخ الكريم.. وكنت قد عرضت له فكرة أن ينتظر حتى ننتهي من الإعداد للعملية القادمة التي تعتبر المحك الحقيقي لصدق وثبات المجاهد، إذ أن ذلك هو المقياس الذي نتبعه في مثل هذه الحالات.

كما أنني كنت أتمنى لو استطاعوا البقاء حتى يشاركوا في العملية القادمة لأنني أيضاً كنت حريصاً على أخي أبي القعقاع أن لا يحرم أجر المشاركة، فكما هو معلوم في ديننا من حديث رسول ربنا الذي قال فيما معناه: "وقوف ساعة في الصف – يعني القتال– خير من عبادة ستين سنة يصام نهارها ويقام ليلها ولو عند الحجر الأسود" أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

ولأن أخي أبا القعقاع وضيوفه الذين أتوا لتمضية فترة الإجازة معنا في أرض الجهاد والرباط (بدلا من الذهاب إلى "بانكوك" !! لأن سياحتنا في الإسلام هي الجهاد في سبيل الله) لم يكن باستطاعتهم البقاء معنا حتى تبدأ المعركة القادمة لنشركهم معنا فيها، حيث ذكر لي أن لديه ظروفه الخاصة ، وأنه قد استلم وظيفة جديدة في بلاده ، ولم يكن قد مضى عليه سوى شهرين في وظيفته الجديدة ولكنه حب الجهاد الذي يسري في دمه، من أجل ذلك طرحت عليه الفكرة البديلة والتي سيدركها بحسب معرفته وتصوره للأرض والمعركة، وكيف يكون حالنا عندما نكون على بعد أمتار من الجيش الروسي وهو متمترس بدباباته ورشاشاته، وكل ما أوتي من القوة وبحقول الألغام التي كنا نراها بالعين المجردة من كثرتها ومن ألوانها وأحجامها المختلفة.

كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل ونحن في قمة الجبل الذي وضعنا فيه ذلك السلاح "الشلكا" الذي منع الطيران الروسي – إلى حد كبير– من العبث بنا، وفي تلك اللحظة والليل الجميل المتميز في أفغانستان بعيداً عن أشكال وألوان المدينة ، إذ لا ترى أمامك إلا جبالاً بيضاء من الثلوج وسماء زرقاء قد زينها ربها بمصابيح ، وكانت تلك الليلة هادئة من القصف والطيران الروسي لم يزرنا تلك الليلة، وكنا قد اعتدنا من ضمن الروتين اليومي أن يقصفنا الطيران الروسي في ساعات متأخرة من الليل حتى يوقظ النائمين بقنابله (زنة

ألف كيلو (طن)) ، وكان أحيانا يتفضل علينا بإسقاط قنابل "النابالم" التي كانت تشعرنا بالدفء شرط أن تكون بعيدة عنا!!

عند ذلك الوقت قلت لأخي أبي القعقاع: أصغ لما أقول: خطتي البديلة هي كالتالي: غداً صباحاً وبعد طابور الصباح سأعلن أمام الجميع أنني أريد مجموعة قد بايعت الله على الموت للنزول معي للرصد وكشف الألغام ، وأريد منهم أن يكونوا على أتم الاستعداد بعد عصر هذا اليوم، وسيعلن هذا بشكل رسمي للإخوة جميعاً.. أما الذي سأقوله لك الآن – بيننا – إننا فعلاً سننزل إلى آخر نقطة قد وصلنا إليها في "بوستات سبينكا" وهذه النقطة أو الموقع آخر سلسلة جبال " ليجة" بسقوط هذا الموقع نستطيع السيطرة على أول مديرية ينتمي إليها وزير الدفاع الأفغاني الشيوعي "شاه نواز تاني" سنصل إلى آخر نقطة من خلال استطلاعاتنا السابقة لها، أما الذي سيتم فهو أنني سأوزع الشباب الذين سيختارون – ومن ضمنهم صاحبك وأنت – إلى ثلاث مجموعات، وأنا واثنان من الإخوة الأفغان اللذين سأختارهم بنفسي وأنسق معهم ، سنتقدم إلى ما قبل النقطة الأخيرة وهي قريبة من مركز العدو بمائتي متر وسيكون سلاحنا الـ"آر. بي. جي ٧ ، ورشاش معدل، بيكا"، وعندما نصل إلى تلك النقطة سنصوب السلاح ونطلق النيران باتجاههم بكثافة شديدة ، وأنا من سيستعمل البيكا وقد تجدون الرصاص يمر من فوق رؤوسكم، ولا أريدك أن تجزع لأنني سأحاول أن أجعل من الحادث قريباً من الواقع، وأثناء الرمي عليكم وأنا أفجر عدداً من القنابل اليدوية سأصيح بأعلى صوتي: إن الروس قد كمنوا لنا فاثبتوا وقاتلوا . وسنرى عندها من سيثبت في الدقائق الأولى؟!.

تواردت عدة أسئلة إلى ذهن أخي أبي القعقاع عن هذه الفكرة ، ثم قال لي: "دعني" أذهب لأقضي حاجتي في هذا المكان الطلق وأحسبها "صح" . وبعد أن عاد

من قضاء حاجته صمت قليلاً وهو يمد بصره إلى جبال "جاجي وماني كاندوا" ويتذكر تلك الأيام التي ضرب بها المجاهدون الأفغان والعرب أروع الأمثلة وهم يواجهون قوات الاتحاد السوفييتي البرية والجوية طوال اثنين وأربعين يوماً (كان ذلك سنة ١٩٨٧م.. وقد ذكرت تفاصيل المعركة في مكان آخر).

ثم قال: من أين لي بأولئك الرجال السابقين "أولئك المقربين" قلت له: يا أخي! اذكر معي قول ربنا: "ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب " الآن قل لي ما رأيك فيما طرحته عليك من بديل؟

قال لي: الفكرة جيدة ولكن هل تضمن عدم الإصابات بين الشباب؟

قلت له: سأقوم بكل ما أستطيع لمنع أي إصابات.

قال: حسناً توكلنا على الله ولو أنها مغامرة!!

قلت له: يبدو أن جو الرياض وحرارتها والركون إلى الحياة الرغيدة الطيبة بين أهلك وذويك قد جعلتك تحسب كثيراً!! أنت هنا يا أخي ، في معية الله.

ثم نهضنا وعدنا إلى المعسكر في ليلة شديدة البرودة، ولكنها كانت ممتعة مع أخ كريم قدم كل ما يستطيع لهذا المعسكر من أجل أن يكون متنفساً وباباً إلى رضوان الله بعيداً عن مصائب "بيشاور" ومؤامرات ساكنيها!!

وصلنا إلى المعسكر وقد نام كل من فيه عدا الحراسة من الأفغان والعرب، ونزلنا إلى السيل ومجرى مياه الأمطار التي لا تمل من الشرب منها.. شربنا الماء وتوضأنا ثم صعدنا إلى الكهف وصلى كل واحد صلاة القيام والوتر منفرداً في تلك الساعة التي كانت تعتبر الغذاء الحقيقي لكل مجاهد يريد أن يتحدث مع الله بحب وصدق و يقين مطلق فالله يسمعه ويستجيب له.. تلك الساعة – في

الثلث الأخير من الليل – كانت هي سر ثباتنا أمام العدو الشرس الذي يهلك الحرث والنسل فوق تلك الأرض المباركة "أرض أفغانستان" ..

وفي صباح اليوم الثاني– بعد طابور الصباح وأثناء الإفطار – كنا نحن الوحيدين الذين كنا نأكل ثلاث وجبات في اليوم ، لأن الأفغان لا يملكون تلك الإمكانيات التي نملك ، لذلك عندما نزلنا منطقة "ليجة" تقاسمنا معهم كل شيء لأن الأفغان كان فطورهم "الشاي والخبز" إن وجد أما طعام الغداء فكان الأرز مع البصل و العشاء الخبز والشاي.

تموت الأسد في الغابات جوعاً ولحم الضأن تأكله.....؟

وبعد طابور الصباح وعند تناول الشباب للفطور أعلنت لهم أن الأخ "أبا محمد الصنعاني" سيختار مجموعة قد بايعت الله على الموت للاستطلاع والترصد لمكان العملية القادمة ، ولم نسم المكان ، وقلت لهم : سيكون النزول بعد عصر اليوم . وعند ساعة الانطلاق في الوقت المحدد وقبل أن نصل إلى مكان العدو وزعت الشباب إلى ثلاث مجموعات ، وتقدمتُ ومعي اثنان من الإخوة الأفغان اللذان يحملون سلاح الـ(آر بي جي) ومدفع اثنين وثمانين الذي يحمل على الكتف "صيني الصنع".

ولم يكن أغلب الشباب قد وصلوا إلى مكان قريب من العدو من قبل ولم يكونوا قد دخلوا معارك فيها اقتحام لأن جو الجبهة العام يختلف اختلافاً كلياً عن منازلة العدو وقتاله عن قرب ، وكان بعضهم لا يزال يقضي فترة التدريب ، وقد تعمدت وأخي مسئول التدريب أن نختار هؤلاء الشباب حتى من الذين لا يزالون يقضون فترة التدريب لشيء في نفسي!!

وعند اللحظة الأولى صب فوق رؤوسهم الرصاص ودوي الانفجارات من الـ(آر بي جي) والقنابل اليدوية ورشاش البيكا الذي كنت أحمله معي ، وقد

ضربت تلك المنطقة التي تمركز بها الشباب بدقة حسب ما طلبته منهم ، حتى لا يصابوا بطلقة طائشة من هنا أو هناك ، استمر هذا الوضع لدقائق ثم صحت فيهم أن انسحبوا فإن الروس قد عملوا لنا كميناً.

وزاد خوفهم أكثر عندما سمعوا مني هذا الإعلان، لدرجة أن بعضهم تركوا الكثير مما كانوا يحملونه من شدة الفزع ، حتى أنني أشفقت عليهم وكدت أن أعلن لهم أنها مناورة للاختبار!!، لأنني قلت لنفسي: أنا في الأخير مسؤول عن هؤلاء أمام الله، وشعرت بذلك أكثر من ردة فعل العدو فإنه لم يسكت لهم سلاح ولم يتركوا سلاحاً إلا واستعملوه ضد تلك الجبال التي كانوا يعتقدون أن المجاهدين سيخرجون عليهم منها "يحسبون كل صيحة عليهم"، حتى الطيران استدعي من داخل كابل لقصف هذه المناطق ، كانت المسافة التي تفصلنا عن المعسكر قرابة ٦ – ٧ كيلو مترات ، استغرقت منا مشياً على الأقدام قرابة نصف ساعة، وطوال هذا الوقت والقصف لم يتوقف دقيقة واحدة.

كنت أنا وأخي أبو القعقاع والإخوة الأفغان آخر من وصل إلى المعسكر، وكنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن أرى أمامي قتلى، أو جرحى من الشباب المرعوبين العائدين إلى معسكرهم مع أول تجربة لهم، وعندما وصلنا لمعسكرنا سألنا عن صاحب "صاحبي" الذي من أجله قمنا بهذا العمل؟ فقال لنا الإخوة الأفغان: إن بداخل هذه الخيمة عربي يصيح ويبكي ، علمنا أنه صاحب أبي القعقاع!! دخلنا لرؤيته فإذا بقدمه اليمنى قد تورمت بصورة مخيفة لكنه كان يصيح أكثر من مغص في بطنه وإسهال شديد كان يعاني منه ، لدرجة أنه كان يخرج بين الفينة والأخرى إلى الخلاء ليقضي حاجته!!

واستمر على تلك الحال من قبل المغرب بساعة تقريباً إلى وقت العشاء وطوال هذه الفترة وهو يطلب العودة إلى "ميرام شاه" ولم يكن يرغب بالبقاء بعد

هذه التجربة!! فقلنا له: إن سيارة المعسكر لن تعود قبل ظهر غد لأنها في مهمة لشراء السلاح من منطقة بعيدة ، فقد تعرفنا على قائد أفغاني – محسوب على المجاهدين – كان يبيع حصته من السلاح بمجرد أن يستلمها من الحكومة الباكستانية ، واستمر يلح على هذا الطلب، وكان غرضي أن يتألم أكثر حتى يطلب الحديث مع أبي القعقاع، ولسوء حظه أن الطيران الروسي تلك الليلة لم يسكت فقد واصل التحليق فوقنا حتى بعد خروج هذا الأخ من المعسكر، وبعد ذلك الألم ومضي بعض الوقت، قلت لأبي القعقاع: ادخل واجلس قريباً منه ولا تسأله عن شيء حتى تشعره أنك تهتم بأمره وانظر ماذا سيقول لك؟ ففعل ذلك أبو القعقاع ، وبينما هو بجواره إذ به يقول: يا أخي أبا القعقاع ، إنني أشعر أنك لم تطمئن لي بسبب طبيعة عملي ، ولكني أقسم لك أني ما جئت إلا للرباط في سبيل الله وإن طبيعة عملي بعيدة كل البعد عن ما تظنه فأنا تخرجت في أمريكا وأعمل في برامج الحاسوب وإنني أحب الجهاد والمجاهدين فلا تظن بي غير ذلك لأنني صادق معك ، وإن الذي رأيته معك – اليوم – وقد كدت أموت من الخوف ، أشعر بأنني لا أساوي شيئاً أمام هؤلاء العمالقة!!

ثم استطرد يقول: أرجوك يا أبا القعقاع ، إن الألم الذي في بطني يقطعني وقدمي لم أعد أشعر بها.. أريد العودة ولو حتى إلى جاور لا أريد أن أبقى هنا أبداً.

بعد ذلك خرج أخي أبو القعقاع من عنده وحدثني بما قال له صاحبه وطلب مني ذلك اليوم أن لا أخبر أحداً باسمه أو كنيته لأنه – كما قال– قد يكون صادقاً ولا نريد له إلا الخير.

قلت له: أنا الآن سأنزل إلى عامل الإشارة عند الأخ "شرين جمال" قائد منطقة "ليجة" وأطلب من عامل الإشارة أن يرسل برقية عاجلة إلى معسكر الفاروق التابع للشيخ "جلال الدين حقاني" لطلب سيارة لنقل الأخ المريض ، ثم

أعود إلى الإخوة لأخبرهم أن يجمعوا أغراضهم لمن أراد منهم الذهاب مع المصاب ، قال لي أخي أبو القعقاع : أنا لا أستطيع أن أتركهم، وإن كنت أتمنى أن أمضي الثلاثة الأيام الباقية هنا معكم، ولكن إن شاء الله سأعود قريباً عند أول فرصة. ثم قال لي: انتظر مني رسائل عديدة مع القادمين إليك من الرياض لأني سأكون أدعوهم أن يذهبوا إلى "ليجة" ..

ولم ننتظر كثيراً حتى وصلت السيارة ونقلنا الأخ المريض ، ثم ودعنا جميع الذين أتوا مع أخي أبي القعقاع إلا واحداً منهم كانت كنيته "أبا عاصم" فقد رفض العودة مع أهل حارته وجيرانه ، وكان شاباً بعمر أخي أبي القعقاع لا يتجاوز خمسة وعشرين عاماً ، وقد مزق – بعد فترة – جواز سفره ، وأقسم على نفسه أنه لن يعود إلى أرضه (السعودية) ، وبعد سبعة أشهر من فراقه أبا القعقاع ، وعندما كنا في ليجة، استشهد ونحن في عملية في وسط "قرديز"، ولم أكن أعلم أنه مهندس في سلاح الطيران في قاعدة الملك فيصل إلا من خلال قراءة وصيته وبطاقة دخوله إلى القاعدة.

وقد كان هذا الشاب مميزاً وخدوماً لإخوانه ، لم أره يتكلم كثيراً مع أحد ولم يشتك منه أحد ، حتى البدلة التي كان يلبسها لا يخلعها إلا عند غسلها، كان من شدة تواضعه يجعلك تستحي من نفسك ، وكان بارعاً جداً باستعماله سلاحه المدفع ٧٥ملم "صيني الصنع" ، وإني أقسم هنا أنني شممت رائحة المسك من دمه الزكي ونحن ندفنه في قمة جبل في مكان بعيد لا يعلمه إلا الله ، إنه الآن يرقد هناك بجسده الطاهر النقي ، كما كان قلبه نقياً على إخوانه – أحسبه كذلك – والذي عرفه عن قرب لا يختلف مع ما أقول.. وصدق الله القائل: (وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ) اللهم اكتبه عندك من الشهداء.

إلى هنا برنامجي مع أخي "أبي القعقاع" ومعه صاحبه المريض، ولم أجتمع به حتى اليوم.. أرجو أن يكون بخير وأن لا يصيبه ما أصاب بعض إخوانه من الحكم!!

صراع القيادات العربية داخل بيشاور

وجد الشيخ عبد الله عزام نفسه أمام رجل يريد أن يظهر بأية صورة ابتداء من قيامه بفتح مضافات خاصة به تضم الموالين له وخاصة المصريين وانتهاءً بإصراره أن يكون أمير مجلس شورى العرب ، مع أنه من المعلوم شرعاً أن الإمارة لا تعطى لمن طلبها، وقد اندهشنا من تصرف أسامة وكيف كانوا يذكرونه بالمحاذير الشرعية حيال هذا الأمر ولكنه سقط أو أسقط نفسه عندما نسي وطلب أن يكون هناك انتخاب على منصب الإمارة ، مع العلم هنا أنه من الذين يحاربون البرلمانات ومن يدخل البرلمان أو أي شكل من أشكال الشورى!!. وكانت حملته على الإخوان بسبب أنهم يدعون أو يجيزون الدخول في البرلمان ، وبالرغم من أنه كان يعلم أن الذين أمامه كلهم في الحركة الإسلامية (الإخوان المسلمين) وأنه لا يمكن أن يحصل على هذا المنصب (لم يكن يتحدث عنه إلا فيما ندر ، إن أبا عبد الله لم يكن حريصاً على الظهور أو أن يشار إليه بالبنان ، كلا . وكما قيل : صامت ما تكلم ظنه البعض أبكما . رجل كان يعمل بصمت وفجأة ظهر بمشروع فتح جبهة جديدة – جبهة جلال أباد – ونزل بكل إمكاناته ، فالصورة التي تظهره وهو يحمل جهاز الاتصال نوع (أيكم) وبجانبه أخ اسمه سراقة هي في جلال أباد ، وهذا الأخ استشهد أثناء انسحاب العرب من على مشارف مطار جلال أباد).

ولأنه قاتل وحاول مع اثنين من أعضاء المجلس من الشباب الذين لم يكونوا معروفين عند العامة، وحاول معهم أن يتناسوا مشروعهم ولكنه فشل في ذلك وقد أخبر الشيخ عبد الله عزام بذلك بمناسبة متأخرة.

أقول : إن التباين كان قد بدأ يظهر على السطح رغم محاولات الشيخ عبد الله عزام كتمانه بطريقته الخاصة مثل دعوته للإخوة العرب المجاهدين أن يدخلوا إلى أفغانستان (وكان معروفاً عن الشيخ عبد الله قدرته على الإقناع من خلال العلم الذي كان يتفجر من بين جوانحه ، فهو يحمل درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي، وخريج مصر) مع العلم – وأنا أشهد على ذلك – أن الذي طلب عقد مجلس شورى العرب لضم أبي عبد الله إلى عضوية المجلس هو الشيخ عبدالله بمبادرة شخصية منه، ربما أنه كان يريد احتواءه بعد أن وصلت إليه معلومات مؤكدة من إخوان معه تقول: إن فلاناً وفلاناً لهم علاقة مع دوائر استخبارية عربية يعملون مع أبي عبد الله، وقد كان لهم حضور واضح داخل بيشاور وليس داخل أرض الجهاد.!!

وقد بُلّغ أبو عبد الله بهذه المعلومات لكنه لم يتخذ أي إجراء، واستمر في العمل معهم بل ووسع نطاق عمله، حيث تم فتح مضافة خاصة للإخوة المصريين تكريماً لهم ورداً على موقف الشيخ عبد الله عزام، مع العلم أن الشيخ عبد الله كان يرفض فتح مضافات للإخوة العرب ، وكان يريد أن يفتح لهم مجمعاً سكنياً يضم الجميع عدا اليمنيين فإنه وقف معهم منذ أول يوم ظهرت فيه مشاريع أبي عبدالله المشبوهة!! إذ كان الشيخ عبد الله يعلم أن اليمنيين عاطفيون وصادقون!

وإني بهذه المناسبة أذكر زيارة قام بها (الشيخ عمر أحمد سيف) وقام خلالها بزيارة أبي عبد الله واجتمع به يومين أو ثلاثة أيام، خرج علينا بعدها في صلاة الجمعة وكان خطيباً لهذه الجمعة في مسجد الشهيد سبع الليل (اسم الجامع أطلق من قبل الشيخ عبد الله عزام حباً وتكريماً لهذا اليمني الشهيد سبع الليل الأحمدي) ، وأعلن الشيخ عمر أحمد سيف في خطبته تلك بكفر الرئيس

علي عبد الله صالح ووجوب الخروج عليه!! كل ذلك بسبب جلسة أو جلستين مع أبي عبد الله!! فإذا كان لسان حال هذا الشيخ اليمني (عمر أحمد سيف) بهذا المنطق فكيف بمن هو دونه علماً وخبرة وسناً؟!!

وذات يوم – وأقسم بصحة ما أقول – كنت أتحدث مع شخصية ربما لم تظهر على شاشة التلفاز – حسب علمي – واسمه "أبو دجانة المصري" وكان الحديث عن دور اليمنيين و استماتتهم على الحق عندما يؤمنون به، وذكرت له العديد من مناقب اليمنيين المسلمين الأوائل والحديث المشهور عن رسول الله بشأن اليمنيين وكيف أنهم أسلموا برسالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رده علي وبلهجة – مصرية لا تخلو من خبث وحقد–"آه على شان أنتم "هبل "وسذج" وبينضحك عليكم بسرعة"!!، ثم تركني وذهب، وأذكر له أيضاً موقفاً آخر بعد سنتين من هذا الموقف – ربما كان أهم وأخطر من الأول– فبعد مقتل الشيخ عبد الله عزام – رحمه الله ورضي عنه – زار بيشاور عالم وداعية مشهور جداً في جزيرة الخليج ، وكان قبل زيارته قد تعرض لابتلاء من أمير منطقة – مجاورة لبلدي – وسجن على إثر تلك الحادثة، والتهمة البشعة التي لا يمكن أن يصدقها عاقل، المهم أراد الشيخ المسكين أن يزور بيشاور ويدخل أرض أفغانستان، ليعود له بعض كبريائه بعد أن أهين في وطنه!! وتعود له بعض الثقة إلى نفسه من خلال معايشته للمجاهدين ودخوله إلى أرض الجهاد والرباط، وكان مسئولو المضافات الرئيسية لأسامة قد أعلنوا عن المحاضرة التي سيلقيها الشيخ الضيف، ووزع ذلك الإعلان – الذي حدد مكان وزمان المحاضرة – وبعد صلاة المغرب وقد اجتمع الشباب من جميع المضافات التي كثرت وتفضل بها أبو عبد الله للشباب العرب، بل لشباب كل دولة عربية، وذلك من كرم أبي عبد الله ، وبعد أن جلس الشيخ على مقعده وحمد الله وأثنى عليه سبحانه بما هو أهله ثم صلى على رسول الله..

إلى آخر تلك المقدمات المعروفة لمثل هذه المناسبات، وكنا نحن المستمعون له في شوق ولهفة لسماعه ، حيث كان قد مضى على ساحة بيشاور فترة طويلة لم يزرنا فيها أحد من الدعاة المخلصين سوى "المخبرين والمكلفين منهم!!" ومعلوم عن هذا الشيخ الكريم الضيف أن أشرطته لا يخلو منها بيت ولا جيب أخ عربي وذلك لعلمه الواسع، وسمعته المتميزة بين شباب الصحوة الإسلامية!!

وعند أول دقيقة من بدء المحاضرة، نهض رجل من طرف صالة المحاضرة وآخر من الطرف المقابل له ومن مقدمة الصالة ووسطها وكل واحد منهم يسأل الشيخ "الضيف" سؤالاً عن رأيه في التنظيم الفلاني والجماعة الفلانية ، وآخر يقول: لن نسمع لك حتى نسمع الحكم الشرعي عن الرئيس مبارك ، وآخر يقول: لماذا لا نكفر الملك فهد الذي حمل الصليب على صدره؟؟..الخ تلك الأسئلة المعروفة عن الجماعات المصرية.

كل تلك الأسئلة ذكرت داخل مضافة أسامة بن لادن، وكان الغرض منها إسكات ومنع الشيخ الضيف من إلقاء محاضرته ولكننا في المقابل استضفنا الشيخ السعودي "الضيف" بمضافة "بيت الفاتحين" في اليوم الثاني من منعه في مضافة "بيت الأنصار"، وأعلن عن المحاضرة وطبعت الإعلانات ووزعت حتى في الشوارع نكاية بأولئك المرجفين!! وتمت المحاضرة بحمد الله ، وكنا نشترط على كل أخ حضر المحاضرة أن يمتنع عن إلقاء أي سؤال في المحاضرة وأن يقدم سؤاله إن شاء – مكتوباً أو شفهياً – للشيخ بعد المحاضرة، ولن نسمح بأي حال كان بأن يتكرر ما حدث بالأمس!! وتم كل شيء بفضل الله.

كل تلك المواقف والإرهاصات لم تكن خافية على أحد من الشباب العرب، ولكني أعلم نفسية أولئك الشباب فهم لم يكونوا يحبذون الخوض في تلك الأمور التي كانت حقاً تميت القلب وتوغر الصدر ويصاب الإنسان منها

بحالة اكتئاب نفسي شديد، ذلك لأنهم لا يريدون إلا أن يلقوا الله شهداء ولا يعنيهم بأي حال من الأحوال ماذا قال زيد؟ وماذا فعل عمرو؟ وذلك لسبب بسيط – أجزم به – وهو تربية ودعوة ودروس الشيخ عبد الله عزام الذي كان معروفاً بقدرته على الإقناع من خلال العلم الذي كان يتفجر من بين جوانحه، فهو خريج مصر ويحمل درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي، وكان يتميز بطلاقة لسانه ولغته العربية التي كانت تخرج من فمه كالسلسبيل.

وقد ظل – رحمه الله – يعمل ويحاول جاهداً تخطي تلك الخطط والمشاريع المشبوهة وكل ما من شأنه أن يعرقل مسيرة الجهاد الأفغاني، ولهذا جمد ذلك التقرير الذي جاء به الشباب العرب من شمال أفغانستان ووقع عليه اثنان وخمسون أخاً عربياً والذي أدان أحمد شاه مسعود – الذي قتل مؤخراً وبمصادفة عجيبة قبل أحداث ١١من سبتمبر بيومين – بعلاقته المشبوهة مع الفرنسيين من خلال صحفي فرنسي كان قد مضى على بقائه في شمال أفغانستان سنين عدة.

ومن أجل ذلك التقرير طرد كل الشباب العربي من الشمال في ليل مظلم ، قتل بعضهم هناك باستثناء شخص واحد فقط اسمه (عبد الله أنس) جزائري الجنسية والذي تزوج بابنة الشيخ عبد الله عزام ، وقد رفض الشيخ عبدالله عزام البت في هذا التقرير حيث رأى من الناحية الشرعية أن لا يثار موضوع أحمد شاه مسعود في ذلك الوقت الذي كان المجاهدون الأفغان على مقربة من حصاد وقطف ثمار جهادهم.

كنا ندرك منذ وقت مبكر أن "أحمد شاه مسعود" يريد أن يستقل بشمال أفغانستان ذي الأهمية الاقتصادية والإستراتيجية، وقد تدهورت علاقته مع المجاهدين العرب خصوصاً بعد ذلك التقرير، ولهذا لم يكن موقف جماعة أحمد

شاه مسعود والطاجيك عموماً ضد العرب في الفترة الأخيرة، وما قيامهم عند سقوط طالبان بقتل أحد الإخوة العرب بتلك الصورة البشعة التي تناقلتها وسائل الإعلام – بغض النظر عن انتماء هذا الشخص فهو في الأخير مسلم – إلا بسبب تلك الخلفية، ويكذب من قال إن ذلك بسبب مشاركة العرب في القتال مع طالبان (عندما ظهرت هذه الحركة) .

إن ما يحزنني أن تشوه تلك العلاقة التي كانت بيننا وبين الأفغان الذين كانوا يسموننا "أحفاد الصحابة" وكانوا – في تلك الأيام – يقولون لنا إننا أنفسنا ضيوف لديهم وهم قادتنا، وقد كانوا الأصل في كل شيء في المعركة أو التخطيط ونحن مساعدون لهم، لا كما حصل مؤخراً من القيادات العربية التي قادتنا وقادت الأفغان إلى الهاوية!!، إن خبث السياسة والسياسيين هي التي أوصلت الجهاد عموماً وعلاقة العرب مع الأفغان إلى ما وصلت إليه . هذا الفصل يحتاج تحديداً إلى قراءة واعية ودراسة الملابسات التي أحدثتها تلك الفترة من عمر الجهاد الأفغاني ، أعتقد جازماً أننا إذا تعرفنا على مجريات تلك المرحلة فسيكون من السهل جداً قراءة الأحداث التي تلتها .

الإعداد لمعركة "جلال أباد" من قبل أسامة بن لادن

كانت علامة الانقسام بين العرب في بيشاور ظاهرة جداً، وكانت تنتظر مناسبة – إذا صح التعبير– للإعلان عنها!، وكان الشباب العربي يعيش في حيرة بعد كل تلك الإرهاصات التي ضايقتهم كثيراً، وبسبب توقف العمليات العسكرية في كثير من مناطق أفغانستان لأسباب معروفة كانت لها علاقة بموقف الحكومة الباكستانية وظهور قيادة باكستانية جديدة مناوئة تماماً للجهاد الأفغاني، وترفض على وجه الخصوص تواجد الشباب العربي على أراضيها، كل ذلك تم أو حصل عندما جيء (ببنازير بوتو إلى الحكم) على أنقاض ضياء الحق – رحمه الله– .

في تلك الأثناء كان قد بدأ الترويج لعملية كبيرة – كما قيل – في جلال أباد، وكان يعلن بهذا الموضوع داخل بيشاور وكأنه إعلان تجاري!! حتى أن خبر الإعداد لهذه العملية قد وصل إلى أرض السعودية حيث كان يتواجد فيها آنذاك "أبو عبد الله" الذي كان يعد العدة لهذه العملية من هناك!! وأفراده داخل بيشاور يعبئون الشباب ويحرضونهم على الدخول في هذه المعركة ، وقد علق أحد الإخوة على هذا الموضوع بالقول: "إنكم ستشاهدون قريباً في التلفزيون إعلاناً عن العملية القادمة في جلال أباد!!".

بعد أسابيع من العمل الدعائي و الاستعدادت، عاد أبو عبد الله "أسامه بن لادن" من مملكته وأعلن عن محاضرة له في مضافة "بيت الأنصار" وكنت أحد الحاضرين في تلك المحاضرة ، وكان مما قاله فيها: "إنني أتيت من المملكة وقد

جمعت ثلاثمائة وأربعين مليون ريال للجهاد والمجاهدين ، وإننا الآن نعد العدة للمعركة القادمة لجلال أباد".

وبعد أيام نشاهد أسواق السلاح المنتشرة على طول خط الحدود الأفغانية – الباكستانية وقد نفذ السلاح منها وخصوصاً الأسلحة الثقيلة مثل: الصواريخ والـ "بي – إم ١٢" وقذائف الهاون ٦٢ ملم ، وقذائف الـ"آر بي جي ٧ " وكل الذخائر التي كانت تستعمل في أرض الجهاد، ولأنني كنت أشتري الكثير من الذخائر بسهولة، فإنه بعد سحب نسبة كبيرة مما كان متواجداً في الأسواق ، فقد كنت أبحث عن صاروخ الكاتوشا الذي كنت اشتريه سابقاً بمبلغ يتراوح بين (١٠٠٠–١٢٠٠) روبية باكستانية ، فلم أعد أجده إلا بصعوبة بالغة وبسعر (٤٠٠٠روبية)!! وحتى الحكومة الباكستانية شددت على تجار السلاح من البيع في الأسواق المعهودة لمثل هذه التجارة!!

ومن أجل ذلك الوضع – الذي أحدثه أسامة، وأحدثته معه الحكومة الباكستانية – فقد بدأت تجف المساعدات التي كانت تقدمها الحكومة الباكستانية للأحزاب الأفغانية الثلاثة المعروفة ، مع العلم أن تلك المساعدات كانت عبارة عن "أمانات" لدى الحكومة الباكستانية من أيام الشهيد خالد الذكر "ضياء الحق" رحمه الله ، وبتلك العمليتين (سيطرة أسامة على الأسلحة وتجفيف المساعدات الباكستانية) خفت كثيراً العمليات الجهادية داخل أفغانستان، وفي نفس الوقت اضطرت – بعض القيادات الأفغانية – أن تخضع لقرار أسامة .. فبعد الإعلان والتهيئة لدخول المعركة القادمة – التي علم بها ربما صاحب عربة الخيل الباكستاني الذي يعمل داخل بيشاور – فقد طلب "حكمتيار" اجتماعاً يضم "سياف ورباني وأسامة بن لادن" ليسمعوا من بن لادن خطته، ولماذا حدد "جلال أباد" لمعركته القادمة؟؟

وقد تم ذلك الاجتماع بالفعل ، ولأن "أبا عبد الله" كان له أثر واضح على القيادات التي يجتمع بها نظراً للمساعدات التي قدمها لهم والأعمال الخيرية التي كان يقوم بها من حفر الآبار ، وتعبيد الطرقات، وبناء الكثير من المستوصفات على الحدود الباكستانية، كل ذلك ترك أثره على القيادات الأفغانية ولم يجادلوه كثيراً!!

وأذكر هنا أن حكمتيار قال له: يا أبا عبد الله ، إننا لا نفكر الآن بجلال أباد ، إننا نركز ونضع كل ثقلنا العسكري على "كابل" فإذا سقطت سقطت بقية المدن تترى!! وأنت تعلم يا أبا عبد الله ، أن المجاهدين الأفغان لم يخوضوا معارك في الصحراء، كما أنك تعلم أيضاً ماذا تعني"جلال أباد" بالنسبة لنظام نجيب في كابل؟ إنها سلة الغذاء له ولنظامه ، وسيستميت ويقاتل بكل سلاحه للحيلولة دون سقوط هذه المدينة!!

واكتفى حكمتيار بتقديم رأيه الذي سمعه الحاضرون في ذلك الاجتماع ، ولكن أبا عبد الله استمر في الإعداد – المادي والبشري – لتلك المعركة!! ودعونا ننظر الآن لواقع الجبهة ؛ نحن نعلم أن أغلب الجبهات قد توقفت عن القتال ونعلم أيضاً نفسيات العرب ودورهم في الجهاد الأفغاني، وكان أغلبهم – على الأقل في ذلك التاريخ قبل المعركة – مخلصين صادقين ، ولأنهم قد ضاقوا ذرعاً ببقائهم في بيشاور بسبب ما ذكرناه سابقاً فإنه لم يعد أمامهم إلا تلك الجبهة المفتوحة الغنية والمميزة بكل الإمكانيات الغذائية والعسكرية، لهذا توجه أغلبهم إلى (طور خم) ليستعدوا لبدء المعركة، لن أعلق على الخطة أو الإستراتيجية التي كانت لدى أسامة بن لادن لهذه المعركة لسبب بسيط هو أنه اعتمد فقط على الأسلوب التقليدي في حرب العصابات، ولم أجد غير ذلك، ولم يكن يدرك أنه الآن أمام حرب رسمية – إذا جاز التعبير– على طول منطقة كبيرة وواسعة

منها ما هو صحراوي وكثير منها مليء بالأشجار والغابات والمزارع تصل إلى أكثر من ثلاثين كيلو متراً.

يقابله سلاح ثقيل وفتاك بل وصواريخ اسكود (أطلق منها ٤٧٠ صاروخاً) كما صرح بذلك الجيش الباكستاني مقابل ما لدى المجاهدين من سلاح لا يكاد يذكر أمام تلك الترسانة من الأسلحة الروسية!! وعدد كبير – غير مسبوق – من الشباب العرب!!.

بدأت المعركة وكان النصر حليف المجاهدين، وبالمناسبة فإن تلك الصورة التي تشاهدونها في التلفزيون لأسامة وبيده جهاز لا سلكي من نوع (أي كام) كنا نشتريه من سوق خارج بيشاور على طريق (طور خم) وكانت تلك الصورة بالتحديد بمركز يسمى مركز (سراقة) واستمرت الانتصارات حتى وصل المجاهدون إلى قرب مطار "جلال أباد"، بل ودخلوا مزرعة اسمها (ثمر فيل ووقفوا عند تلك النقطة.

وهنا ملاحظة أود الإشارة إليها وهي أن الأفغان ولأسباب خاصة بهم على اعتبار أن المعركة فرضت عليهم – قد دخلوا المعركة بقوات رمزية، فقط حبا وكرامة لأبي عبد الله!! بقي المجاهدون في آخر نقطة وصلوا إليها ولم يستمر بقاؤهم فيها طويلاً، حيث أعاد الشيوعيون الكرة على المجاهدين وأعادوهم إلى أول نقطة انطلقوا منها،!! وحسبي الله ونعم الوكيل، فقد كانت النتائج مفجعة من حيث الشهداء من الأفغان والعرب!! وعاد أسامة إلى بيشاور بدون خفي حنين بعد تلك الكارثة والفاجعة الغير مسبوقة في تاريخ الجهاد الأفغاني بكل المقاييس المعهودة لدى الأفغان.

في ذلك التاريخ طلب عقد اجتماع – من قبل أخ يمني – لمناقشة ما جرى، وفي الاجتماع بدأ هذا الأخ اليمني بتوجيه عدد من الأسئلة لأبي عبد الله،

وكان مما قال له: إنني أريد أن أسأل: لماذا لم تضم إليك يا أبا عبد الله، فلاناً وفلاناً – وهما أبو عاصم المصري (وهذا الأخ كان قد مكث عدة أشهر في المعسكر الذي أنشأناه في ليجة وعمل العديد من الدورات للشباب العرب، وكان آخر برنامج له في تلك المنطقة هو تفجير كل القنابل الموقوتة التي تسقطها الطائرات الروسية، وهذا البرنامج شهد له جميع الأفغان في "خوست" وبنظر الشيخ جلال الدين حقاني)، وأما الأخ الآخر فهو "أبو الحسن"، وكان صاحب فكرة " دورة الفصائل" – هؤلاء الاثنان كانا أهم قائدين عسكريين بسبب خبرتهما العسكرية.. أعتقد أنه كان الأولى أن تضم مثل هاتين الشخصيتين إن كنت – كما أقسمت – مصمماً على خوض معركة جلال أباد؟ كيف استطعت أن تقفز فوق عمالقة الجهاد أمثال: سياف وحكمتيار ورباني ويونس خالص وتظهر لنا برجل لم نسمع به من قبل يترأس بل يتجاوز أبناء قومه؟؟

كيف أمكنك أن تلغي الرجل الذي رفض أن يقابل الرئيس الأمريكي "ريغان"؟

كيف أمكنك أن تلغي دور القيادات التي كانت أمريكا وبريطانيا تتمنى رؤوسهم لأنهم حسب المصطلح القديم من المتشددين والأصوليين؟!

لماذا لم نسمعك يوماً تقول إنك على استعداد لأن تشكل حلفاً مع حكمتيار الذي أغلقت حكومة بلدك مكتبه بحجة انه يقاتل الموحدين في كونر، ظهر رجل من الأفغان اسمه (جميل الرضي) وأعلن نفسه زعيم (الموحدين) السلفيين فكان أن أعلن نفسه (أميراً للمؤمنين) (وأمير كونر الإسلامية) ولأن كونر أول ولاية تم تحريرها تماماً وكانت تحت سيطرة حكمتيار .. إذاً فكرة الطالبان بدأت، ومن هنا كانت البداية (وكانت أول سابقة اتخذتها السعودية هي إقفال مكتب حكمتيار لتعلن صراحة عن عدم رضاها عن هذا الرجل الذي

رفض كل مخططات أمريكا والغرب) وأن أهدافك تلك قد توافقت مع ما كانت تريده بكل دقة وإخلاص!!

أمام تلك الأسئلة التي انهالت على أسامة طوال فترة الاجتماع أقسم أنه لم يجب على أي سؤال سئل به ، وكان يكتفي إما بتعديل جلسته أو تحريك السواك في فمه!!

عند ذلك قال له هذا الأخ: اسمع يا أبا عبد الله ! بما أنك لم تجب على أسئلتنا ولا تريد أن تبين موقفك من هذه العملية، فإني أقول لك بكل صراحة ووضوح: إنك واحد من اثنين: إما أن تكون عميلاً لأعداء هذا الجهاد، أو أنك تريد أن تكون رجلاً عسكرياً، وبالتالي فإنك فاشل ولا تصلح للقيادة!!

هذا الأخ مسئول الإخوة اليمنيين كنيته أبو الشهيد وهو من حقق مع أسامة ويعيش بيننا وقد سمحت لنفسي بذكر اسمه بعد الإذن منه .

وبعد مضي فترة من ذلك الحادث، وتلك المقابلة ، اشتد التضييق على الإخوة العرب ومنعوا من دخول أفغانستان عبر المنافذ المعروفة من (تل، ميرام شاه ، وطور خم، وأعظم ورسك) بل ووصل الأمر إلى سجن العديد من الشباب، وكنا نشعر بالزيارات المتكررة لمدير الاستخبارات السعودية – الذي عزل مؤخراً– وكان يحرض علينا القبائل الباكستانية ويعطيها الأموال من أجل منع شباب العرب من الدخول إلى أفغانستان.

وكنا نضطر لبذل أقصى الجهود وتكرار المحاولات، لاجتياز نقطة ما كانت القبائل تستحدثها في المناطق الحساسة، والتي لم نكن نستطيع اجتيازها إلا بمغامرة!! وبعض الشباب – الذين كان نفسهم قصيراً ييأسون من أول محاولة – كانوا يضطرون للعودة إلى بيشاور ، وبعضهم إلى بلده، وهو المطلوب إثباته!!!

وإضافة إلى ما كان من التضييق على الشباب العربي في الحدود الباكستانية الأفغانية، فإنني أتذكر أنهم عندما لم يجدوا وسيلة لاكتشاف العدو الحقيقي – ليس من الشباب العربي بل ممن تبقى منهم بعد المحاولات – طلعوا علينا بمشروع جديد يقضي أن على من أراد أن يذهب إلى أفغانستان ، بل ومن أراد أن يتمشى في أي منطقة داخل باكستان، فليس عليه إلا أن يحضر إلى مكتب الإغاثة الإسلامية العالمية، التي كان يديرها المهندس يوسف حمدان "من جدة" أو الهلال الأحمر السعودي ويصطحب صورتين (مقاس ٤×٦) ملونة وصورة لجواز السفر، وتعطى له بطاقة خاصة للعاملين بتلك المنظمة السعودية.

مع العلم أنه كان يوجد داخل بيشاور العديد من المنظمات العربية الأخرى، ولكن مدير الاستخبارات السعودي لم يكن يسمح إلا لتلك المؤسستين لا غير!! وقد نجحوا من خلال تلك الفكرة الممتازة في الحصول على أكثر من "٧٠٪" من أسماء وصور أولئك الشباب الذين لم يكن لهم من هم سوى الابتعاد عن بيشاور والدخول إلى أفغانستان لعل الله يرزقهم الشهادة!!.

آخر لقاء لي بالشيخ عبد الله عزام قبل مقتله

بعد كل الذي جرى من الخسائر الكبيرة في صفوف المجاهدين وخصوصاً العرب، ودحر الشيوعيين لهم حتى أعادوهم أول نقطة انطلقوا منها "طور خم"، وكانت تلك أول هزيمة – حسب علمي – يتكبدها المجاهدون الأفغان والعرب على حد سواء، ذلك أنه طوال فترة الجهاد الأفغاني لم نسمع أو نقرأ عن انهزام المجاهدين في معركة خاضوها سواء ضد الروس قبل أن ينسحبوا مهزومين أو ضد الشيوعيين الأفغان، وقد كان ذلك بسبب إصرار أسامة بن لادن على دخول معركة جلال أباد التي لم يوفق فيها سواء باختيار المكان أو الزمان ؛ لأنه – وكما ذكرنا – لم تكن جلال أباد من ضمن أولويات قيادات فصائل الجهاد الأفغاني الرئيسية!!

وإنني بهذه المناسبة أتذكر في ذلك التاريخ الذي سقط فيه العشرات من المجاهدين وسط مزارع جلال أباد وأنا في الطرف الآخر من شرق أفغانستان أتفاوض مع قائد مليشيا منطقة "دير ملك" ومعي البطل "شرين جمال" والذي بواسطته وعن طريق عيونه التي استطاع من خلالها مع قيادات عسكرية كبيرة داخل مدينة "خوست" وفي ضواحيها ، إقناع هذا القائد الشيوعي بالاستسلام ومعه ثمانون رجلاً بكامل أسلحتهم ودبابة جديدة (تي ٦٢) كانت قد صرفت له مؤخراً "أصبحت تلك الدبابة أمام بوابة معسكر ليجة لتدريب الشباب العرب عليها واستعمالها في المعركة" واستطعنا أيضاً أن نسيطر على الأرض التي سلمها قائد

مليشيا "دير ملك" بطول أكثر من ٣ كم ، وقد كلفتني تلك الصفقة (مليون ونصف المليون روبية باكستانية)!!.

كل ذلك دون أن تسقط قطرة دم من أي مجاهد!!، (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).

وقد كان هذا الحادث مشهوراً في "خوست"، وقد أجريت مقابلة مع القائد الأفغاني الذي سلم نفسه للمجاهدين بمجلة البنيان المرصوص وهي موثوقة أيضاً.

وعندما زرت الشيخ عبد الله عزام في مكتبه في بيشاور بعد وصوله من زيارة قام بها إلى السعودية، والتي كانت الأخيرة له!!، وسلمته تقريراً مفصلاً عن هذا المشروع، وقد كتب عنه الشيخ في أحد افتتاحياته لمجلة الجهاد التابعة لمكتب الخدمات التي كان يرأسه ، وإنني لا أنسى تلك الليلة التي كنت معه في مكتب قريب من منزل الأستاذ حكمتيار، وكان هذا المكتب خاصاً لخدمة "المهاجرين والأيتام"، فبعد أن سلمت له التقرير عن الوضع العسكري بمنطقة "خوست"، وبعض المناطق المحيطة بها، وبعد أن صليت معه صلاة العشاء ، أمرني أن أجلس وأتناول معه طعام العشاء.

تعشيت مع الشيخ ومعنا أبو الحارث (سائقه ومرافقه الشخصي) ، وأبو الحسن الفلسطيني، وأبو عبد الله البلخي.. وبعد أن تناولنا طعام العشاء أراد الشيخ أن يشرب الشاي داخل مكتبه فدخلنا جميعاً المكتب ودون أن يطلب منه أحد أن يحدثنا بدأ الحديث عن زيارته الأخيرة وقد كانت الأخيرة فعلاً في حياته!!

قال الشيخ: إنه زارني رجل من أهل الرياض وهو الشيخ (.....) وقال لي: يا شيخ عبد الله ، إن تجار مدينة الرياض قد رفضوا أن يسلموا زكاة أموالهم هذه السنة، وقالوا إنهم لا يسلمونها إلا للشيخ عبد الله عزام يداً بيد . وزكاة التجار كانت تصل قرابة الخمسين مليون ريال سنوياً فقط من الرياض! .. فقلت له: إنني مدعو لحضور مؤتمر في لاهور سأحضره ثم أتبعك إلى الرياض إذا كنت تريد الجلوس في بيشاور.

وأضاف الشيخ عبد الله عزام قائلاً: ثم ودعت الشيخ الذي أحسبه على خير فقد زارنا كثيراً وقدم مساعدات كثيرة للمجاهدين، ثم ذهبت لحضور المؤتمر وعدت إلى إسلام أباد لأنهي بعض أعمالي فيها ، ثم سافرت منها مباشرة إلى الرياض، دون العودة إلى بيشاور مرة أخرى.

وإنه من عادتي عندما أصل إلى الرياض أو إلى جدة أن أنزل في دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي "ولا أذكر أني نزلت عند أحد" وبعد مضي عدة أيام وأنا أقوم بلقاءات ومحاضرات عن الجهاد الأفغاني، اتصل بي ذات ليلة الشيخ .....؟ وقال: إنني سآتي إليك حالاً فإنك ضيف عند أحد التجار الكبار من تجار الرياض الصالحين!!

قلت له: إنني هنا من أجل هذا الأمر.. أنا في انتظارك.

قال الشيخ: ثم وصل فلان.... ؟ وأخذني بسيارته الأمريكية!! وانطلقنا نشق شوارع الرياض حتى وصلنا إلى حارة، وأدخلني حديقة قصر عظيم، ودخلنا القصر ولم أجد نفسي إلا وأنا وسط مجلس يتوسطه الأمير سلمان "أمير منطقة الرياض"، فنهض جميع من كان في المجلس لمصافحتي وأنا في لحظة اندهاش بهذا اللقاء .. مررت بذلك الجمع وصافحتهم إلى أن وصلت إلى أمام الأمير سلمان فنهض، وصافحني مصافحة باردة ، ثم عقب بقوله: (أنتم الفلسطينيون لا

تحملون معروفاً ولا تقدرون عملاً قامت به المملكة العربية السعودية للمجاهدين الأفغان.. لماذا تحرض الشباب العربي على المملكة؟؟).

واستمر في حديثه وأنا لا زلت أمامه أسمع ملاحظاته على الفلسطينيين – كما قال – وعندما انتهى الأمير من حديثه أردت في تلك الساعة أن أحسم هذا اللقاء الغير مبارك به وبمن حوله ، فأخرجت له دفتر الإقامة من جيبي ، وقلت له: اسمع يا صاحب السمو ، إن الذي يربطني بحكومتك هي هذه الورقات – ورميتها فوق طاولته – تستطيع أن تصدر مرسوماً ملكياً بإلغائها وتعود بي إلى المطار مباشرة ، إنني لا أسمح أن يتهمني أحد أبداً أياً كان هذا الشخص..

قال الشيخ : وبعد أن سمع مني سلمان هذا الرد ورأى هذا الموقف، لم يسعه إلا أن يقول: يا شيخ ، إنك فهمتنا خطأ ؛ إنني أريد أن أسأل فقط ، فإنه قد وصلتنا أخبار تشير بأنك تحرض الشباب العربي على المملكة.. من أجل ذلك سألناك!!

فقلت له: ما دام الأمر كذلك، فإنك تعلم يا صاحب السمو ، أنني في كل محاضراتي وخطبي تقريباً أذكر موقف المملكة السعودية – حكومة وشعباً – المشرف تجاه الجهاد الأفغاني ، وإن أغلب خطبي ومحاضراتي مسجلة نستطيع أن نرسل لسموك نسخة كاملة منها من مكتب الخدمات في بيشاور وتسمعها بنفسك إذا أردت!! كان ذلك ما تحدث به الشيخ عن زيارته إلى الرياض ولم يعقب أو يزيد، هذا ما حفظته منه تلك الليلة ، وإلى جانب حديثه لنا عن زيارته إلى الرياض، أضاف الشيخ قائلاً: إنه قد زارني رجل وهو دبلوماسي عربي تربطني به علاقة جيدة من أيام الجهاد في فلسطين وهو قريب أيضاً من الحركة الإسلامية، زارني في منزلي هنا في بيشاور وأرادِ نصيحتي – وأظنه صادقاً – وقال لي: إنني أخشى عليك يا شيخ عبد الله ، هذه الأيام ؛ لأنك قد أصبحت مزعجاً

لبعض الحكومات!! لماذا لا تترك بيشاور وتعود للتدريس في الجامعة الإسلامية في إسلام أباد؟ وإذا أردت أن أعيدك إلى جامعة الملك عبد العزيز بجدة فإنني أستطيع أن أدبر لك هذا الأمر، إنك تعلم يا أخي، أكثر مني أن المجاهدين لن يصنعوا أكثر مما صنعوا، وأن الشرق والغرب لن يرضوا أن تقام دولة خالصة كما تريد أنت ويريد القادة الأفغان !!.

انتهى إلى هنا حديث الشيخ عبد الله تلك الليلة، وكنت أشعر أن الشيخ عبد الله تعمد أو أراد أن يرى أحداً يحدثه هذا الحديث!! كانت تلك آخر زيارة قمت بها للشيخ عبد الله عزام لأنه بعد شهرين أو أكثر قليلاً قدر الله لي أن أجد الشيخ في ظهر يوم جمعة مقتولاً مع ولديه محمد وإبراهيم في الشارع المؤدي لمدخل (جامع سبع ليل)، وكان الشيخ عبد الله عزام قد أطلق هذا الاسم على أول جامع للعرب حباً وتقديراً لليمنيين ولهذا الشهيد اليمني – رحمهم الله جميعاً.

وإنني هنا لن أتحدث عن طبيعة العمل الإجرامي الجنائي الذي أودى بحياة الشيخ عبد الله عزام لأنه معروف لدى الجميع وقد صور ووثق ذلك الحدث الرهيب في حينه.

إنني أعتقد أن ذلك الفلسطيني الذي كان يمثل أمة وواجهة الجهاد الأفغاني وحاضن الشباب العرب بكل مصائبهم وتناقضاتهم!! قد استطاع أن يستوعبهم جميعاً بفكره وعظيم مشروعه؛ لأن الله عز وجل قد قال في التنزيل الحكيم: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) فإني أعتقد – جازماً – أن عبد الله عزام كان كذلك، إنني أتصور أن الذي قرر التخلص من شخص عبد الله عزام لم يكن إلا مطلعاً على الجهاد الأفغاني وقد سبر أغوار هذا الجهاد وأبعاده وواجهته أيضاً، وما كان يمثله هذا الفلسطيني من أهمية أساسية على ساحة الجهاد الأفغاني.

إن صاحب هذا القرار يملك بصيرة وحكمة مكنته من الوصول إلى نتيجة قاطعة وحاسمة وهي أنه بمقتل الشيخ الفلسطيني يكون قد أنهى تماماً وكسر أهم عمود من أعمدة الجهاد الأفغاني والعربي!! إنه بسقوط وترجل ذلك الفارس يكون أخيراً قد قضى على تمدد ذلك المشروع الإسلامي العالمي.

وقد رأينا وشاهدنا بعد مقتل الشيخ عبد الله عزام كيف تقدم أبو عبدالله "أسامة بن لادن" يريد أن يقود الركب وهو خالٍ تماماً من أي مشروع أو تصور لما يقوم به "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ظلال مبين".

إن آخر ما قام به أسامة بن لادن – وذلك في تصوري – هو القشة التي قصمت ظهر الجهاد والمجاهدين، وألغت تماماً ما كان يسمعنا ويتحفنا به من قضية الولاء والبراء في الإسلام، إنه نادى في محاضرة له بمضافة بيت الأنصار، وأعلن حالة النفير العام للمجاهدين في كل مكان والذهاب إلى أرض السعودية لقتال البعثيين الكفرة تحت راية الدولة السعودية وراية الدولة الأمريكية!!

إن هذا الإعلان أصابني بدهشة شديدة، لأن مضافة الأنصار قريبة من مضافة الشيخ جلال الدين، فقد خرجت من هناك وكأني أصبت بصعقة كهربائية خرجت على إثرها مصدوماً ووصلت إلى مضافة الأفغان أبحث لي عن أمل بدلاً من هؤلاء العرب!!

تصاعد الخلاف مع ابن لادن ومقتل الشيخ جميل الرحمن

اشتد الخلاف بين مشروع أبي عبد الله أسامة بن لادن الذي كان يريد السيطرة – بأي ثمن – على الساحة الأفغانية ومن خلال الجبهة العربية، وبين الإخوان المسلمين الذين كانوا يرون أنه لا ضرورة لمثل هذا العمل الذي يقوم به أسامة، وكانوا يقولون إننا جئنا هنا لمساعدة المجاهدين الأفغان في جهادهم ضد الروس والقوات الشيوعية الأفغانية ، وإن هدفنا الآن بعد أن هزم الروس وطردوا من أفغانستان أن نجند إمكانياتنا وطاقاتنا للقضاء على نظام نجيب في كابل، وإن هذا النظام قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من السقوط إذا حشدنا كل الطاقات الأفغانية والعربية على جبهة كابل (هذه الجبهة التي كان يرفضها أسامة وأصر إلا أن يدخل معركة جلال أباد التي سبق ذكرها).

وفي خضم تلك الحوارات والنقاشات الساخنه داخل بيشاور بدا الوضع فيها خطيراً جداً بسبب الانقسامات التي أحدثتها جماعة أسامة والعاملون معه ، إلا أنه حتى ذلك التاريخ لم يعلن عن اسم تنظيم أو حركة أو حزب خاص به ولكننا نعلم أن كل العاملين عنده هم من ثلاث فصائل: الجهاد ، والجماعة الإسلامية "المصرية" ، وقليل من الفصيل الثالث هم من السلفيين كما يدعون..، كل تلك الإرهاصات أوجدت لنا أول قتيل عربي "تونسي الجنسية" على يد عرب!! بسبب الحوارات والأفكار التي كان يسعر لهيبها أصحاب الفصائل الثلاثة التي ذكرتها.

ثم بعد ذلك الحادث الذي هزنا جميعاً على الساحة السياسية الأفغانية ظهر رجل يدعى (جميل الرحمن) وهذا الرجل صنعته إحدى الفصائل الثلاث – التي ذكرتها آنفاً – وبشكل صريح وواضح.

انطلق هذا الرجل من المدينة المنورة يريد أن يدخل الأفغان الإسلام من جديد!!عن طريق مذهب السلفية كما يدعي، ومعروف ماذا أحدث من شق لصفوف المجاهدين!، وقاد فتنة عظيمة باسم محاربته للشرك والبدع التي وصم المجاهدين الأفغان بها، وكيف أن هذه الدعوة كانت مؤيدة ومباركة من "الرياض"، وكيف أن المساعدات المالية والعينية كانت تنهال عليه بصورة مثيرة ومحزنة جداً في آن واحد !!

وكيف أنه وفي مقابل هذا الحدث ظهر له رجل مصري اسمه "عبد الله الرومي"، وقد كنت على معرفة بهذا الرجل "عبد الله الرومي" حيث كان مراسلاً لمجلة الجهاد، وقد زارني ذات ليلة وأنا في مضافة الشيخ "جلال الدين حقاني" يريد أن يسمع مني أخباراً جديدة عن الجهاد والمجاهدين، وعن آخر العمليات وآخر الشهداء، وكنت قد جهزت له تقريراً موجزاً للمعركة الأخيرة على الجبل "المطل على المطار خوست"، وبعد أن وصل إلى مضافة الشيخ جلال الدين حقاني صعد إلى الدور الثاني في المضافة بعد أن أذن له بالدخول، وبعد السلام والاطمئنان بدأ عبد الله الرومي يحدثني عن المستجدات في بيشاور والتي كانت لا تكاد تنتهي من كثرة مفاجآتها، ثم سألني إذا ما كنت أحمل له شيئاً جديداً من صور، أو تقريراً عن الوضع في الجبهة وعن خوست؟ قلت له: نعم. إن لدي ما يسرك وما تقر به عينك. ثم سلمته ظرفاً كنت قد أعددته مسبقاً.

ثم بدأ يحدثني – بما كان قد حدثني به من قبل – عن هذا الرجل الذي أعلن ولاية كونر ولاية إسلامية سلفية مستقلة ذات سيادة!!، وقال لي: إنني قد

قابلت الشيخ جميل الرحمن وأجريت معه مقابلة صحفية في مدينة إسلام آباد، وبعد أن انتهيت من إجراء الحوار معه أردت نصحه بأن يتقي الله بالجهاد والمجاهدين ويتنازل عن مشروعه الذي لا يخدم إلا الأعداء، وأن ذلك الإجراء الذي قام به إنما يغري المتربصين بنتائج هذا الجهاد، وأن مشروعه هذا سيفضي إلى تقسيم أفغانستان إلى دويلات صغيرة يتناوشها الأعداء!! وأقسم لي عبد الله الرومي أنه كان ناصحاً أميناً وصادقاً لهذا الجهاد الأفغاني العظيم وتضحيات الشعب الأفغاني الهائلة.

وأضاف عبد الله الرومي قائلاً: وبعد أن انتهيت من نصيحتي لهذا الرجل بادر بطردي من المجلس الذي لم يكن بداخله أحد معنا ، وأثناء حديثه شعرت بحياء شديد على وجهه وبالحزن ، ثم واصل حديثه قائلاً: إن هذا الرجل "جميل الرحمن" أصبح فتنة على المجاهدين وخطراً على الجهاد ؛ فهذا الرجل تمرر عبره مؤامرة غاية في الخطورة.. إنك لو تنظر الآن من على هذه الشرفة ستجد العديد من القاطرات والقوافل المحملة بالمواد الغذائية والملابس والخيام.. الخ ، باسم "مولانا جميل الرحمن إمام الموحدين"، إن أغلب المساعدات التي تأتي من السعودية باسم المجاهدين يتم تحويل وجهتها والكتابة عليها بهذا الاسم داخل جمارك وموانئ باكستان ، وإن الرعاية لمصالح هذا الرجل على أشدها في السعودية بدعوى أنه يحارب الشرك والمشركين ويحارب البدع داخل أفغانستان!!

من أجل هذا كله أريد أن أحدثك حديثاً تعاهدني الله أن لا تخبر به أحداً حتى انتهى منه (لم أعطه أي عهد لفظي وإنما رفعت له رأسي بالموافقة) ، ثم استمر في حديثه قائلاً: إنني قد عقدت النية واستخرت الله – عز وجل – على أن أخلص المسلمين من المؤامرات التي تمرر عبر هذا الرجل "جميل الرحمن" ، ولقد قررت قتله، وإنني قد أجريت اتصالاً بولده الذي هو قائد لحرسه وتربطني به

علاقة طيبة، وطلبت منه موعداً لإجراء مقابلة صحفية مع والده لصالح مجلة "البنيان المرصوص"، وقد وافق على طلبي ، وقد كنت أشعت بين الشباب هنا في بيشاور وفي كونر وعند جماعة "جميل الرحمن" أني أصبت بيدي اليسرى ، ومنذ ذلك الحين وأنا أضع شاشاً ورباطاً قوياً عليها ، وسأدخل على جميل الرحمن وبيدي هذه اليسرى – التي تراها – ومربوط بداخلها مسدس من نوع (تاتا ٧ ملم) ، وسأفرغ كل رصاصات المسدس على رأسه!!

ثم أكمل حديثه بالقول: إنك يا مصطفى ، ستسمع قريباً هذا الخبر وأرجو الله أن يتقبلني عنده من الشهداء!! ثم أخذ حقيبته وأخذ الظرف الذي أعطيته إياه وأستأذن بالانصراف وطلب مني أن أدعو له!!.

لم أصدق ما قاله، وقد أصبت بذهول أرقني تلك الليلة، ولم يمض على حديث عبد الله الرومي معي سوى يومين حتى سمعت بالخبر وشاهدت صورة جميل الرحمن في الصحف الباكستانية وهو مقتول وقد تمزق جسده بالرصاص!!، ولم أصدق ما شاهدته بأم عيني وكنت أريد أن أخبر كل من سألني أن عبد الله الرومي هو من قتل الشيخ جميل الرحمن (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ).

من هنا كان لا بد من احتواء وتأطير من تبقى من الشباب العرب بين تنظيمين كانا يتنافسان بشدة في هذا المجال ، وقد نجح أسامة بن لادن نجاحاً باهراً بعد أن أخليت له الساحة وانسحب الإخوان المسلمون عند آخر زيارة للأستاذ عبد المجيد الزنداني لبيشاور، وبعد أن حصل على البيعة ممن رغب في الدخول معه في التنظيم والعودة إلى اليمن وقتال الشيوعيين وقيادة دولة إسلامية – التي تحولت إلى عضوية مجلس الرئاسة ثم تمخض مشروعه بعد عضوية مجلس الرئاسة فولد منه "جامعة الإيمان"!!.

آخر محاولات الإخوان المسلمين لاحتواء أو كسب أسامة بن لادن

حاول الإخوان المسلمون احتواء أسامة بن لادن وتنظيمه في صفوفهم ولكن دون جدوى، وإنني أتذكر آخر محاولة قام بها الأستاذ عبد المجيد الزنداني للاتفاق أو ضم أبي عبد الله "أسامة بن لادن" إما أن يتفق معه على برنامج سياسي معين أو أن يدخل الثاني في تنظيم الجماعة الأم "الإخوان المسلمين".

وهذه المرة كانت المحاولة في جدة أثناء أزمة الخليج الثانية، وقد كنت آنذاك بمنزل الأستاذ عبد المجيد في مكة أتعالج من مرض القرحة الذي اشتد عليَّ في تلك الفترة، وكنا ذات يوم بمدينة جدة "بدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي"، وقد كان الأستاذ عبد المجيد يهيئ نفسه للعودة إلى أرض الوطن لخوض العمل السياسي بعد إعلان التعددية السياسية في بلادنا!!

وفي ذلك اليوم طلب مني الشيخ عبد المجيد أن أذهب إلى منزل أبي عبد الله "أسامة بن لادن" وآتي به إلى مركز "دار الندوة" إذ أنه على موعد سابق معه فذهبت إلى منزله، وعندما خرجنا من المنزل، قال لي أبو عبد الله: تقدم بسيارتك ونحن سنلحق وراءك.. ثم صعد فوق سيارة "نيسان سوداء اللون" وأنا أتقدمه بسيارة الأستاذ "الصالون" وعندما وصلنا إلى مكان الأستاذ تقدمت – على عجل – لأفتح بوابة العمارة لتدخل سيارة أبي عبد الله، فإذا به يوقف سيارته بجانب الطريق ثم أمر سائقه بالعودة من حيث أتى، ثم صعدت بأبي عبد الله إلى الطابق الثاني في المركز "المكان المخصص لمقابلة الأستاذ عبد المجيد".

بعد ذلك دخل الاثنان فقط ، وأقفلت عليهما باباً زجاجياً كان يفصلني عنهما وكان بجانبي أخ من المجاهدين أو بالأصح من الإخوان اسمه (المغوار) ، وقد استمر الحوار بينهما من بعد صلاة العصر إلى وقت أذان المغرب ، وإني أتذكر هنا مما كنت أسمعه عندما كان الحديث يشتد بينهما وترتفع أصواتهما ، أتذكر مما قاله الأستاذ عبد المجيد لأسامة بن لادن : اسمع يا أخي ، إن الحركة الإسلامية تعرف وضعها الاجتماعي و السياسي في اليمن ، وتأثيرها بين القبائل ووجودنا النشط بين المثقفين وحضورنا الواسع بين الجماهير ، إن لنا واقعنا الخاص والمميز والذي من خلاله ننطلق في دعوتنا بين أبناء مجتمعنا، ونحن الآن نعلن عن تنظيم سياسي يمثل الحركة ويعمل بين الجماهير شعاره "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" وإنني هنا باسم الحركة وبتكليف منها أدعوك وأمد يدي إليك لتنضم إلى هذا المشروع العظيم الذي سيباركه الله بوجودك معنا، وظل الأستاذ عبد المجيد الزنداني يمدح أسامة ويذكره مناقبه والرجل ساكت لا يتكلم وكأنه أبكم ، وفجأة خرج علينا الأستاذ محمر الوجه وعليه غَبرة !! ثم نظر إلي وهو يفرك يديه وقال: أوصله يا ولدي ، إلى منزله – حسبي الله ونعم الوكيل!!

وقد كان في تلك الدقائق أذان صلاة المغرب فرفض أبو عبد الله الصلاة معنا!! ثم نزلت معه إلى أسفل الشارع وكان سائقه ينتظره في الشارع .

كان ذلك آخر لقاء بينهما – حسب علمي – حتى تركت الأستاذ عبد المجيد الزنداني سنة ١٩٩٥م بعد حرب الانفصال عندما اتضحت لي الصورة من أن الرجل (الأستاذ عبد المجيد) قد وصل إلى مراده وحقق مبتغاه على خصمه التقليدي .

ولا يفوتني هنا أن أذكر أني سألت الأستاذ عبد المجيد في أول أسبوع من توليه منصبه "عضواً في مجلس الرئاسة" وكنا في ذلك اليوم خارجين من دار الرئاسة ومتجهين إلى منزله في الروضة ، قلت له: كيف وجدت علي عبد الله صالح؟

ولأنني حارسه الشخصي – وكان لا يخفي عني الكثير – فكر قليلاً ومسح على لحيته ثم قال:"إنه رجل ذكي وداهية وثعلب أسأل الله أن يهديه!! ثم عقب: ويكفينا أنه لم يأت بواسطة سفارة أجنبية في صنعاء!!".

العـــودة إلـى اليمـــن

بعـد عودتنـا إلى أرض الـوطن وتجربتنـا مـع "الإخـوان المسـلمين" وبعـد خوضنا لحرب الانفصال والدفاع عن وحدة هذا الشعب ، وانفصالي عن الأستاذ عبد المجيد الزنداني بعد حرب ١٩٩٤م، عندما تبين لي أن الخط السياسي الذي كان في تصاعد بيانياً ، حتى توقف عند مشروع جامعة الإيمان ، وعندما أعلن الشيخ – في جلسة طلبها هو نفسه – أنه قد عاد وبشكل رسمي إلى العمل السياسي داخل إطار تنظيم حركة الإخوان المسلمين ، وأنه من أراد البقاء معه في هذا التنظيم وفي هذا البرنامج السياسي فأهلاً وسهلاً به ، والذي لا يريد ذلك فالباب يتسع لجمل!!!؟ ، عند ذلك كنت أول الخارجين من تلك الجلسة ، وبخروجي أعلنت رفضي لبرنامجه ، ومنذ تلك الساعة لم أعد أجتمع به من خلال عمل اللهم إلا في اللقاءات العامة التي كنت أقابله فيها إما في مسجد أو محاضرة..الخ تلك اللقاءات العامة.

الاتصال بالسفارة الأمريكية والاستعداد لإلقاء القبض على أسامة بن لادن

دارت الأيام والشهور والسنين وإذا باسم أسامة بن لادن يظهر بقوة بعد عمليتي "نيروبي ودار السلام" ثم جاءت بعدها عملية تفجير المدمرة "كول" في ميناء عدن.

وكنت أتابع كل تلك الأحداث وأعود بذاكرتي إلى شخص أسامة بن لادن الذي عرفته جيداً، وكنت أشكك – في نفسي – من قيام أسامة بأعمال كهذه؟ لأنني أعلم حدود إمكاناته والعاملين معه، وأردت أن أبدد كل تلك الأسئلة التي كانت تدور في خلدي ولم أجد لها إجابات شافية وقاطعة فقررت الاتصال بالسفارة الأمريكية فأرسلت لهم – عبر الفاكس – برسالة أخبرتهم فيها بهويتي وماهيتي وطلبت موعداً! وإنني سأتصل بهم في اليوم التالي ..

وبالفعل اتصلت وحدثني رجل يتكلم اللغة العربية – بلكنة لبنانية – قلت له: لقد وصلكم الفاكس فهل أنت مستعدون للعمل من خلال الإعلان الذي تذيعونه صباح مساء عن الرجل المطلوب لأمريكا؟

وعند العاشرة صباح اليوم التالي دخلت مبنى السفارة الأمريكية بحجة أنني أريد الحصول على تأشيرة دخول إلى أمريكا، وقد أخذت جواز سفري وعبأت استمارة الدخول، ودخلت مع بقية اليمنيين العاملين لمثل هذه الأمور، وعند وصولي مبنى القسم القنصلي التابع للمغتربين اليمنيين واصلت تقدمي حتى وصلت إلى باب إلكتروني كان يقف أمامه عامل – ربما أنه أثيوبي الجنسية – قلت له: إنني على موعد مع السيد "ديفيد" طلب مني البطاقة الشخصية

فأعطيته إياها، ثم سلمها لرجل أمريكي كان يلبس زياً عسكرياً ويقف خلف زجاج "مدرع".

ثم عاد إليّ وفتشني من خلال جهاز كان بيده، ثم أدخلني من ذلك الباب الإلكتروني، ودخلت الى مبنى السفارة ومعي السيد "ديفيد" ثم دخلنا غرفة صغيرة على اليمين وجلسنا ، وكان يفصلني عنه طاولة مستديرة ، وقد بادرني بالقول: إننا نتلقى كل يوم الكثير من الفاكسات والمكالمات وكلها كانت كاذبة فلم يصل أحد إلى مبنى السفارة إلا أنت!! وبعد هذه الكلمات التعبيرية قلت له: من أجل ذلك اسمع مني فإذا كنتم – كما نسمع – أناساً عمليين فإنني كذلك: إن اسمي مصطفى محمد علي بادي من قرية شعب الطلب ، مديرية السدة، قضاء يريم ، محافظة إب ، من مواليد ١٩٦٧م ، دخلت أفغانستان ومكثت فيها أربع سنوات ونصف السنة ، وكنت في فترة – من الفترات – قائداً لمعسكر "ليجة" منطقة "خوست" ولاية "بكتيا" ، ثم خرجت من أفغانستان عندما شعرت أن مهمتي وواجبي قد انتهى إلى ذلك التاريخ سنة ١٩٩١م، وعدت إلى اليمن مع بقية الشباب العائدين إلى بلادهم ، وكنت الحارس الشخصي للأستاذ عبد المجيد الزنداني حتى نهاية حرب ١٩٩٤م، هذه هي بطاقتي الشخصية والتعريفية ، فلأنني أتعامل مع الحكومة الأمريكية أردت أن أعطيكم بطاقتي الشخصية والتعريفية الحقيقية دون زيادة أو نقصان حتى إذا أجريتم التحقيق فيها فلن تجدوا أكثر من ذلك..

ولأنني أعلم حدود إمكانياتي فإنني أستطيع أن أجد أسامة بن لادن الذي تبحثون عنه كما تدعون من خلال إعلاناتكم اليومية ، وإنني قد جئت إليكم لأعقد معكم صفقة بهذا الخصوص!!

ثم سألني أسئلة، قيمتها من خلال قناعتي وعلمي بخطورة هذا الأمر، وقلت لنفسي: ماذا يريد أن يقول لي هذا الرجل؟! لقد قيمته من خلال تلك

الأسئلة على أنه رجل أحمق!! لقد سألني في البداية قائلا: قد تكون أنت من جماعة "أسامة" وجئت إلينا لتعرف ماذا سنفعل؟!! والسؤال الثاني قال فيه: قد تكون مرسلاً من الشيخ عبد المجيد الزنداني "إننا نحترم الشيخ ونقدره"؟! أما السؤال الثالث فقد قال: إنك قد تكون تعمل في الأمن السياسي!!

قلت له: إنني – حسب ما أسمع وأقرأ عن قدرة وإمكانيات أمريكا الهائلة في هذا المجال – أعتقد أنها ستجيبك على هذه الأسئلة التي سألت ، ولكي أحسم هذا الموضوع من جهتي ، تفضل وشاهد هذه الصور الفوتوغرافية وأنا مع بعض القيادات الأفغانية الرئيسية ، أعتقد أن هذا الدليل سيبعد عنك هذه الأسئلة التي سألتها إن كنت جاداً!!

وكان يكتب كل كلمة أقولها ، ثم قال لي: إنني موظف لدى سفارة بلدي ، وإن مهمتي أن أنقل هذا الكلام – الذي قلته – إلى حكومتي في واشنطن وهي التي تقرر ما تراه!! أرجو أن تسمح لي بزيارة مرة أخرى إلى هنا بعد أسبوع وسيكون الرد وصل من واشنطن . وانتهى اللقاء الأول عند هذه النقطة.

وبعد أسبوع حسب الاتفاق اتصلت به – وكان قد أعطاني تليفونه المباشر – فرد عليّ هو مباشرة وكنا قد اتفقنا بطلب شخصي أن يسميني أثناء مكالمتي معه باسم آخر.

قال لي: ستصل إلى البوابة الرئيسية للسفارة وسيكون في انتظارك ضابط من السفارة اسمه "بوب" – وكان رجلاً سميناً وأصلع – وسيدخلك مباشرة إلينا.

حصل كل ذلك حتى وصلت إلى مدخل مبنى السفارة وتم تفتيشي بنفس الطريقة السابقة، وكان في استقبالي السيد "بوب" في الخارج عند الموظف الإثيوبي.

وعندما دخلنا الغرفة نفسها التي جلسنا فيها المرة الأولى بادرني بالقول: لقد وصل الرد من واشنطن وإن كل ما قلت كان صحيحاً ، وإني معجب بما قمت به في أفغانستان ، يجب أن يعمل فيلم لما قمت به من عمل ممتاز ودور جيد جداً. هكذا قال بهذا اللفظ ، ثم قال: إن واشنطن تريد أن تعرف ما هي الطريقة التي ستدلنا بها إلى مكان أسامة بن لادن؟

قلت له: يا سيد ديفيد ، إنني أتعامل مع الحكومة الأمريكية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن أملك القدرة على وضع خطة من الخطط ، إنني هنا أعرض عليكم إمكانياتي الشخصية فقط ، والتي أستطيع من خلالها أن أصل بطريقتي الخاصة إلى أسامة بن لادن، ما عدا ذلك لا أعلم شيئاً ، وإن شرطي الوحيد مكافأتي لهذا العمل.

وقبل أن أتحدث عن المنحة المالية التي أعلنتموها مع أن إعلانكم واضح أنه من يدلي بمعلومات أو يدل على مكان أسامة بن لادن فإنه يستطيع الحصول على خمسة ملايين دولار ، إذا كنتم صادقين ، وإنني هنا أتحداكم أن تقولوا لي بحسب كلامك السابق من أنك لم تصدق أحداً من كل تلك المكالمات والفاكسات التي تصلكم كل يوم .

وأنا أعرض عليكم للمرة الأخيرة وأقول: بما أنكم تريدون ضمانات لجدية ما أقول ولكفاءتي فإنني أعرض عليكم هذا العرض ، وهو أن يتم إدخال زوجتي وأولادي الثلاثة إلى أراضي الولايات المتحدة الأمريكية حتى يكونوا تحت الحماية وبعيداً عن أيدي أسامة بن لادن حتى أضمن سلامتهم ، وعندما ننتهي من عملنا بالبحث عن أسامة بن لادن نستطيع أن نتحدث في الموضوعات الأخرى المالية والأمنية....الخ.

ثم علقت بالقول: بَلّغ حكومتك أنكم إن رفضتم هذا العرض فإنكم أغبياء، وإن أسامة لا يعنيكم بأي حال من الأحوال.

وقد أجاب عليَّ بنفس الإجابة السابقة: إنني هنا أنقل لحكومتي كلامك الذي قلته وعليك أن تتصل بي في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم.

استأذنت منه وخرجت ، وفي نفس الموعد من الأسبوع القادم اتصلت بالسيد "ديفيد" فرد علي بالقول – وبالحرف الواحد – : "إن حكومة بلادي لا تريد التعامل معك ولا تريد أيضاً أن تتصل بالسفارة أو تأتي إلى هنا... أرجوك"!!

من أجل ذلك كله وخلاصة هذه التجربة فإنني أوجه رسالة للسيد "أسامة بن لادن" بأن لا يقحم نفسه في القضية الفلسطينية ، وأن يترك الفلسطينيين وشأنهم ليموتوا بطريقتهم الخاصة وحسب ظروفهم.

إنني والله ما وجدت أحداً من الفلسطينيين داخل معسكرات أسامة بن لادن كلها التي خبرتها ، ولم أسمع أسامة بن لادن يوماً يحرض الشباب في تلك الفترة على الجهاد في فلسطين ، ولم أشاهد في معسكراته إلا المصريين المشبوهين من جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية، ومن السلفيين المرسلين من الرياض.

لقائي برئيس الجمهورية

كان لي لقاء مع رئيس الجمهورية في عام ١٩٩٨م، حيث كانت عندي أمانة مهمة جداً تخص الرجل القابع في بريطانيا، وقد احتفظت بها من بعد حرب ١٩٩٤م حتى ذلك التاريخ، وطلبت موعداً من أحد حراس رئيس الجمهورية الذي تعرفت عليه عندما كنا نعمل سوياً ضمن إطار أعضاء مجلس الرئاسة آنذاك، ولم تمر سوى يومين حتى اتصل بي هذا الأخ وأعطاني موعداً لمقابلة رئيس الجمهورية.

وفي صباح أول أسبوع في ذلك التاريخ كنت على موعد مع رئيس الجمهورية، وأدخلت له الأمانة عن طريق حراسه، ودخلت أنا لمقابلته ، والحق أقول: إنني وجدت في هذا الرجل تواضعاً كبيراً وشخصية واثقة من نفسها، وقد حاول أن يخاطبني بأسلوب الأب ، وكان يتعمد من خلال حديثه ولطائفه وكأنه يريد أن يعطي لضيفه الأمان ويزيل القلق النفسي حتى يكون الحديث مثمراً لأني كنت متوتراً لأن الملك والسلطان والرئيس له هيبة مهما كان متواضعاً.

وبعد دقائق انشرح صدري له وهدأت أعصابي وبدأت أحدثه عن دور المجاهدين أثناء حرب الانفصال وكيف أنهم أبلوا بلاء حسناً، وكانوا منذ إطلاق أول رصاصة في معسكر عمران حتى وصلنا مطار سيئون في المكلا وهم دائماً في مقدمة الصفوف، بل كانت القوات الرسمية أو الجيش يبعد عنهم مسافة بعيدة، وشرحت له الوضع الصحي والاجتماعي للمجاهدين...الخ.

ووعدني الرئيس بأنه سيقدم لهم ما يحتاجونه وزيادة!!

أما أنا فقد أكرمني وأعطاني ترقية "رتبة نقيب" وعملاً ، ووعدني بمكافأة ، ولكنه أشترط التأكد تماماً من تلك الأمانة التي سلمتها إياه.. وإلى اليوم لم أستطع مقابلته!!

إن نظامنا السياسي هو الوحيد في العالم العربي والإسلامي الذي استفاد استفادة كاملة من قدرة وطاقة المجاهدين ، وكانوا خير معين في الدفاع عن أرضه ووحدته ، وكنت أتمنى على باقي الأنظمة أن تستفيد منهم بدلاً من أن تعلن الحرب على المجاهدين نيابة عن أمريكا والصهيونية ، وما يقومون به من حرب شاملة لم تعد تفرق بين الجهادي والفتحي والشعبي... الخ التسميات – خير دليل ، لقد كان الأولى بأنظمة ما يسمى بدول الطوق أن تفتح الطريق لهؤلاء الشباب ، فإن قاتلوا اليهود وقتلوهم وانتصروا عليهم كان للعرب – حكاماً ومحكومين –النصر والعزة التي فقدوها بسبب خوفهم من هذا العدو إذا أحسنا الظن بهذه الأنظمة ، وإن قتل اليهود هؤلاء الشباب فقد أكفوهم شرهم وإلى الأبد..

ماذا يضرهم لو فعلوا ذلك؟؟؟

انتهى ،،،

<u>قصيدة ترد على المرجفين طابور أيمن الظواهري في بشاور وجماعته المنتسبين لسلفية</u>

<u>الذين كانوا ينالون من الدكتور /عبد الله يوسف عزام وأرخت بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٩٨٩م</u>

كفرت بكل من عذلُ وعن درب الفدى عدلُ
ومن لم يصبهم في العيـ ـش إلا النوم والكسل
ومن بنديهم والنار تز حف يكثر الجدلُ
ومن بالوهم - رغم التيـ ـه ظنوا أنهم وصلوا
وأكبرت الذين مضوا وعمًّا شق ما سألوا
ومن دمهم أضيئت في دياجي الحيرة الشعلُ
أيا مهراً يجيد العدو لم يشمت به الكللُ
رأيتك صافياً والناس مغشوش ومنتحلُ
وزورق عزة رغم اشـ ـتداد الموج ينتقلُ
وسيفاً مثل ضوء البرق يسطع حين ينتضلُ
وإعصاراً إذا ما هبَّ ريع الحادث الجللُ
لنا اسمح أن نقبل في يديك السيف يا بطلُ
ونمسح عن حذائك ما عليها يطرح السفلُ
كقول من أخي سفه تواري عنده الخجل
تخوض القدس في دمها وتنهش نحرها الذبل
ورجلك دون ساحتها بها قد ضلت السبل
وقلبك في هوى الغرباء متبول ومنشغل
فهل (كابول) علتها تهون أمامها العلل؟
وهل من ناقة فيها لنا ياشيخ أو جمل؟
أجبهم يا رعاك الله حتى يخرس الجدل
وقل يا أيها النقاد من لاموا ومن عذلوا
أنا ما زال جرح القدس في جنبي يعتمل
ووقد مصابها كالنار في الأحشاء يشتعل

أنـــا مـــا خنـــت عهـــد الله ... لمـــا خانـــت الـــدول
وفي ســـاحاتها جاهـــدت ... إذ جـــل الـــورى خـــذلوا
فلمـــا غـــل كـــف الفـــدي ... وانقطعـــت بنـــا الســـبل
ولم يبـــق الطغـــاة لنـــا ... طريقـــاً نحوهـــا يصـــلُ
ونحـــن بشـــرعنا كـــابول ... أخـــت القـــدس إن جهلـــوا
مضـــيت مجاهـــداً مـــع مـــن ... بهـــم يتشـــرف المثـــل
بـــني الأفغـــان لا ميـــل ... إذا احتـــدمت ولا عـــزل
علـــى نـــار الأســـى شـــبوا ... وفـــوق جحيمهـــا اكتهلـــوا
وكـــان الحـــزن يلبســـهم ... وعـــنهم لـــيس ينفصـــل
فتلـــك ربـــوعهم بالـــداقق ... المـــوار تغتســـل
وتحـــت صـــواعق الغـــارات ... بـــالنيران تشـــتعل
وتلـــك جمـــاجم الأطفـــال ... تســـحق وهـــي تبتهـــل
وأعـــراض النســـاء بهـــا ... يعيـــث الملحـــد الثمـــل
فمـــا ذل الإبـــاء بهـــم ... ومـــا بهـــم احتفـــى الفشـــل
ورأس الشـــعب مرتفـــع ... ومـــوج البـــذل متصـــل
وفينمـــا مـــن يقـــول لهـــم ... عقيـــدتكم بهـــا خلـــل!!!
معـــاذ الله هـــذا الإفـــك ... ممـــا لـــيس يحتمـــل
فيـــا أحبابنـــا الأفغـــان ... مـــن ضـــحوا ومـــن بـــذلوا
لأنـــتم في الحيـــاة شـــذىً ... ونحـــن الثـــوم والبصـــل
ونحـــن عـــن الجهـــاد الحـــق ... ذاك العـــازف الوجـــل
ونحـــن الجـــبن والخـــذلان ... والتضـــليل والـــدجل
خوالـــفَ أمـــتي مهـــلاً ... بصـــيرتكم بهـــا حـــول
فلـــيس ســـوى عقيـــدتكم ... ســـرى بكيانهـــا الشـــلل
جنـــود الـــروم نعرفهـــا ... وإن ميـــدانها نقلـــوا
إيـــا مـــن فكـــرهم قـــد زاغ ... عمـــا بـــين الرســـل
وفي أحكـــامهم حـــادوا ... عـــن التقـــوى ومـــا اعتـــدلوا
لهيـــب الشـــرك لا يطفيـــه ... إلا الأحمـــر الهطـــل

وما سندت خطى التوحيد ... إلا البيض والأسل

أقول لكم وجنح الليل ... داج مطبق أزل

سأبقى في جبين الصبر ... وشماً ليس ينتقل

أشرع هامتي للنار ... للأشواك أنتعل

أراقب هبة الإيمان ... يحدوها الشذى الخضل

وكل قذيفة يشدو ... على أنغامها الأمل

تقول وربما قول ... تقر بطيبه المقل

لك البشرى ترجل عن ... جوادك أيها الرجل

فإن الإخوة الغياب ... للميدان قد وصلوا

ومن بوابة الأفغان ... للتاريخ قد دخلوا

الدكتور/ يوسف .....

مع بعض طلبة العلم منطقة - تسويه

فوق جبال قرديز - باكتيا

معسكر الفتح - جاجي

مع القائد شيرين جمال وأبي الشهيد

مع الأستاذ / حكمت يار - في معسكر جهاد وال

مع الأستاذ/ حكمت يار وأبي الشهيد

مع أسدين من جند الله الأفغان في منطقة سبينكيه

مع ضابط أسير روسي بعد معركة سبينكية

وسط مطار خوست - طائرة نقل روسية

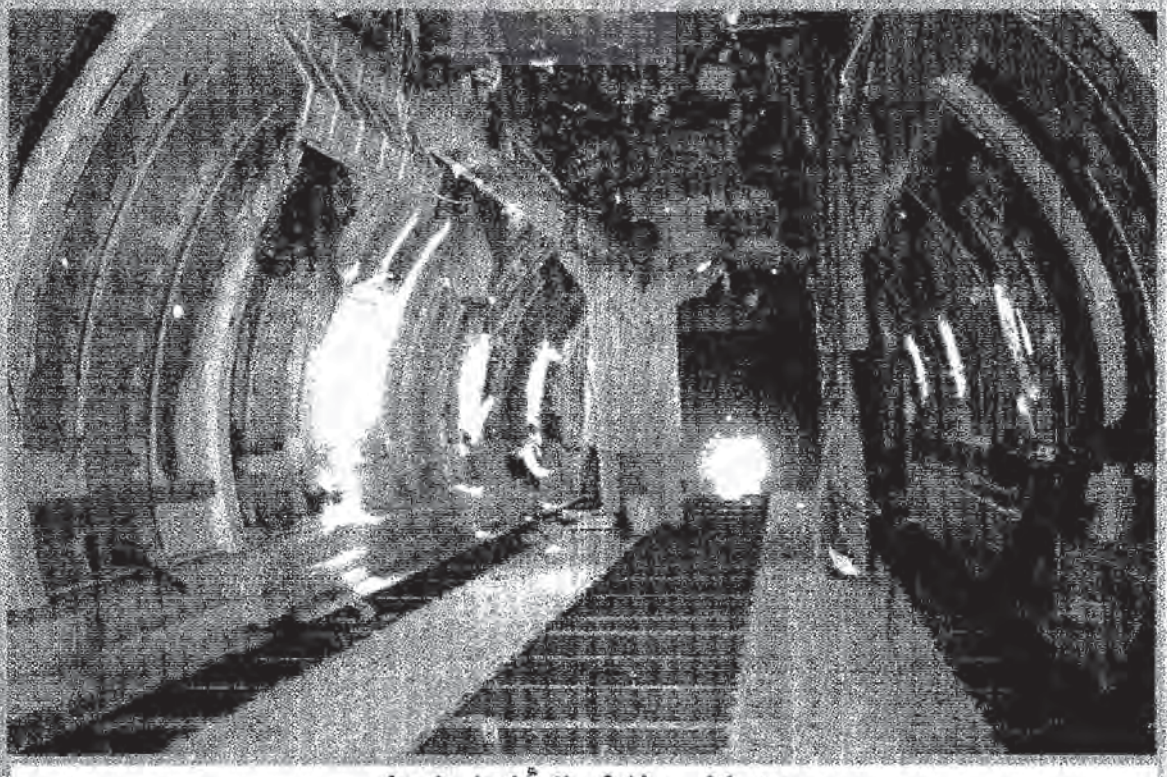

داخل طائرة أنطونوف

مع الشيخ/ جلال الدين حقاني في معسكر باري

بوابة إحدى الكهوف لمعسكر ليجة

المخزن الخاص لمعسكر ليجة - وصاورخ استينجر

وسط سوق مدينة خوست بعد فتحها

الصحفي عبد الله الرومي قاتل جميل الرضى

الصحفي عبدالله الرومي في زيارة لمعسكر ليجه مع بعض الشباب العرب

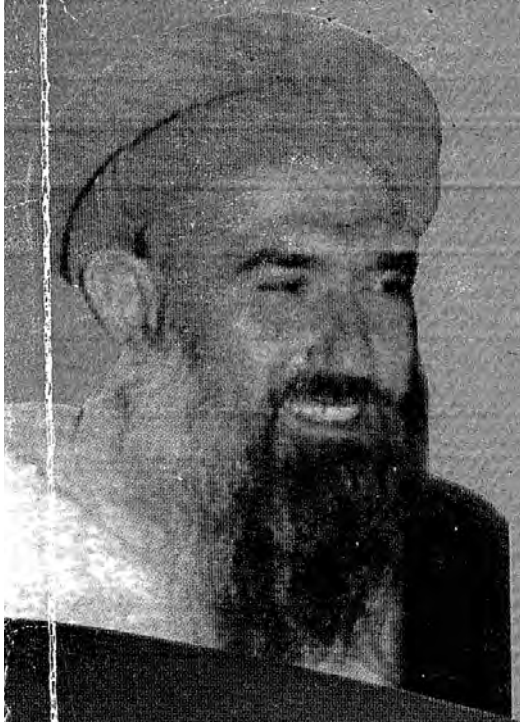

الشهيد / عبدالله عزام